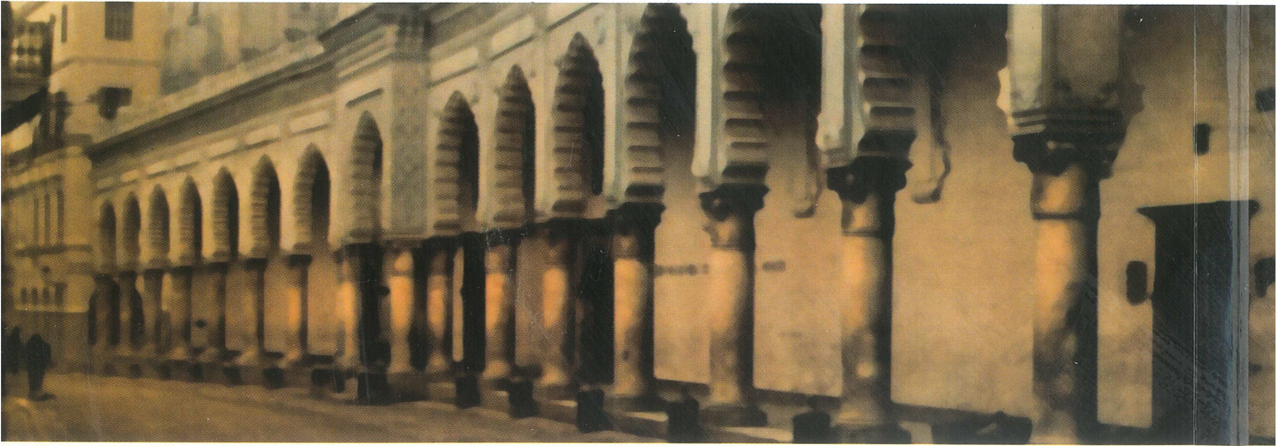
TAKWEEN
تكوين للدراسات والأبحاث

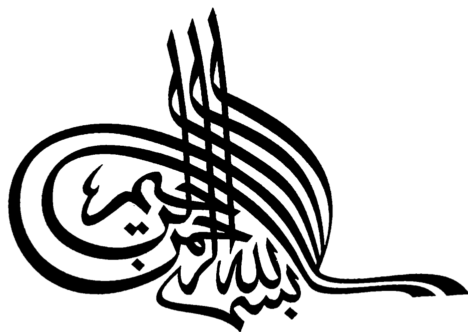
الإصلاح العقدي عند البشير الإبراهيمي

مجالاته ومعالمه، آثاره وأبعاده



عثمان بن عبدالحفيظ القاضي

الإصلاح العقدي
عند البشير الإبراهيمي



الإصلاح العقدي
عند البشير الإبراهيمي

(مجالاته ومعالمه، وآثاره وأبعاده)

عثمان بن عبدالحفيظ القاضي



الإصلاح العقدي عند البشير الإبراهيمي

(مجالاته ومعالمه، وآثاره وأبعاده)

عثمان بن عبدالحفيظ بن عثمان القاضي

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن نظر المركز»



Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

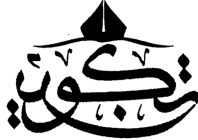
www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

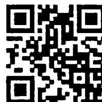
الموزع المعتمد

+966555744843
المملكة العربية السعودية - الدمام

+201007575511
مصر - القاهرة

مؤسسة دراسات تكوين
للنشر والتوزيع
س ٠ ت : ٢٠٥٠١١٧١٢٠
جوال : ٠٥٥٥٧٤٤٨٤٣





المقدمة

الحمد لله الذي رفع منار الإسلام، والصلاة والسلام علىٰ خير الأنام، وعلىٰ آله وصحبه بدور التمام، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يومِ تشقُّقِ الغمام، أما بعد:

فإن العقيدة الإسلامية هي قضية القضايا، وأصل الأصول، والمحور الرئيس في حياة كل عبد، والأساس الذي تنبني عليه سائر العبادات، والعناية بها من أوجب الواجبات وأهم المهمات، إذ بها تتحقق للعبد الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وإن من أعظم ما يُسهِم في رعاية العقيدة وحفظها وصيانتها: تقرير أصولها ودلائلها في نفوس الناس، ودفع كل ما من شأنه أن يزيحها أو يزعزعها أو يضعفها من كل واردٍ يرد عليها، وقد تتابع علماء أهل السنة والجماعة منذ فجر الإسلام علىٰ نشر العقيدة الصحيحة بين الناس، ورد كل ما يخالفها، بشتىٰ الوسائل ومختلف الطرق، فصنّفوا المصنّفات، وعلّموا الناس دينهم وعقيدتهم، وجابوا الأقطار والأمصار داعين إلىٰ توحيد الله وصراطه المستقيم، ومصححين لعقائد من اتبع السبل فتفرقت به عن سبيل الله، أُسْوَتُهم في ذلك نبيُّهم وإمامهم محمد بن عبدالله ﷺ الذي جاء بالدين الكامل والإصلاح الشامل، فهم أتباعه العُدول مِن أمّته، خَلَفُوه في هذا المقام الشريف، يَنْفُونَ عَن كتاب الله تَحْرِيفَ

الغَالِين، وانْتِحَالَ الْمُبْطِلِين، وَتَأْوِيلَ الجاهِلِين، ويخرجون الناس بشمس الوحي من الظلمات إلىٰ النور.

ومن أولئك العلماء الذين ساهموا في تقرير العقيدة الصحيحة، ورعايتها ونصرتها، والدعوة إليها، وإصلاح ما فسد من عقائد الناس؛ الإمام العالِم المُصلِح: محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد سلك سبيل الإصلاح علىٰ وعورته، وركبَ مَتْنَهُ رغم خطورته، إذ كان في زمنٍ صعبٍ كثُرَت فيه الأباطيل، وكثُر فيه المبطلون، فصارع أعداء الداخل وأعداء الخارج، وجابَه ألوانًا من الفساد وأصنافًا من المُفسِدين، وانبرىٰ لهم بقوّة جَنَانِه وبراعة بيانِه، فوقف المواقف المشهودة، وحَثَّ الخُطىٰ نحو الغاية المنشودة، مُرتكزًا علىٰ أساسٍ متين من الاعتقاد الرصين، ومستبصرًا بمنهجٍ قويمٍ علىٰ صِراطٍ مُستقيم.

فجاء هذا الكتاب مُسلِّطًا الضوء علىٰ أهم نقطةٍ ينطلق منها المصلحون في سبيل إصلاحهم، وأصْلَبِ قاعدةٍ يستندون إليها، وهي العقيدة الصافية المستقاة من الوحي كتابًا وسُنّة، واختير له عنوان: **(الإصلاح العقدي عند البشير الإبراهيمي) مجالاته ومعالمه وآثاره وأبعاده**، دراسةً للبُعْد العقدي في جهوده الإصلاحية.

والإصلاح -كما يقول الإبراهيمي- أمانةٌ إلهيَّةٌ تنتقل من صدرٍ إلىٰ صدر ولا تدخل مع الميت إلىٰ القبر، فالإصلاح لا يموت بموت المُصلِحِين(١).

وحديث البشير الإبراهيمي حول الإصلاح حديثٌ ذو شُجُون، فهو نابعٌ من قلب مُصلحٍ قد خالط همّ الإصلاح شِغاف قلبه، وقضىٰ فيه جُلَّ عُمره، فحديثه عنه ليس كحديث غيره، وبيانه لدقائق أمره أوفَق من بيان المُجانِب للميدان أو المتردّد عليه بوهن.

لقد عدّ البشير الإبراهيمي أوكد الواجبات علىٰ كل من يريد الإصلاح لهذه الأمة «تقوية الشعور الديني في نفوس الأفراد»، وذلك لأنّ الناحية الدينية هي

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٢٨).

الناحية التي يسهل على المصلح استمالة الجمهور إليها، فإذا مال الجمهور إليها سَهُل جذبه بها إلىٰ ما يُراد به من خيرٍ وإصلاح[1].

وقرّر أن قوة الإصلاح الديني مُستمدّةٌ من العلم والعلماء[2]، وأن أصول الإصلاح التي جاء بها القرآن مجموعةٌ ومُرتَّبةٌ في الذكر ترتيبها في الوجود في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: ٥٧][3]، فكان القرآنُ مُنطلقه في الإصلاح، وموئله الذي يؤول إليه، بل كانت غايته من كلمة الإصلاح أن يقول للمسلم: «كن مسلمًا كما يريد منك القرآن وكفىٰ»[4].

«إن دينكم دين إصلاح، وسبب إصلاح، ومظهر إصلاح»[5] هكذا يرىٰ البشير الإبراهيمي ارتباط الإصلاح بدين الإسلام ارتباطًا لا انفكاك معه، فيجعل قاعدة الدعوة الإصلاحية وأسلوبها ومحل الرجاء فيها؛ حمل الناس علىٰ الإسلام بأداء الواجبات التي يقضي بها والتي يتقاضاها، والآداب التي يروّض الإسلام أتباعه عليها ليستحقّ المسلم بذلك منازل الكرامة في الدنيا والآخرة، فالإسلام «يريد تكميلك فلا تنقصه، ويريد أن تكون حجة به فلا تكن حجة عليه . . . فصحّح العقيدة، وروّض جوارحك علىٰ التكاليف، وقف عند حدود الشرع، وخذ نفسك بالصالحات، واقضِ لأخيك بما تقضي به لنفسك، فإذا أنت المسلم الكامل، وإذا أنت عبد الله وحده» فكانت هذه القاعدة التي يريد من بُناة الإصلاح أن يقيموا عليها هيكل الإصلاح[6].

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٩١).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ١٤٤).

(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٤٢).

(٤) انظر: آثار الإمام (١/ ٢٨٣).

(٥) آثار الإمام (١/ ٣٦٥).

(٦) انظر: آثار الإمام (١/ ١١٢).

وقد كان البشير الإبراهيمي يؤسّس الوعي الإصلاحي فيمن حوله ليكون إصلاحهم علىٰ خُطىٰ سديدة وغاياتٍ رشيدة، فيندب -علىٰ سبيل المثال- من أراد الإصلاح إلىٰ إصلاح نفسه أولًا ومداواتها، ثم الدخول فيما دخل فيه الناس، وأن يكون مخلصًا في ذلك، وأن يعالج أدواءهم من الداخل لا من الخارج، لأن محاولة الإصلاح من الخارج هدمٌ وتخريب[1]، وكل ذلك علىٰ نهجٍ سلفي يُبنىٰ عليه كل مبدأ وطريقٍ إصلاحي[2].

لقد كان رجاء البشير الإبراهيمي كبيرًا في انتشار الإصلاح وظهور ثمراته بحول الله وقوّته، فيقول بلسان الواثق في الله المحسن الظن بربه: (وسيعمّ الإصلاح الديني هذه الأمة لا بقوّتنا بل بقوة الله، وسيتفق الناس عليه حتىٰ كأن لم يكن بينهم فيه خلاف، وسيهتدي الضال ويرشد الغَوِي، وثِقُوا أنه ما اختلف اثنان في الحق إلا وأرغمهما الحق علىٰ الاتفاق فيه)[3]، وليس غريبًا أن ينال المصلحين ما ينالُهم من وعثاء الطريق، وقد كان البشير الإبراهيمي مستحضِرًا هذا المعنىٰ، فقال قولًا مُلِئ عزمًا ويقينًا: (لسنا نجهل هذا من سنن الله فلم نشك لحظةً منذ وضعنا قدمنا في طريق الإصلاح الديني ورفعنا الصوت بالدعوة إليه في أن الله سيُديل للحق من الباطل، وأنه يبتلي أولياءه بالأذىٰ والمحنة ليمحّصهم ويكمّل إعدادهم للعظائم. ولم نزل علىٰ يقينٍ تتجدّد شواهده ان في المصائب التي تصيبنا في سبيل الإصلاح شحذًا لهممنا وإرهافًا لعزائمنا، وتثبيتًا لأقدامنا، وإلفاتًا للغافلين عنّا إلىٰ موقعنا من الأمة وموقفنا من أعدائها، وقد ألفنا هذه المكائد التي تُنصب لنا حتىٰ ما نبالي بها ... وإننا لنبتهج بالمصيبة تصيبنا في سبيل الإصلاح أضعاف ما يبتهج غيرنا بالطيبات والمسارّ، ونعدُّ كبيرها -مهما أعضل وآذىٰ- صغيرًا هيِّنًا، وخَفِيَّها -مهما أفظع وبَغَت- ظاهرًا جَلِيًّا، ونأسىٰ

(١) انظر: آثار الإمام (٢/ ١١٥)، (٣/ ٢٧٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٣).

(٣) آثار الإمام (١/ ٢٠٩).

لإغبابها عنّا كما يأسىٰ الممحل للجدب، ونرتقب إلمامها بساحتنا كما يرتقب غيرنا النعم والخيرات، لِعِلْمِنا أن المعاني التي تتركها في نفوسنا هي المعاني التي نصبو إليها، وأنَّ تَمَرُّسنا بها بابٌ من أبواب الرجولة وسبيلٌ من سُبُلِها)[١].

الإصلاح العقدي.

أما الإصلاح العقدي علىٰ وجه الخصوص فقد حمله الإبراهيمي رحمه الله علىٰ كاهله، وسعىٰ من أجله سعيًا حثيثًا مباركًا، واجتهد في تحقيق مطلوبه اجتهادًا كبيرًا، فهو يعدّ تصحيح العقائد رأس المال في الدين[٢]، كما يعدّ العقيدة جزءًا من الوجود الإنساني الذي يستميت الإنسان في الدفاع عنه والحفاظ عليه، فيقول: (إن هذه الأشياء الروحية التي تسمّىٰ الدين والعقيدة والضمير، هي أشياء طبيعية، بل هي أجزاء من الوجود الإنساني، فمقاومها كمصادم الجبل الأشم، لا يبوءُ إلا بالزعزعة والضعضعة)[٣]، كما يقرّر موافقة عقائد الإسلام للفطرة وملاءمتها لها، وتهذيبها لنفوس المسلمين[٤].

وقد تعددت مساعيه في هذا المضمار، وبذل من وقته وعلمه وجهده ليبث بين الناس العقيدة السلفيّة الصافية السليمة التي لا تشوبها بدعةٌ ولا يُكدّرها زيغ، فهو يعتقد أن هذا هو الجهاد الأكبر الذي لا يعذر المصلحون في التخلف عن ميدانه، وأن المحافظة علىٰ الأرواح ليست أقل شأنًا من المحافظة علىٰ الأبدان[٥].

وقد بيّن رحمه الله حال زمانه وبلاده وفساد العقائد الذي قد طغىٰ واستشرىٰ، إذ يقول: (إن تقديم الجمعية للإصلاح الديني علىٰ الإصلاح العلمي ضرورة

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٧٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٤٠٦).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٢٢١).

(٤) انظر: آثار الإمام (٣/ ٤٢٨)، (٤/ ٣٦٠).

(٥) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٧).

اقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتىٰ أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم)[1]، ولذا حرص رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تصحيح العقيدة في بني زمانه، فتجده يوجه نداءه لهم بقوله: (فصحّحوا عقائدكم في الله . . . وطهّروا أنفسكم وعقولكم من هذه العقائد الباطلة الرائجة بين المسلمين اليوم، فإنها أهلكتهم وأضلّتهم عن سواء السبيل)[2].

الإصلاح العقدي في المدارس.

ومن الجهود التي بذلها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المضمار؛ ما اشتملت عليه مناهج المعاهد والمدارس التي أنشأها من غرس للعقيدة الصحيحة في نفوس أبنائها الملتحقين بها، إذ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذا الجانب: (وإن معهدنا ليعنىٰ من أول يوم بالتربية التي تهملها المعاهد كبيرها وصغيرها أو تتساهل فيها مع أنها هي الأصل والأهم المقدّم، كما يعنىٰ باهتمام بغرس العقائد الصحيحة في أذهان التلاميذ وبتعويدهم علىٰ العبادات البدنية حتىٰ ينشؤوا مؤمنين عاملين للصالحات)[3]، كما يتحدث عن مئة وثلاثين مدرسة قد جُهزت لثلاثين ألف تلميذ، يتلقون مبادئ الدين الصحيح عقيدة وأعمالًا[4].

الإصلاح العقدي للنفوس.

ويبيّن الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما لتصحيح العقائد من آثار علىٰ نفوس أصحابها، ومن ذلك قوة العزيمة والإرادة، فيقول عن أثر الإصلاح الديني الذي شمل إصلاح العقائد بالمقام الأول: (تمكن من النفوس وتغلغل إلىٰ الأفئدة، فطهرها من الشوائب التي شابت الدين، ومن النقائص التي شانت الدنيا، وصحح العقائد

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٤٤).

(٢) آثار الإمام (١/ ٤٠٦).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٢١٩).

(٤) انظر: آثار الإمام (٢/ ٢٣٤).

فصحت القواعد، وصحح العزائم، فأقدمت علىٰ العظائم، وإذا صحت العقائد وصلحت النيات، ظهرت الآثار في العزائم والإرادات)[١]، وهو يقرّر أن بين العقيدة والعزيمة تلازمًا وارتباطًا وثيقًا، فيقول: (العزيمة أخت العقيدة، وهما كجناحي الطائر للرجال وللأعمال، والعقيدة بلا عزيمة باطلة، والعزيمة بلا عقيدة عاطلة، وما نهض الرجال العظام بالعظائم إلّا بعد أن صفت عقائدهم من شوائب الشك والتردد، وصحت عزائمهم علىٰ العمل النافع)[٢].

تراجع بعض العلماء عن الإصلاح العقدي.

وقد كان هذا الحرص الشديد من الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تصحيح العقائد وإصلاح ما فسد منها يقابله تراجعٌ ملحوظ في صفوف العلماء وتأثيرهم، أدّىٰ إلىٰ اختلال عقائد كثير من الناس، وفي ذلك يقول: (ما ظلم الله العلماء، ولكن ظلموا أنفسهم، ولم يشكروا نعمة العلم، فسلبهم الله ثمراته من العزة والسيادة، والإمامة والقيادة، وكان لخلوّ ميدان السلطة والأمر منهم أثر فاتك في عقائد المسلمين وأخلاقهم؛ وكان من نتائجه إلقاء الأمة بالمقادة إلىٰ مَن يُضلّ ولا يهدي من المشعوذين الدجّالين)[٣].

الإصلاحِ العقدي عند جمعية العلماء المسلمين.

ولقد كان إصلاح العقائد غايةً كبرىٰ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي رأسها الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدةً من الزمن، وقد اجتهدت الجمعية في سبيل ذلك غاية الاجتهاد، فكان هذا الهدف الأسمىٰ والمقصد الأعلىٰ لا يفارق برامجهم ومشاريعهم العلمية والدعوية، وفي بيان طرفٍ من ذلك يقول الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٢٣٥).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٣٤٤).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٣١٠).

حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه)[1]، ويقول مبيّنا أهم أعمال الجمعية ومنها إصلاح العقائد: (والوعظ الديني هو رائد جمعية العلماء إلىٰ نفوس الأمّة، جعلته مقدمة أعمالها، فمهّد واستقرّ، وذلّل الصعاب، وألان الجوامح، وعليه بنت هذه الأعمال الثابتة من إصلاح للعقائد، ونشر للتعليم، ومنه جنت كلّ ما تحمد الله عليه من نجاح)[2].

وقد نجحت الجمعية -بفضل الله- في تحقيق مرادها وغايتها العظيمة من إصلاح العقائد وتصحيحها وتطهيرها وتنقيتها لدىٰ المجتمع الجزائري، ولمست آثار ذلك، وقد قال الإبراهيمي رحمه الله محتفيًا بهذا الإنجاز: (ونجحت الجمعية -كذلك- نجاحًا جليًا مشهودًا ظهرت آثاره للعيان وَلَمَسَهُ الموافق والمخالف والمعتدل والمتجانف، في تصحيح عقائد الأمّة الجزائرية وتطهيرها من شوائب الشرك القولي والعملي التي شابتها، فصحّت العقائد وصحّت لصحّتها الإرادات والعزائم، وسنرىٰ من نتائج ذلك صحة الأعمال التي تصدر عن تلك الإرادات وتلك العقائد، وسنرىٰ من آثار طهارة النفوس قوّة في الأخلاق وسموًا في التفكير، ونزوعًا إلىٰ الفضائل لأن هذه الأشياء متلازمة لا تنفك بحال)[3].

ويُرجع رحمه الله الفضل في هذا النجاح -بعد توفيق الله- إلىٰ دعاة الجمعية فيقول ناسبًا الفضل إلىٰ أهله: (وليست هذه النتيجة بالأمر اليسير وما كنّا -لولا عون الله- لنبلغ هذا الحد من النجاح فيها، ولكن ماذا أنفقنا من الأعمال في هذا السبيل؟ وماذا زرعنا حتىٰ جنينا كل هذا الريع الزاكي؟ الحق أن هذه الآثار الجليلة كلها راجعة إلىٰ المقالات التي نشرتها صحف الإصلاح والدروس والمحاضرات التي ما زال يلقيها دعاة الإصلاح المنتشرون في القطر)[4].

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٦٢).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٢٨٥).

(٣) آثار الإمام (١/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٤) آثار الإمام (١/ ٢٨٤).

وأما العقيدة التي كانت تبثّها الجمعية وتقرّرها وتدعو إليها؛ فهي عقيدة السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، فقد ذكر الإبراهيمي أن الطريقة السلفية هي منهاج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد بنت عليها أصولها وجميع مبادئها ومناهجها في الإصلاح الديني(١).

وبعد هذه التقدمة التي جُلنا فيها مع معالم الإصلاح العقدي في تراث البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أُلمِح إلىٰ القارئ الكريم أني آثرت الإبقاء علىٰ كثير من نصوص الإمام الإبراهيمي دون تصرّف، فنقلتها بنصّها لا بمعناها لتميّز عبارات الإمام ورشاقتها، وحسن سبكها وبلاغتها، ولِمَا انطوت عليه من معانٍ عميقةٍ وأسلوبٍ فائق، فيه غُنيةٌ عن كثير من التعليق والتعقيب.

وقد قصدت إلىٰ بيان موقف الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ دون غيره في التقريرات العقدية التي قرّرها، والجهود العظيمة التي بذلها في مشروعه الإصلاحي، فكان البحث دائرًا في هذا الفلَك، عسىٰ أن نوفّي شيئًا من حق هذا العالم العامل، وأن نبرز جهوده في علمٍ هو من أهم وأشرف العلوم.

وإني أحمد الله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا علىٰ آلائه الغزيرة ونعمه الوفيرة التي لا تُعد ولا تُحصىٰ، فله الحمد كله وله الشكر كله، لا نحصي ثناءً عليه سبحانه وتقدّس، وأسأله أن يتقبل منا ما قدّمنا بقبولٍ حسن، وأن يجعله نافعًا خالصًا، وأن يعفو عن الزلل والخطأ والتقصير، إنه علىٰ ذلك قدير.

ثم أزجي من الشكر أغلاه ومن الدعاء أعلاه لكل من أعانني برأي أو فائدة أو تحفيز أو دعاء أو خدمة أو نيّة صادقة، سائلًا الله لهم جزيل الأجر والثواب والرفعة في الدارين.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٣).

ولستُ في غنًى عن تصحيحك وتقويمك أيها القارئ الكريم، جعلني الله وإياك مباركين أينما كنا، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

✍ عثمان بن عبدالحفيظ القاضي

مكة المكرمة

al.kadii@hotmail.com

التمهيد

التعريف بالبشير الإبراهيمي

أولًا: اسمه ونسبه ونشأته وتعلمه.

ثانيًا: عصره وموطنه.

ثالثًا: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

رابعًا: علاقته بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

خامسًا: تعرضه للبلاء ووفاته.

أولًا: اسمه ونسبه ونشأته وتعلمه

حين نعمد إلىٰ الحديث عن سيرة إمام كالإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإننا نحاول استيفاءها بما يناسب قدر صاحبها، ولعل من أفضل ما تُستفاد منه سيرته حديثُه عن نفسه وأطوار حياته ونشأته، فقد عرّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنفسه في مواضع عدة، ويمكن أن نستخلص من تعريفه بعض الجوانب المهمة والملهمة[١].

اسمه ونسبه:

هو الإمام محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، نسبة إلىٰ قبيلة عربية ذات أفخاذ وبطون تعرف بـ «أولاد إبراهم» وترفع نسبها إلىٰ إدريس بن عبد الله الأصل الأول للأشراف الأدارسة، وهي إحدىٰ قبائل مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري.

ولد يوم الخميس الرابع عشر من شوال عام ١٣٠٦ من الهجرة، الموافق للثالث عشر جوان ١٨٨٩ ميلادي، ونشأ نشأةً علميةً ريفيةً بسيطةً في المعيشة والطهارة في السلوك والمتانة في الأخلاق، والاعتدال في الصحة البدنية، ولما بلغ التاسعة أصيبت رجله اليسرىٰ بمرض، وكان للإهمال والبعد عن التطبيب المنظم أثر كبير في إصابته بعاهة العرج في رجله.

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ١٦٣-١٦٥)، (٥/ ٢٧٢).

نشأته وتعلّمه:

كان مُنْكَبًّا علىٰ العلم والتهام كتبه بالحفظ، فبدأ في التعلّم وحِفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمره، ولما بلغ سبع سنين قام علىٰ تربيته وتعليمه عمّه الأصغر شقيق والده، الشيخ محمد المكّي الإبراهيمي، وكان عالم إقليمهم المعروف بوطن «ريغة»، وفريد عصره في إتقان علوم اللسان العربي، وكانت أسرة الإبراهيمي قد توارثت العلم من خمسة قرون مضت، ومن نوابغها المعروفين وأعلام الفتيا والتدريس والنفع: الشيخ محمد الشريف العمري الإبراهيمي والشيخ المبارك الإبراهيمي، والشيخ القريشي الإبراهيمي، وكل هؤلاء وغيرهم عاشوا في القرون الثلاثة الأخيرة.

لم يفارق الإمام الإبراهيمي رحمه الله في تعلمه بيت أسرته، فكانت مدرسته التي تعلم فيها وعلم، منذ أكمل السنة الثالثة، فلازم عمّه حتىٰ في النوم والطعام، وكان لا يخليه غالب وقته من فائدة علمية، وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات حتىٰ لا يملّ، وقد وهب الله الإمام ذاكرة وحافظة خارقتين للعادة، وعرف عمّه رحمه الله كيف يصرفهما فيه كما يقول، فحفظ القرآن حفظًا متقنًا في آخر الثامنة من عمره، وحفظ فنون العلم المهمة، وحفظ ألفية ابن مالك وتلخيص المفتاح، وما بلغ العاشرة حتىٰ أتم حفظ عدّة متون علمية مطولة، وما بلغ الرابعة عشرة حتىٰ حفظ أَلْفِيَتي العراقي في الأثر والسير، ونظم الدول لابن الخطيب ومعظم رسائله المجموعة في كتابه ريحانة الكتاب، ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس كابن شهيد وابن أبي الخصال وأبي المطرف ابن أبي عميرة، ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق كالصابي والبديع، مع حفظ المعلقات والمفضليات وشعر المتنبي كله وكثير من شعر الرضي وابن الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس، كما استظهر كثيرًا من شعر الثلاثة جرير والأخطل والفرزدق، وحفظ كثيرًا من كتب اللغة كاملة كالإصلاح، ومن كتب الأدب كالكامل والبيان وأدب الكاتب، حتىٰ أنه حفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم

نفح الطيب وأخبارهم وكثيرًا من أشعارهم، وكان يحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد.

وفي عنفوان هذه الفترة حفظ بإرشاد عمه كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت، وهذه الكتب الأربعة كان لها أثر كبير في ملكته اللغوية.

ولم يزل عمه ﷺ يتدرّج به من كتاب إلىٰ كتاب تلقينًا وحفظًا ومدارسة للمتون والكتب التي حفظها حتىٰ بلغ الحادية عشرة، فبدأ في تدريسه ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قد أقرأه كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهّم وبحث، وكان يقرئه مع غيره، ويقرئه وحده، ويقرئه ماشيا، ويقرئه علىٰ ضوء الشمع، وعلىٰ قنديل الزيت وفي الظلمة.

وكان يشغله في النهار بالدروس المرتبة في كتب القواعد ويمتحنه ساعة من آخر كل يوم في فهم ما قرأ فيطرب لصحة فهمه، فإذا جاء الليل أملىٰ عليه من حفظه أو من كتاب ما من الأبيات المفردة أو من المقاطيع حتىٰ يحفظ مائة بيت، فإذا طلب المزيد انتهره وقال له: «إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بذلك من حمل الأثقال»، ثم يشرح له ظواهر المعاني الشعرية، ثم يأمره بالنوم -رحمهما الله-.

مات عمّه سنة ١٣٢١هـ وعمر الإمام الإبراهيمي حينها أربع عشرة سنة، وقد ختم علىٰ عمه بعض الكتب وهو علىٰ فراش الموت، وأجازه الإجازة المعروفة عامة، وأمره بأن يخلفه في تدريس زملائه الطلبة، ففعل الإمام ذلك ووفّقه الله بما وهبه من حافظة عجيبة فتصدر للتعليم مبكرا.

وحين جاوز الإمام العشرين من عمره، هاجر متخفيًا إلىٰ المدينة المنوّرة فرارًا من ظلم فرنسا سنة ١٣٢٩هـ فلحق بوالده الذي سبقه، ومر بالقاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر وتعرف علىٰ أشهر علمائه.

وفي المدينة المنوّرة جلس إلىٰ العالمين المحققين الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، فرآهما واسعي أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، وكان راغبا في الاستزادة من علم الحديث رواية ودراية، ومن علم التفسير، فلازمهما ملازمة طويلة واشتد إعجابه بهما وبعمق علمهما وفهمهما -رحمهما الله-.

وقد درس بالمدينة علىٰ عدد من شيوخها في علم التفسير والجرح والتعديل وأسماء الرجال وأنساب العرب وأدبهم الجاهلي والسيرة النبوية، وازداد من علم المنطق.

كما زاول فيها تدريس النحو والصرف والعقائد والأدب، وتردّد علىٰ مكتباتها واستوعب كثيرًا من كتبها النادرة قراءة.

ونشير هنا إلىٰ أن كثيرًا من تراث الإمام العلمي قد ضاع في خضمّ جهاده وجهاد الشعب الجزائري نتيجة أعمال العدو الفرنسي الذي امتدّت يده الآثمة إلىٰ إتلاف الذخائر العلمية والآثار الفكرية لعلمائنا، فلم يُعثر علىٰ كثير مما كتبوا[١]، وللإمام الإبراهيمي ﵀ كتب ما زالت مخطوطة، منها (شعب الإيمان)، و(التسمية بالمصدر) و(أسرار الضمائر العربية) و(كاهنة أوراس) و(نشر الطي من أعمال عبد الحي)[٢].

هذه لمحات يسيرة من حياة الإمام الإبراهيمي ﵀ ونشأته العلمية، وهي زاخرة بما قد رأيت.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٢/ ٦).

(٢) انظر: الأعلام، للزركلي (٦/ ٥٤).

ثانيًا: عصره وموطنه

عاصر الإمام الإبراهيمي ﵀ فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وكانت له معه صولاتٌ وجولاتٌ، وكافحه مع أهل الجزائر كفاحًا شديدًا، وفي آثاره التي جُمعت له مواضع كثيرة يتبيّن فيها جهاده للمستعمر الفرنسي، ووقوفه في صدّ عدوانه، وجهوده في الحفاظ علىٰ مكتسبات الشعب الجزائري من دين وخلق وعروبة، والتي جلب عليها الاستعمار ليفسدها بخيله ورجله.

وإن الناظر في حياة الإمام والمرحلة التي مرّ بها؛ ليتبيّن له صعوبة العصر الذي كان فيه، فقد كان مرحلةً مفصلية خطيرة، عصفت فيها بالجزائر عواصف كثيرة، ولقي الشعب الجزائري فيها أذىٰ كثيرا، فبسبب الاستعمار طُمست كثير من معالم الدين، وشاع الجهل والفساد، وانحرفت العقائد والأخلاق، وراجت البدع والخرافات والطُّرق الفاسدة، ووقع التفرّق والخلاف والتشرذم، وشُرّد العلماء والفضلاء واضطهدوا، وعُذّب الناس وأوذوا، ومع هذه الأحوال والظروف التي ألمّت بالقطر الجزائري، كان الحمل ثقيلًا علىٰ كاهل الإمام الإبراهيمي ﵀ والقلة القليلة التي كانت معه، فوقفوا وقفة المستبسل للدفاع عن الدين والعقيدة والموطن.

وفيما تركه لنا الإمام الإبراهيمي ﵀ من تراثه بيان لصعوبة ذلك الوقت الذي عاصره الإمام، ووعورة مسالكه، مما يعكس لنا الدور الكبير والجهاد العظيم الذي قام به الإمام ﵀ في إصلاح العقائد وتصحيحها.

وسنمر في ثنايا البحث بمواضع كثيرة تبيّن ما كان عليه عصر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وموطنه، وما أحاط بهما من ملمّات وأحداث، وما بذله الإمام وجمعية العلماء من جهاد عظيم ونفع كبير لتصحيح ما فسد وجمع ما تفرّق وإحياء ما اندرس من علم ودين وخلق.

ثالثًا: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

تعرّضنا في المطلب الأول لجوانب عديدة من نشأة الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية، والتي تبيّن سعة معارف الإمام وتنوّعها وعمقها، والمواهب الربّانية التي فتح الله له بها في سبيل العلم.

وقد كان الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا مكانة سامقة في نفوس معاصريه، يتبين هذا من حديث أقرانه عنه واحتفاء تلاميذه به وانبهار جماهيره منه، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد بلغ من العلم والفضل منزلة عليا تجذب من عرفها إليه وتوفي بطالبها عليه.

فمن العلماء الذين أثنوا علىٰ الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء وصاحب التصانيف الشهيرة، فقد ذكره في كتابه «طبقات النسابين»، وجعله من علماء الطبقة الرابعة عشرة[١].

وذكر في كتابه «التعالم» أنه استفاد من كتب ثلاثة أعلام من علماء السلف المعاصرين، وتأثر بأسلوبهم البياني الفريد، ومنهم العلامة الداعية اللغوي الشيخ: محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالىٰ-[٢].

---

(١) انظر: طبقات النسابين، لأبو زيد (١٩٧).

(٢) انظر: التعالم، لأبو زيد (٨١).

ونعته في كتاب الحلية بأنه «العلامة السلفي»، وأحال إلىٰ كلام له في «البصائر»؛ أثنىٰ عليه بأنه فائق السياق[١].

وقد أثنىٰ العلامة الألباني رحمه الله علىٰ الإبراهيمي رحمه الله ونوَّه بفائدة كلامه، وذكر عنه أنه كان خطيبًا وفصيحًا[٢].

وممن أثنىٰ علىٰ الإبراهيمي رحمه الله: الشيخ علي بن مصطفىٰ الطنطاوي رحمه الله، فقد قال عنه: (والشيخ البشير الإبراهيمي الذي طالت صحبتي إياه . . . وهو عالم طلق اللسان ناصع البيان، يتدفّق الكلام من فيه تدفّقًا بلا لحن ولا زلل . . . فأظهرت -صادقًا- العجَب منه والإعجاب به)[٣]، ومما قال عنه أيضًا: (وممّن زادت صلتي به وطال اجتماعي معه وتقديري له وصحبتي إياه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في المؤتمر في القدس وفي عمان في فندق بالاس، وفي دمشق في داري ودار شيخنا الشيخ بهجة البيطار، وفي بغداد. وقد بلغني أن ابنه الآن وزير خارجية الجزائر وأنه علىٰ طريقة أبيه في العمل لله وفي السعي للخير والإخلاص فيه)[٤]، وقد احتفىٰ به حفاوةً بالغةً فقال عنه: (وعرفت الشيخ البشير الإبراهيمي في مصر وفي دمشق وفي بغداد وفي القدس . . . والدعاة إلىٰ الله كثير، ولكن مَن ذكرت من أبرزهم شخصية ومن أخلصهم إخلاصًا، ومن أسيَرهم ذكرًا وأعمقهم أثرًا)[٥].

وأثنىٰ علىٰ الإبراهيمي رحمه الله أيضًا صديقُه في مشروعه الإصلاحي الكبير الشيخ الإمام عبدالحميد ابن باديس رحمه الله بقوله: (عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ

---

(١) انظر: حلية طالب العلم، لأبو زيد (١/ ١٦٣).

(٢) في تسجيل له منشور علىٰ الشبكة ضمن سلسلة الهدىٰ والنور.

(٣) الذكريات، للطنطاوي (٥/ ٥٢).

(٤) الذكريات، للطنطاوي (٥/ ١٨٦).

(٥) الذكريات، للطنطاوي (٨/ ٨٠).

البشير أن يضل في دين أو يخزىٰ في الدنيا أو يذل للاستعمار)[١]، ووصفه بأنه «فخر علماء الجزائر»[٢].

وقال عنه الشيخ المحدّث محمد بن الأمين بوخبزة ﷺ: (لم ألق من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلا زعيمهم الشيخ البشير الإبراهيمي ﷺ، وقد كان لسان الجمعية الناطق، وقطبها الذي عليه مدارها، مع صديقه الشيخ عبدالحميد بن باديس ﷺ)[٣].

وأثنىٰ عليه المؤرّخ جمال الدين الآلوسي ﷺ فقال عنه: (وهو الخطيب المصقع والداعية القدير والعالم الأديب العارف بأساليب الإعلام، فكان لخطاباته تأثير كبير علىٰ الجماهير، ونحن في العراق هزّ عواطفنا وألهب أحاسيسنا في محاضراته وأحاديثه، لم نشهد أديبًا أو داعية بمقدرته وطول نفسه، وإجادته لفن القول وسعة اطلاعه علىٰ ألاعيب الاستعمار، فقد كان ممن شرح الله صدره ويسر له لسانه وأنار بصيرته بنور الإيمان)[٤].

هذه طائفة يسيرة من ثناء بعض أهل العلم والفضل علىٰ الإمام الإبراهيمي، والتي تبين جانبًا من مكانته العلمية لديهم -رحمة الله عليه وعليهم-.

---

(١) الملتقىٰ الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي (١٧٦).

(٢) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (٦/ ١٣٦).

(٣) من لقاء ملتقىٰ أهل الحديث مع الشيخ محمد بن الأمين بوخبزة، وهو منشور علىٰ الشبكة.

(٤) الجزائر بلد المليون شهيد، للآلوسي (١٥٣).

رابعًا: علاقته بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

كانت نواة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المدينة النبوية، وبالتحديد في مسجد رسول الله ﷺ، حيث كان الإمامان عبدالحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي -رحمهما الله- يلتقيان كل ليلة في المسجد النبوي في صلاة العشاء وذلك سنة ١٣٣١هـ، ثم يسمران في بيت الإبراهيمي إلىٰ آخر الليل حتىٰ يفتح المسجد فيدخلانه مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم يفترقان إلىٰ الليلة الثانية، وذلك إلىٰ نهاية الأشهر الثلاثة التي أقامها ابن باديس بالمدينة المنوّرة، فكانت هذه الأسمار تدبيرًا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصّلة الشاملة فتحققت بعد بضع عشرة سنة، وهي التي وُضعت فيها الأسس الأولىٰ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1].

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة ١٣٥٠هـ، وكانت عوامل تكوينها طبيعية بسيطة عن قصد، لئلا تثير من الاهتمام ما يدعو إلىٰ مقاومتها قبل أن تستوي علىٰ سوقها فتكون الضربة القاضية عليها، فثُبّتت قواعد العمل وجرىٰ الاتصال بطبقات الأمة وتوثيق العلائق بها في العام الأول، ثم في السنة الثانية بدأ الهجوم الخفي عليها ولكنه لم يؤثر شيئًا لأن مبادئ الجمعية

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ٢٧٨).

تغلغلت في ذلك الزمن القصير إلىٰ مستقر العقيدة من نفوس من كمل استعدادهم من الأمة.

وكان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ وكيلها من يومئذ نائبًا عن الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس باني نهضة الجزائر بجميع فروعها، إلىٰ أن توفاه الله في سنة ١٣٥٩هـ فصار الإبراهيمي رئيسًا للجمعية، وقد وصل عدد المدارس الابتدائية التي أسستها الجمعية نحو مائة وخمسين مدرسة منها الضخم الفخم ومنها دون ذلك، وتحتوي هذه المدارس علىٰ نحو خمسين ألف تلميذ، وعلىٰ نحو أربعمائة معلم، يتوّجها معهد ثانوي فخم يأوي نحو ألف تلميذ، وهو بجميع مرافقه ملك للأمّة(١).

وكانت الأصول التي وضعها المجلس الإداري للجمعية كالآتي:

١- تنظيم حملة جارفة علىٰ البدع والخرافات والضلال في الدين، بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة، حتىٰ في الأسواق، والمقالات في الجرائد الخاصة التي أنشأتها الجمعية لخدمة الفكرة الإصلاحية.

٢- الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار في ما يمكن الوصول إليه من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربحًا للوقت قبل بناء المدارس.

٣- تجهيز المئات من التلامذة المتخرجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

٤- العمل علىٰ تعميم التعليم العربي للشبان علىٰ النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥- مطالبة الحكومة برفع يدها عن المساجد والمعاهد التي استولت عليها، لتستخدمها الجمعية في تعليم الأمّة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ١٦٧-١٦٨).

٦- مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزّعتها علىٰ معمّريها، لتصرف في مصارفها التي وقفت عليها.

٧- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئيًّا.

٨- مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين[١].

وقد بيّن الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفاصيل عمل جمعية العلماء، وأوضح طرائقها، وذكر قوانينها، وفي ثنايا البحث جوانب كثيرة من تلك الأعمال العظيمة التي قد قامت بها الجمعية المباركة.

ومن النصوص التي لخّص بها الإمام فكرة الجمعية وعملها وأهداف مشروعها قوله: (جمعية العلماء حقيقة جلية، والسابقون الأولون من علماء الجمعية هم حرّاس هذه الحقيقة ووظيفتهم الأولىٰ إبراز هذه الحقيقة إلىٰ الوجود، والصورة المشخّصة لها هي إحياء الإسلام بمعناه الكامل في النفوس، ومعناه الكامل هو عقائده النقية، وعباداته المأثورة، وفضائله المصلحة للبشر، وآدابه المقوّمة للنفس، وأحكامه الحافظة للحقوق حين يقدر علىٰ ذلك، ويكمل ذلك كله معرفة بسيَر رجاله تصحّح القدوة، ودرس لتاريخه يصوّر المجد)[٢].

ومن عهود جمعية العلماء مع الله أن تنشئ مجتمعًا إسلاميًا يشارف السلف في عقائده وعباداته وأخلاقه وقربه من الله وصلته بمحمد ﷺ، وأن تسلك لذلك طريق التربية قبل طريق التعليم، وصفوة التفسير لمبدأ جمعية العلماء أن العلم وسيلة من وسائل الدين، وأن العربية لسان الدين المترجم من حقائقه. هذا هو المنهج الذي تسير عليه، وهذا هو الغرض الذي ترمي إليه، بلا غلو ولا تفريط، وإجماله كما يقول الإمام الإبراهيمي: أننا نطلب العلم لإحياء الإسلام، ونقرأ العربية لفهم الإسلام، ونلوذ بأكناف الشرق العربي لأنه مطلع النبوّة ومنبت

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ٢٧٢).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٣٢٨-٣٢٩).

الإسلام، ولأنه القطعة المتّصلة من الأرض بالسماء، فالبدء -كما ترىٰ- من الإسلام، والانتهاء إلىٰ الإسلام، وبين البدء والنهاية مجالات لنفوس عامرة بالإيمان وآثار الإيمان[1].

هذه لمحة مختصرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقة الإبراهيمي بها، وفي تفاصيل التعريف بها ما يملأ الصفحات، وفيما ذكرنا توضيح لأهم مقاصدها وأهدافها.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/٣٢٩).

خامسًا: تعرّضه للبلاء ووفاته

كعادة علماء الإسلام الصادقين ومصلحي الأمة المقسطين علىٰ مرّ العصور في تعرّضهم لصنوف البلايا والمحن؛ لم يسلم الإمام الإبراهيمي ﷺ من وقوع البلاء عليه، وفي ذلك من حِكم الله وتمكينه ما فيه، فمما تعرض له الإمام من البلاء:

١. النفي.

يحكي الإمام الإبراهيمي ﷺ قصة النفي الذي وقع له فيقول: (أصدرت الحكومة الفرنسية أمرًا باعتقالي في أوائل الحرب العالمية الثانية بدعوىٰ أن وجودي خطر علىٰ الأمن العام، وتم نفيي عسكرّيًا يوم ١٠ أفريل سنة ١٩٤٠م [الموافق ٣/٣/١٣٥٩هـ] إلىٰ قرية نائية في الجنوب الوهراني، ودام ذلك النفي ثلاث سنوات إلّا قليلًا، ولما أطلق سراحي وُضِعت تحت المراقبة الإدارية سنوات إلىٰ أن انتهت الحرب)[1].

٢. الاعتقال.

ويحكي قصة اعتقاله وما لاقاه فيه من عذابٍ وأذىٰ، فيقول: (وفي يوم انتهاء الحرب . . . ١٩٤٥م [الموافق ١٣٦٤هـ] . . . كبست داري بقوّة عسكرية،

(١) آثار الإمام (٥/١٦٨).

المبحث الأول: قضايا الإيمان والتوحيد

أولًا: مفهوم الإيمان وحقيقته وبعض مسائله.

ثانيًا: أهمية التوحيد ومكانته وبعض مسائله.

ثالثًا: التحذير من الوثنية والشرك.

رابعًا: فضل دين الإسلام علىٰ سائر الأديان.

خامسًا: الإلحاد .. أسباب حلوله ووسائل دفعه.

ففتشوا منزلي وساقوني إلىٰ السجن العسكري بالعاصمة، في غسق الليل وبصورة مزعجة محاطًا بقوات أخرىٰ من داري إلىٰ السجن وبينهما نحو ٨ كيلومترات، ولبثت في زنزانة ضيقة تحت الأرض لا أرىٰ الضوء ولا أستنشق هواء الحياة نحو سبعين يومًا، وكانوا لا يخرجونني منها إلّا ربع ساعة في ٢٤ ساعة مع حراسة مشدّدة، فلما انهارت صحتي نقلوني إلىٰ حجرة منفردة . . . وفيها بعض وسائل الحياة، ولما أكملت مائة يوم نقلوني ليلًا في طائرة خاصة مخفورًا إلىٰ السجن العسكري بمدينة قسنطينة . . . وكان هذا النقل تمهيدًا لمحاكمتي في محكمة عسكرية علىٰ الحوادث التي دبّرها الاستعمار وأهله، وكنت إذا اشتدّ علي المرض نقلوني إلىٰ المستشفىٰ العسكري تحت الحراسة الشديدة . . . ولبثت في السجن العسكري ومستشفاه أحد عشر شهرًا . . . ثم بدا للاستعمار فأطلق سبيل الجميع باسم العفو العام لا باسم الرجوع إلىٰ الحق)[١].

ومع ما تعرّض له الإمام الإبراهيمي رحمه الله من بلاء شديد في سبيل الله؛ لم يُثنه ذلك عن مواصلة مسيره وجهاده وعمله الدؤوب في إصلاح الأمة الجزائرية وبث العلم فيها.

وقد قال مقولةً عظيمةً تمتلئ عزّةً وثباتًا وحرصًا علىٰ الخير: (فمرحبًا بالتطريد والتشريد، والإرهاق الشديد، والحبس ولو علىٰ الدوام والتأبيد، والنفي ولو إلىٰ القرار البعيد، إذا كان كل ذلك يذيب زيف الأخلاق الخادعة، ويجتثّ غشّ النفوس الخامدة، ويشدّ وهن العزائم الراكدة، ويرحض[٢] عنا أوضار الضعف والخَوَر والانحلال، ويجمع القلوب بعد ذلك علىٰ الإيمان بالحق، والوفاء للحق، والتناصر بين أصحاب الحق)[٣].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الرَّحْضُ: الغَسْلُ. لسان العرب، لابن منظور (٧/ ١٥٣)، والنهاية، لابن الأثير (٢/ ٢٠٨).

(٣) آثار الإمام (٢/ ١٢٠).

وأما وفاة الإمام الإبراهيمي فقد كانت سنة ١٣٨٥هـ وهو مُبتلىٰ بإبعاده ونفيه، بعد عمرٍ زاخرٍ بالمفاخر، وسنين عامرة بالعلم والعمل والجهاد، فرحمه الله وأعلىٰ نزله، وجمعنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أولًا: مفهوم الإيمان وحقيقته وبعض مسائله

حين نتناول البُعد العقدي في الجهود الإصلاحية للإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإن أول ما يتوجه إليه البحث هو الإيمان، فالعقيدة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما يلحق هذه الأركان من مسائل[1]، وهي الأركان الواردة في حديث جبريل الطويل[2]، والإيمان لغةً: التصديق[3]، ويُعرّفه أهل السنة والجماعة اصطلاحًا بأنه: قولٌ وعمل، قول القلب وقول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح، وقد حكىٰ الإجماع علىٰ ذلك غير واحد منهم[4].

منهج السلف في فهم حقيقة الإيمان.

ولا يستقيم فهم الإيمان إلا بالنظر في فهم السلف الصالح له، فبغير فهمهم يتيه العقل ويضل القلب، ولذا قرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن حقيقة الإيمان إنما تؤخذ عن السلف الصالح -رضوان الله عليهم- فيقول: (وما دام الكلام في

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية، لابن تيمية (٥٤)، ورسالة في حقيقة التأويل، للمعلمي (٤٩).

(٢) انظر: صحيح مسلم برقم: (٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري (٥/ ٢٠٧١)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ١٣٣).

(٤) انظر: التمهيد، لابن عبدالبر (٩/ ٢٣٨)، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية (٧/ ٣٠٨)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ١٦٥)، وشرح السنة، للبغوي (١/ ٣٨).

الإيمان، فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أي معين استقوا فهمه ومن أي أفق استجلوا حقائقه، ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة)(١).

ثم يبيّن رحمه الله المنهج الذي سار عليه السلف -رضوان الله عليهم- في فهم الإيمان، وأنهم استقوا فهمه من القرآن بإعمال اللغة العربية وصحيح السنة(٢)، وفهموا حقيقة الإيمان من القرآن: (فوجدوه يُعرِّف الإيمان بالصفات اللازمة والتي يتكون من مجموعها، فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] الآية، ويقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]، ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلىٰ آخرها. ويقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلىٰ آخرها. ويقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلىٰ آخرها. ويقول غيرها من الآيات الجامعة لشعب الإيمان وخصاله وصفاته الذاتية)(٣).

ومما فهمه السلف من القرآن عن حقيقة الإيمان أن الأعمال الصالحة داخلة فيه، فلا فصل بين الإيمان والعمل الصالح، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله: (ثم وجدوه لا يذكر الإيمان في المعارض المختلفة إلا مقرونًا بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الإيمان وما هي الأعمال الصالحة، فآمنوا وعملوا الصالحات فكان إيمانهم أكمل إيمان بالعمل والكسب لا بشيء آخر من الخوارق والاختصاصات. وعلىٰ هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد الله وكمالاته المطلقة

(١) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

والرسل ووظائفهم والملائكة الخ)[1]، فيتبيّن بذلك اعتماد الإمام الإبراهيمي رحمه الله في مفهوم الإيمان علىٰ فهم السلف الصالح السالف ذكره.

الفهم الخاطئ لحقيقة الإيمان عند بعض المتأخرين.

ويذم الإبراهيمي رحمه الله فهم بعض الخلف للإيمان، وينتقد نظرهم في حقيقته، كمن اقتصر في الإيمان علىٰ التصديق، أو التصديق والنطق، مع إخراج العمل عن مسمىٰ الإيمان، ولهم في ذلك سلفٌ غير صالح[2]؛ فيقول: (أما الخلف فقد عدِلوا عن هذا كله منذ صاروا يفهمون الإيمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة . . . وكيف يفلح من يعدل في تفهم الإيمان عن الآيات المتقدمة إلىٰ قولهم إن الإيمان هو التصديق وإن النطق شرط أو شطر فيه وإن النسبة بين الإيمان والإسلام كذا إلىٰ آخر القائمة؟ وكيف يكون مؤمنًا (حقًا) من يبني إيمانه علىٰ هذا الجرف الهاري؟)[3]، وبهذا يوافق الإمام الإبراهيمي رحمه الله في تقريره لحقيقة الإيمان قول أئمة السلف الصالح -رضوان الله عليهم-.

الإيمان بالكتب والرسل.

ويتحدث الإبراهيمي رحمه الله عن الإيمان بالكتب والرسل مبيّنًا أوصاف الأنبياء، ومعرِّجًا علىٰ الكتب المنزلة وما يجب في حقّها، ويقرر أن النبوة أعظم المراتب وأشرف المواهب الربّانية، فيقول: (إن النبوّة هي أكمل الخصائص الإنسانية، وأشرف المواهب الإلهية، ولكن الله حين يرفع ذكر الأنبياء يضعهم في الدرجة الأولىٰ من معارج الرقي، وهي درجة العبودية لله، فمحمد عبد الله قبل أن يكون رسوله، وفي القرآن: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [سُورَةُ صٓ: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [سُورَةُ صٓ: ٤٥])[4]، ويثبت الإبراهيمي رحمه الله العِصمة للأنبياء

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٢) وهم المرجئة علىٰ اختلاف درجاتهم.

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٤) آثار الإمام (٢/ ٤٦٤).

كما يثبتها أهل السنة والجماعة؛ فيقول: (العصمة لم تكتب إلّا لطائفة . . . وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[1].

وفي هذين النصّين جمعٌ لأوصاف الأنبياء عليهم السلام فقد ذكر فيهما:

- الاصطفاء.
- والكمال البشري.
- والعبودية لله فلا يكون للأنبياء شيء من خصائص الربوبية والألوهية.
- والعِصمة.

كما يقرّر رحمه الله عقيدة الإسلام في الإيمان بالكتب والرسل، فيقول: (الإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها، ويقرّ ما فيها من خير ويحرّم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلًا من أصوله، والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل علىٰ هدمه، خصوصًا الإسلام ونبيّه وقرآنه ومعتنقيه)[2]، ويقول: (والإسلام يُوجب احترام الكُتب والكتابيين، ويوجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين)[3]، والأديان السماوية وكتبها التي يثبتها الإسلام ويحميها؛ هي التي لم يطرأ عليها التحريف والتبديل، أما التي حُرِّفت بعدُ وبُدِّلت فليست كذلك.

ويبيّن رحمه الله اعتقاده في الإيمان بالنبوات فيقول في تقرير ذلك: (نعتقد أن النبوات كلها حق وهداية وخير، وأن لاحقها ينسخ سابقها بما هو أكمل وأفضل وأجمع لشمل البشر، وأنفىٰ للشرّ والفساد بينهم)[4].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٥٩)، وأصل الكلام لابن باديس رحمه الله.
(٢) آثار الإمام (٥/ ٦٨).
(٣) آثار الإمام (٣/ ٤٤٥).
(٤) آثار الإمام (٣/ ٩٨).

الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

ومن المسائل المندرجة تحت الإيمان بالقدر، مسألة الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، والتفريق بينهما، وقد بيّن الإبراهيمي ﷺ هذه المسألة في أثناء تلخيصه لتفسير المعوذتين[1]، فقال: (فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحيانًا أو دائمًا فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه. وتصحّ نسبة هذا القسم إلىٰ الله من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضىٰ والتكليف، فالله لا يرضىٰ بالشرّ ولا يكلف به، وقصارىٰ إبليس وهو مادة الشر في هذا الوجود أن يزيّن الشر ويلبسه بالخير، فالشر بيد الله خلقة وحكمة لا رِضًا وتكليفًا، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمرًا)[2].

مسألة التحسين والتقبيح العقليين.

ويتطرّق الإبراهيمي ﷺ في أثناء تلخيصه لتفسير المعوذتين[3] إلىٰ مسألة التحسين والتقبيح العقليين، فيقول: (وهذا العالم الإنساني المكلف هو الذي يتجلّىٰ الخير والشرّ في أعماله، ويتصلان بحياته اتصالًا وثيقًا. وإنما عيب عليه الشر وقبح منه لأنه قادر علىٰ تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر وَوَضَّح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر، ولكنه وإنْ أوتي قوّة التمييز لم يؤت قوّة الاستعصام ابتلاء من الله، فأما المخذول فيأتي الشر عامدًا متعمدًا وهو يعلم أنه شر، وأما الموفق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز، والخير والشر لا يوزنان بميزان حسّي يستوي الناس كلهم في إدراكه، وقد تَدِقُّ الفوارق بينهما حتىٰ تخفىٰ، وفي هذه

---

(١) وأصل التفسير لابن باديس ﷺ.

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٤٩).

(٣) وأصل التفسير لابن باديس ﷺ.

المواقف يجب الالتجاء إلىٰ الله ليرينا الخير خيرًا ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر، فلا يلتبس علينا شيء بشيء، وبعد أن يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق: ١-٢])[١].

بيان حكم موالاة الكافر.

تناول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة موالاة الكافرين المندرجة تحت نواقض الإيمان؛ فقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها خروج عن أحكام الإسلام، وتناول جوانب مهمّةً من تلك المسألة العظيمة، وذلك من عدة أوجه:

الوجه الأول: بيان معنىٰ الموالاة المراد دفعها لغةً وشرعًا، فقال في ذلك: (إذا قلنا إن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام فهذا حكم مجمل، تفصيله أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسّها في معناها مادة التولّي والألفاظ الثلاثة واردة علىٰ لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به وهو الخروج عن الإسلام، وهي في الاستعمال الشرعي جارية علىٰ استعمالها اللغوي وهو -في جملته- ضدّ العداوة، لأن العرب تقول وَالَيْتُ أو عاديت، وفلان ولي أو عدوّ، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلىٰ هذا المعنىٰ تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي)[٢]، وفي هذا المعنىٰ أيضًا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأصل الموالاة هي المحبة كما أن أصل المعاداة البغض، فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يوجب التباعد والاختلاف، وقد قيل المولىٰ من الولي وهو القرب، وهذا يلي هذا أي هو يقرب منه، والعدو من العدواء وهو البعد، ومنه العدوة، والشيء إذا ولي الشيء ودنا منه وقرب إليه اتصل به، كما أنه إذا عدي عنه ونأىٰ عنه وبعد منه كان ماضيًا عنه. فأولياء الله

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٤٩).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٦٨).

ضد أعدائه يقربهم منه ويدنيهم إليه ويتولاهم ويتولونه ويحبهم ويرحمهم، ويكون عليهم منه صلاة، وأعداؤه يبعدهم ويلعنهم وهو إبعاد منه ومن رحمته، ويبغضهم ويغضب عليهم، وهذا شأن المتوالين والمتعادين)[1].

الوجه الثاني: ذكر بعض الفوارق الجوهريّة بين الإسلام والاستعمار ليتبيّن تضادّهما وعدم تلاقيهما، فيقول: (فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق، وأمر بالعدل والإحسان، والاستعمار قوامه علىٰ الشدّة والقسوة والطغيان . . . والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها، ويقرّ ما فيها من خير ويحرّم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلًا من أصوله، والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل علىٰ هدمه، خصوصًا الإسلام ونبيّه وقرآنه ومعتنقيه)[2].

الوجه الثالث: الحكم علىٰ الاستعمار بعداوته للإسلام ووجوب معاداته بعد تلك البوائق التي ذكرها عنه، فيقول: (نستنتج من كل ذلك أن الاستعمار عدوّ لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدىٰ أعدائه، ووجب علىٰ المسلمين أن يطبّقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته)[3].

الوجه الرابع: موجبات الحكم علىٰ الاستعمار ببيان بعض المقاصد الخبيثة له، وأبرزها وأشنعها القضاء علىٰ الإسلام؛ فيقول: (الاستعمار الغربي -وكل استعمار في الوجود غربي- يزيد علىٰ مقاصده الجوهرية وهي الاستئثار والاستعلاء والاستغلال، مقصدًا آخر أصيلًا وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية

---

(١) قاعدة في المحبة، لابن تيمية (١٩٨).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٦٨).

(٣) المرجع السابق.

خوفًا من قوّته الكامنة، وخشية منه أن يعيد سيرته الأولىٰ كرة أخرىٰ. وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلىٰ تحقيق هذا المقصد)[١].

ثم عدّد رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً من الأعمال التي تظهر بجلاء حرب الاستعمار الشرسة علىٰ الإسلام وأهله، والتي يرمي من خلالها إلىٰ محو الإسلام من تلك البقعة كاحتضانه للحركات التنصيرية وحمايته لها، وتشجيعه للضالين المضلّين من المسلمين لتجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه علىٰ النفوس ثم محوه بالتدريج، ونشره للإلحاد بين المسلمين، وحمايته للآفات الاجتماعية التي يحرمها الإسلام ويحاربها كالخمر والبغاء والقمار، واتفاقه بالإجماع علىٰ خلق دولة إسرائيل في صميم الوطن العربي، وانتزاع قطعة مقدّسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة[٢].

الوجه الخامس: تقرير وجوب معاداة الكافر، والحكم بالخروج عن أحكام الإسلام بموالاة الكافر؛ فيقول: (فالواجب علىٰ المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن من كان عدوّا لهم فأقلّ درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء له، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنىٰ الموالاة له أن تنصره علىٰ نفسك وعلىٰ دينك وعلىٰ قومك وعلىٰ وطنك)[٣]، كما يؤكد هذا المعنىٰ بقوله: (أيها المسلمون أفرادًا وهيئات وحكومات: لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه، ولا تتولّوه في سلم ولا حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم، ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له، ولا تأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان)[٤].

---

(١) آثار الإمام (٥/ ٦٩).

(٢) انظر: آثار الإمام (٥/ ٦٩).

(٣) المرجع السابق.

(٤) آثار الإمام (٥/ ٧٠).

ويتبيّن مناط التكفير بموالاة الكفار لدىٰ الإمام الإبراهيمي رحمه الله في هذا السياق بقوله: (لأن معنىٰ الموالاة له أن تنصره علىٰ نفسك وعلىٰ دينك وعلىٰ قومك . . .)، وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ثم قال: (لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم علىٰ دينهم، وتظاهرونهم علىٰ المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم علىٰ عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك «فليس من الله في شيء»، يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر)[١].

الإيمان والأخلاق.

لقد جاء دين الإسلام متكاملًا مترابطًا في عقائده وعباداته وأخلاقه وجميع أجزائه، وإن بين العقيدة والأخلاق رابطة وثيقة، فالعقيدة هي الإيمان، وإذا صحت العقيدة صحّت الأخلاق واستقامت، والعكس بالعكس، وقد قال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»[٢]، فكمال الإيمان مرتبطٌ بكمال الأخلاق، وقد جاء القرآن بالحثّ علىٰ الفضائل ومكارم الأخلاق في آيات عديدة، فالقرآن كتاب الأخلاق الأول، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أي: أعدل وأعلىٰ من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدىٰ بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره[٣]، وسنّة النبي ﷺ القولية والعملية زاخرةٌ بذلك، فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ: «كان خُلُقُه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) جامع البيان، للطبري (٦/ ٣١٣)، وانظر للاستزادة: مناط الكفر بموالاة الكفار، للقرني (١١-٤٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨٢)، وغيره.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٤٥٤).

عَظِيمٍ﴾ . . . » [القَلَم: ٤][1]، وقال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»، وفي رواية: «**صالح الأخلاق**»[2]، وفي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحّشًا، وإنه كان يقول: «**إن خياركم أحاسنكم أخلاقا**»[3]، إلىٰ غيرها من الأحاديث.

وقد تناول الإمام الإبراهيمي رحمه الله موضوع الفضائل والأخلاق، وقرّر فيه تقريراتٍ مفيدة تبيّن بعض جهوده في هذا الباب، فقرر كون الأخلاق من شعب الإيمان، وأن نقصاناها نقصان للإيمان ولقوام الأمم، فقال: (واختلّت الأخلاق وفي اختلالها البلاء المبين، وان الأخلاق في دينكم هي شعب الإيمان، فلا يختلّ خلق إلا وتضيع من الإيمان شعبة. وقد أجمع حكماء الأمم علىٰ هذه الحقيقة التي قرّرها الإسلام بدلائله وأصوله وهي أن الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلا برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها)[4].

وأكّد رحمه الله أن الإيمان لا يكمل إلا بكمال الأخلاق والفضائل، فقال: (أمّهات الفضائل التي هي واجبات تكميلية، لا يكمل إيمان المؤمن إلا بها، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في القول والعمل، والصبر في مواطنه، والشجاعة في ميدانها، والبذل في سبله، فكل واحدة، أو في كل واحدة منها امتحان تكميلي للإيمان، تعلو فيه قيم، وتهبط قيم)[5].

ثم يبين أثر انحلال العقائد في انحلال الأخلاق فيقول: (إن شيوع ضلالات العقائد وبدع العبادات والخلاف في الدين هو الذي جرّ علىٰ المسلمين

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٢٤٦٤٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢)، والحاكم (٢/ ٦١٣) وغيرهم.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٥).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٣٤).

(٥) آثار الإمام (٣/ ٤٧٦-٤٧٧).

هذا التحلّل من الدين، وهذا البعد عن أصليه الأصليين، وهو الذي جرّدهم من مزاياه وأخلاقه حتىٰ وصلوا إلىٰ ما نراه)[١].

ويحث رحمه الله علىٰ تمكين معاني الإسلام السامية في نفوس الناس، ويقرر أن الإسلام دين الشرف والفضيلة والأخلاق، وأنه لا يكمل دين المرء إلا بذلك، فيقول: (وعليهم أن يمكّنوا -ما استطاعوا- في نفوس السامعين معاني الشرف والرجولة، وشرف النفس والاعتزاز بالإسلام والعروبة، فإن الإسلام جاء لجميع ذلك، وإن سيرة رسول الله ﷺ دائرة علىٰ ذلك، فالإسلام دين العزّة والكرامة والشرف والفضيلة، فمن لم يكن بهذه الصفات فإسلامه ناقص بقدر نقصانه فيها، وإن صلّىٰ وصام وحجّ البيت ماشيًا)[٢]، وللإمام ابن القيم رحمه الله مقولة تؤكد هذا المعنىٰ إذ يقول: (الدين كله خُلُق؛ فمن زاد عليك في الخُلُق: زاد عليك في الدين)[٣].

من آثار عقيدة الإيمان.

ويذكر الإبراهيمي رحمه الله من آثار عقيدة الإيمان وثمراتها انتصار المسلمين يوم بدر بقوة إيمانهم وصحّته واستقامة عقيدتهم، إذ يقول: (فلماذا نغفل عن الإيمان والعقيدة، وأثرهما في انتصار أصحاب بدر علىٰ ثلاثة أضعافهم؟ إن المسلمين انتصروا يوم بدر بالإيمان الصحيح القوي الذي ثبت العقائد فثبتت الإرادات فاندفعوا اندفاع من يريد أن يموت ليحيا دينه وقومه وبلاده)[٤].

ويبيّن رحمه الله بعض تلك الجوانب الإيمانية التي جاشت بها نفوس الصحابة الكرام رضي الله عنهم يوم بدر حتىٰ تحقق لهم النصر، فيقول: (كانوا يعتقدون أن ما يقاتلون عليه هو الحق من ربهم، وأن محمدا الداعية إلىٰ هذا رسول الله الصادق الأمين،

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٢٨٧).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٩٤).

(٤) آثار الإمام (٥/ ٨٤-٨٥).

وأن موتهم في سبيل دعوته طريق إلىٰ الجنة التي وعدوها، فتصوروا خلودها كرأي العين، ووعد الله بها كقبض اليد، وأنه ليس بينهم وبين دخولها إلّا فراق الروح للجسد . . .)[1]، ثم يبيّن أثر تلك القوّة التي حملتها أرواحهم فيقول: (هذه هي الروح التي لبست تلك الفئة القليلة حين تراءت الفئتان، فئة الله وفئة اللات في شعب بدر، وهذه هي القوّة التي تتضاءل أمامها كل الدنيا، ومحال أن ينهزم حامل هذه الروح)[2] [3].

ومما قرره أيضًا في بيان آثار الإيمان والعمل الصالح التمكين في الأرض؛ فقد قال معقّبًا علىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾ [النُّور: ٥٥]: (فلو أنكم آمنتم بالله حق الإيمان، وعملتم الصالحات التي جاء بها القرآن، ومنها جمع الكلمة، وإعداد القوّة، ومحو التنازع من بينكم، لأنجز الله لكم وعده، وجعلكم خلائف الأرض؛ ولكنكم تنازعتم ففشلتم وذهبتْ ريحكم، وما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم)[4].

وبعد هذا الاستعراض لتقريرات الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان مفهوم الإيمان وحقيقته؛ يمكن أن نجمل ما قرره في النقاط التالية:

- أن حقيقة الإيمان إنما تؤخذ عن السلف الصالح.

- أن المنهج الذي سار عليه السلف -رضوان الله عليهم- في فهم الإيمان مستنبط من القرآن بإعمال اللغة العربية وصحيح السنة.

- أن الأعمال الصالحة داخلة في حقيقة الإيمان ومسماه.

---

(١) آثار الإمام (٥/ ٨٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر أيضًا: آثار الإمام (٥/ ٢٣٤).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٤٧٠).

- خطأ فهم بعض الخلف للإيمان بقصره علىٰ التصديق، أو التصديق والنطق، مع إخراج العمل عن مسمىٰ الإيمان.

- أن النبوة أعظم المراتب وأشرف المواهب وأكمل الخصائص الإنسانية.

- أن من عقيدة الإسلام في الإيمان بالكتب والرسل إقرار ما في الأديان السماوية من خير، وتحريم أنبيائها وكتبها.

- إثبات العصمة للأنبياء.

- أن الإيمان بالكتب والرسل قاعدة من قواعد الدين وأصل من أصوله.

- أن الإسلام يُوجب احترام الكُتب والكتابيين، ويوجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين.

- أن النبوات كلها حق وهداية وخير، وأن لاحقها ينسخ سابقها بما هو أكمل وأفضل.

- ارتباط الأخلاق بالإيمان، وعلاقة التأثّر والتأثير بينهما.

- أن الموالاة معناها «ضد العداوة» وعلىٰ هذا المعنىٰ تدور تصرفات الكلمة في الاستعمال الشرعي واللغوي.

- أن موالاة المستعمر الكافر بأي نوع من أنواع الولاية خروج عن أحكام الإسلام.

- أن من مناطات التكفير بموالاة الكفار نصرتهم علىٰ دينك.

- أن بين الإسلام والاستعمار مفارقات كبيرة تبين تضادهما وعدم تلاقيهما.

- أن من أبرز المقاصد الخبيثة للاستعمار القضاء علىٰ الإسلام وأهله.

- وجوب معاداة الاستعمار وترك موالاته لشدة عداوته للإسلام وأهله.

ثانيًا: أهمية التوحيد ومكانته وبعض مسائله

إن أولىٰ ما يدخل في باب الإيمان؛ الإيمان بالله جل وعلا، فهو الأصل الأول من أصول الاعتقاد، وهو أصل الأصول وأهمّها، وهو قاعدة الدين، وعليه مدار الإسلام، وهو لبّ القرآن، وهو بالنسبة لبقية الأصول والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع، وكلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيمًا كان حظه في الإسلام كبيرًا[1].

والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وسنتناول فيما يلي تقريرات الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بالإيمان بألوهية الله جل وعلا، وتقرير التوحيد الصحيح والدعوة إليه، ونبذ الشرك وما يتصل به.

والتوحيد المراد هنا هو توحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة[2]، وتوحيد العبادة -أو الألوهية- هو أساس الملة وأصل دين الإسلام ومفتتح دعوة الرسل لأممهم[3]، وأدلة هذا التوحيد أكثر من أن تحصر، فالله تعالىٰ يقول علىٰ لسان رسله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ويقول

---

(١) انظر: العقيدة في الله، للأشقر (٦٧).

(٢) انظر: شرح ثلاثة الأصول، لابن عثيمين (٣٩).

(٣) انظر: قرة عيون الموحدين، لابن حسن (٧٢).

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن السنة حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت ردف النبي ﷺ علىٰ حمار يقال له عفير، فقال: **يا معاذ، هل تدري حق الله علىٰ عباده وما حق العباد علىٰ الله؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **فإن حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا**. فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: **لا تبشرهم فيتّكلوا**»(١)، وغيره من الأحاديث.

ولعظمة هذه المسألة من الدين، ولعلو شأنها ومكانتها، وتوقف الأعمال علىٰ صلاحها؛ بيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله جوانب من ذلك، وقرر أهمية التوحيد بأوضح بيان وأبلغ عبارة.

الحال التي كانت عليها البشرية قبل الإسلام.

فمن ذلك بيانه لجوانب من سوء الحال التي كان عليها الناس قبل مجيء الإسلام، ومن ذلك بُعد الناس عن عبادة الله وحده، وتلطخّهم بأدران الشرك، وكيف أصلح الإسلام ذلك الفساد الذي استشرىٰ، فيقول: (إن الإسلام في جوهره لإصلاح عام منَّ الله به علىٰ العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية عارمة، اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ركّبها رب العالمين، وما فيه من أخلاق قيمة وشرائع عادلة قررها الهداة من الأنبياء والمرسلين والحكماء المصلحين، وصحبتها غمرة وثنية وقفت في طريق الفكر فعاقته عن التقدم وابتلته بما يشبه الشلل، وقطعت الصلة بين الإنسان وبين خالقه، وعبّدت بعضه لبعض، ثم عبّدته للأصنام وعبّدته للأوهام، ولكن الله تداركه برحمته فجاءه بالإسلام بعد أن مدّت هذه الغمرات مدّها، وبلغت حدّها، واستشرف لحال خير من حاله ونور يجلو ظلمته، وكان ذلك النور هو الإسلام)(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم: (٢٨٥٦)، ومسلم برقم: (٣٠).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٦١).

ويقرر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الدواء الناجع لتلك الأمراض هو التوحيد الخالص الذي تدل عليه النفوس والآفاق بما وضع الله فيها من خلقه وقدرته، فيقول: (وكان مستقر الدين من نفوس البشر تتعاوره نزعتان مختلفتان وهما التعطيل المحض[1] والشرك، وكان العالم كله يضطرب بين هاتين النزعتين وقد ملكتا عليه أمره فلا تسلمه المهلكة منهما إلّا للموبقة، ولم يسلم من شرهما حتىٰ الملّيون الكتابيون، فجاءه الإسلام بالدواء الشافي وهو التوحيد الخالص مؤيدًا بالأدلة التي تبتدئ من النفس، وأن نظرة في النفوس حين تتجلىٰ بغرائبها، ونظرة في الآفاق حين تتعرض بعجائبها لتفضيان بصاحبها إلىٰ اليقين الذي لا شك بعده، وهذا هو ما حرمه البشر قبل نزول القرآن فوقفوا في الطرفين المتناقضين من شرك وتعطيل، وهذا هو ما دعا إليه القرآن فهداهم به إلىٰ سواء السبيل)[2].

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن أساس الحضارة الإسلامية هو التوحيد، لذلك كانت لها الهيمنة والخلود، فيقول: (جاء الإسلام بالحضارة التي لا تبيد والمدنية المبنية علىٰ حكم الله وآداب النبوّة، فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها والتشريع الإلهي العادل سياجها . . . وبذلك كله أصبحت مهيمنة علىٰ المدنيات كلها ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة علىٰ القواعد الثابتة مما ذكرناه)[3].

منهج إبراهيم ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في الدعوة إلىٰ التوحيد.

ومما تحدّث به الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ مقرّرًا أهمية التوحيد ومكانته،

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن فلاسفة الملاحدة: (وبالجملة، فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض. فإنهم عطلوا الشرائع، وعطلوا المصنوع عن الصانع، وعطلوا الصانع عن صفات كماله، وعطلوا العالَم عن الحق الذي خلقه له ربه، فعطلوه عن مبدئه ومعاده، وعن فاعله وغايته. ثم سرىٰ هذا الداء منهم في الأمم، وفي فرق المعطلة) إغاثة اللهفان (٢/ ١٠٣٣-١٠٣٤).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٦١).

(٣) آثار الإمام: (١/ ٣٧٥).

وموضحًا دعوة الأنبياء إليه؛ مقارنته بين نبي الله إبراهيم عليه السلام ونبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبيانه اشتراكهما في دعوة التوحيد ونبذ الشرك، فيقول في حديثه عن سورة إبراهيم: (المقارنة بين فاتحة السورة وبين خاتمتها وبين قصّة إبراهيم عليه السلام تشعرنا بالصلة الوثيقة بين إبراهيم ومحمد عليهما السلام، إذْ كل منهما قد ابتلي لمحاربة الأوثان وبثّ التوحيد الخالص في البشر)[1]، ثم يبيّن رحمه الله الطريقة العقلية التي استدلّ بها نبي الله إبراهيم عليه السلام في محاربة الأوثان، فيقول: (وقد ناضل إبراهيم عليه السلام في محاربة الأوثان، واستدل بالمكونات علىٰ المكوّن إلىٰ أن أعياه أمرها، فهاجر إلىٰ ربّه وترك قومه وما يعبدون)[2].

ثم أوضح رحمه الله كيف نجحت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في بناء التوحيد والإيمان مكان الشرك والأوثان، حتىٰ استقر في قلوب المؤمنين، فيقول: (وبهذه النظرة الملقاة علىٰ تاريخ الأمتين يتبين نجاح دعوة محمد عليه السلام ومحاربته للأوثان، فإنه ما مات حتىٰ هدّمها بيده الشريفة، وطهّر وطنه منها ... ولم يكتف نبيّنا من هدم الأصنام حتىٰ هدّم محبّتها من القلوب، وشيّد بدلها إيمانًا صحيحًا مكانها)[3]، وكذلكِ من سار علىٰ درب الأنبياء والمرسلين؛ فإنه سائر في طريق الفلاح ولو لم تظهر آثار دعوته إلىٰ التوحيد.

وقد بيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله جوانب من قصص نبي الله إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن، وما فيها من تقرير التوحيد وبيان سبيل الموحّدين، فيذكر أن نبي الله إبراهيم عليه السلام قد حظيت قصصه ومحاجته لقومه بنصيب وافر من آيات القرآن، وفي ذلك دلالات من أعظمها بيان تشييده لبنيان التوحيد وتقويظه لأركان الشرك، فيقول: (القرآن لم يُفِضْ في دعوة رسول من رسل الله، ولم يفصل طرف الحِجَاج بين رسول وقومه ما أفاض وفصّل في دعوة إبراهيم ومحاجّته لأبيه

---

(١) آثار الإمام: (١/ ٣٨٨).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٣٨٩).

(٣) المرجع السابق.

وقومه، ليعرفنا بهذا الأب العظيم . . . وليدلنا علىٰ ما لهذا الأب العظيم من يد في إقامة ركن التوحيد وما له من أثر في حرب الوثنية والوثنيين، وليُشْعِرَنا بأنَّ لنا في بناء الحق وهدمِ الباطل ونشر الهداية والخير أصلًا عريقًا، ونسبًا طويلًا عريضًا)(١).

ويقرر رَحِمَهُ اللهُ أن المتدبر في قصص نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الواردة في القرآن ينتهي إلىٰ علوم عظيمة ومنهج متكامل في التوحيد وتقريره والدعوة إليه والصبر عليه، والبراءة من الشرك وأهله فيقول: (وأكبر الفوائد لنا، فيما قصَّ القرآنُ من قَصص إبراهيم، ما تضمنته من العلوم، ففيها . . . آيات للمتوسمين، ومجالات لأفكار المتدبرين، يقرأها المتدبر فيخرج منها بدستور جامع في التوحيد والدعوة إليه، وما يلزم الداعي من قوّة في الجدل، وبراعة في أساليبه، وصبرٍ علىٰ المقارعة والنّضال في سبيله، وقدرةٍ علىٰ التحايل في إقناع النّفوس الضالّة والعقول التي لا تهضم البرهان، وصبرٍ علىٰ جفاء الأقارب، وشدةٍ وحزم في التبرؤ منهم وقطعِ حبالهم)(٢).

الوصول إلىٰ التوحيد بدلائل القرآن ودلائل العقل.

ويقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أن دلائل القرآن ودلائل العقل توصل الإنسان إلىٰ العلم اليقيني بوحدانية الله تعالىٰ وألوهيته واستحقاقه للعبادة دون غيره، فيقول في تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢]: (أي وليعلموا، بعد إنذار القرآن إياهم عواقب الجهل بالله والشرك به وبعد تأمّلهم وتدبّرهم في دلائل القرآن وحججه، علمًا يقينيًا ما لم يكونوا يعلمونه، أو كانوا يعلمونه علمًا مشوبًا بالشكوك والأوهام، وهو أن الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وسخر الشمس والقمر دائبين، وسخّر الليل والنهار، إله

(١) آثار الإمام: (١/ ٣٩٤).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٣٩٥).

واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، ولا يشاركه مخلوق في شيء من الخلق والتدبير)[١].

منزلة التوحيد في القرآن.

ثم يبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية التوحيد ومنزلته العظيمة التي قررها القرآن وأكّدها مرارًا، وأوضح أدلتها فيقول: (ولا شك أنّ أول ما جاء به القرآن ووضّحه، وأعاد القول فيه وأبدأ، وأقام عليه الأدلة التفصيلية، وأحال عباده فيه علىٰ عقولهم ووجداناتهم، هو التوحيد)[٢]، وكل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[٣].

توحيد الربوبية والألوهية.

أشار الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ توحيد الربوبية والألوهية في مواضع عدة، ومن ذلك ما أورده في تلخيصه لتفسير المعوّذتين، وسنمرّ علىٰ مواضع منه، ونورد هنا تعريفه للربوبية وتعريفه للألوهية وذكره لبعض مظاهرهما، إذ يقول: (ربُّ الناس: هو مربّيهم ومعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون إليه لحفظها، وهاديهم لاستعمال ما منّ به عليهم فيما ينفعهم ... ومالك الناس: هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية. وإله الناس: هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية ... فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية، والثانيٰ: طور القوّة والتدبير، وهما من مظاهر الملك، والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهو من مظاهر الألوهية)[٤].

---

(١) آثار الإمام: (١/ ٤٠١).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٤٠١).

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: (٣/ ٤١٧-٤١٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ٣٥٥) من تلخيص الإبراهيمي لتفسير ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمعوّذتين.

بيان معنىٰ الربّ.

ويبيّن الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ «الرب» ضمن تلخيصه لتفسير المعوّذتين[(١)]، فيقول: (والرب: الخالق المكوّن المربي، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل)[(٢)]، ويقول أيضًا: (رب الناس: هو مربّيهم ومعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون إليه لحفظها، وهاديهم لاستعمال ما منّ به عليهم فيما ينفعهم، ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وأصله من رَبَّه يَرُبُّه ربًا إذا قام علىٰ إنشائه وتعاهده في جميع أطواره إلىٰ التمام والكمال، ولفظه لفظ المصدر، ولكن معناه معنىٰ اسم الفاعل كالعدل يراد به العادل)[(٣)].

بيان وجه ضلال الناس في الربوبية والألوهية.

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه ضلال الناس في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فيقول: (ونُكتةٌ أخرىٰ في تخصيص الناس بالذكر دون بقيّة أفراد المربوبين وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال، وقد ضَلُّوا بالفعل في ربوبية الله وفي ألوهيته. ضَلُّوا في الربوبية باتخاذ المُشَرِّعين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ويصدُّوهم عما شرع الله، وضلوا في الألوهية بعبادة غير الله بما لا يُعبَد به أحدٌ غيره كالدعاء)[(٤)]، وهما وجهان ينسدل منهما ذيلٌ طويلٌ من صور الشرك في الربوبية والألوهية. وقد أوضح أن النفع والضر بيد الله، وأنه المستحق للعبادة وحده دون من سِواه، فقال مؤكدًا هذا المعنىٰ وحاجة العباد إلىٰ ربّهم: (ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيه إلىٰ أنهم أحوج المربُوبينَ إلىٰ

---

(١) وأصل التفسير لابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٤٨).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٥٥).

(٤) آثار الإمام (١/ ٣٥٦) من تلخيص الإبراهيمي لتفسير ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمعوّذتين.

تأييد الله وأحقّهم بطلب ذلك منه، وقد أرشدهم إلىٰ ذلك وله الحمد. ولو تفقّه الناس في معنىٰ اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقاتٌ ضعيفةٌ لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، ولأيقنوا أنه لا بدّ لهم من ربٍّ يُربّيهم ويَحميهم، ومالكٍ يُدبّر أمورهم، وإلهٍ يعبدونه ويتّخذون العبودية له جُنّة من استعباد الأقوياء)[١].

تأثيرات الوساوس فيما يقوم بالعباد من الربوبية والألوهية.

وفي ثنايا تلخيص الإبراهيمي رحمه الله لتفسير المعوّذتين[٢]؛ يَعرِض لمُفسِدات العقائد ومعاني الربوبية والألوهية في نفوس العباد، ويتناول أوجه ذلك بشيء من التفصيل فيقول: (والمستعاذ منه تارةً يوسوس للإنسان بما يُفسد عليه صِلَته بِرَبِّه، وتارةً بما يُفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارةً بما يُفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوىٰ صلاته، وجِماع ذلك أن يُبعده عن الله بالوسوسة بواحدةٍ من هذه أو بِكُلِّها أو بما يتفرّع عنها مما تضمنته الآيات المبيِّنة لأفعال أصل هذه القوّة المُوَسْوِسَة مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أو لذلك الشأن الجاري مجرىٰ الحوار بين إبليس وخالقه كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢]، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩]، فهو جاهد في أن يُبعد الناس عن الله بإفساد العقيدة الصحيحة فيه، أو بالصّرف عن شرع الله، أو بالحمل علىٰ عبادة غيره، فلذلك كله جاء الترتيب علىٰ هذا النمط المذكور بتلك العلائق القويّة التي يريد الشيطان أن يقطعها)[٣].

(١) المرجع السابق.

(٢) وأصل التفسير لابن باديس رحمه الله.

(٣) آثار الإمام (١/٣٥٦).

خلق الخير والشر والحكمة من ذلك، وكسب العبد في أعماله.

ومن ضمن ما قرّره الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا تلخيصه لتفسير المعوّذتين؛ الحكمة من خلق الخير والشر، وأن الله يبتلي بهما خلقه، ويدرّبهم علىٰ القدرة لاختيار الأصلح، كما يقرر جوانب من مسألة كسب العبد في أعماله، فيقول: (بُنِي هذا الكون الدنيوي علىٰ أن يقترن فيه الخير بالشر، وأن يتصلا وأن يشتبها وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته، فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما دائرة بينهما موصوفة بأحدهما ولا بدّ. ذلك من قدر الله ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني. وحكمته المبيَّنة في وحيه هي ابتلاء خلقه ليُجازَوا علىٰ ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز، وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين عدلًا منه تعالىٰ ورحمة، وحكمة أخرىٰ وهي تمرين هذا الإنسان في حياتيه العلمية والعملية، وتدريب فكره علىٰ اختيار الأنفع علىٰ النافع، والنافع علىٰ الضار، ثم سَوْق الجوارح إلىٰ العمل علىٰ ذلك الترتيب وترويضها عليه، والإنسان يكتسب القوّة والدُّرْبة بتمرّسه علىٰ ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره، وللفكر الإنساني عملٌ سابقٌ لأعمال الجوارح المُجتَرَحة، وسائقٌ لها ومُهَيِّئٌ لما يظهر أنه من بدواتها)[1].

الحاجة إلىٰ هداية التوفيق وهداية الإرشاد.

ويشير الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ حاجة العبد لهداية الله بتوفيقه إلىٰ الخير، وحاجته إلىٰ هداية العلم والبيان والإرشاد ليُجانب طريق الشر، فيقول في ذلك قولًا مُلئ حكمةً وسدادًا: (والإنسان في هذا الخِضَم الذي تلاطمت أمواجُه، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه، محتاجٌ إلىٰ معونةٍ إلهيّةٍ في تمييز الخير من الشر. وقد أمدّه الله بهذه المعونة من دينه الحق، ومحتاجٌ إلىٰ تأييدٍ إلهي يعصمه من الشر ويَقِيه من الوقوع فيه عن جهالةٍ أو عمد، وقد هداه الله إلىٰ أسبابه ووسائله

---

(١) آثار الإمام (٣٤٤-٣٤٥).

بما شرع له من المنبِّهات عند طُروق الغفلة، والمبُصِّرات عند عروض الشُّبهة، والمعوِّذات المحصِّنات عند إلمام لَمَّة الشيطان وطواف طائفه. ومن هذه المعوّذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر، وحقائق تَقِي صاحبها الوهم وهو شر، وعبادات تربّي مقيمها علىٰ الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وأعمال تثبِّتُ فاعلها علىٰ الحق، وأقوال يمليها القلب العامر بتقوىٰ الله والخوف من مقامه علىٰ الألسنة لتكون شهادةً لها وعنوانًا عليها، والألسنة تراجمة القلوب)[١].

الاستعاذة بالله والالتجاء إليه من تمام التوحيد.

ويبيّن الإبراهيمي ﷺ في تلخيصه لتفسير المعوّذتين[٢]، معنىٰ الاستعاذة فيقول: (وأعوذ: أستجير وألتَجِىٰ، ويتعدّىٰ هو وجميع تصاريفه بالباء كأستجير، والعَوذ والعِياذ مصدران منه كالصوم والصيام، وفي القرآن مما جاء علىٰ المعنىٰ اللغوي: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، ومن كلام العرب: قد استعذت بمَعاذ)[٣]، ثم يبيّن منزلة الاستعاذة بالله وأنها مشروعة في الكتاب والسنة للحماية من أنواع الشرور، فيقول: (فكان ممّا شرع الله لنا في كتابه وعلىٰ لسان نبيِّه التعوّذ باللسان من الشر والباطل، وأنزل الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور هُنّ أمّهات لما عَدَاهُن، وكان نبينا عليه السلام يُكثر التعوّذ باسم الله وكلماته من أنواع أخرىٰ من الشرور مفصلة في صحاح السنة . . .)[٤]، ثم يبيّن شدة حاجة العبد إلىٰ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه مهما بلغ شأنه؛ فيقول: (مهما امتدّ في العلم باعُه واشتدّ بالحكمة اضطلاعه، فإنه لا يستغني عن الله، ولا بُدّ له من الالتجاء إليه والاعتصام به، يستدفع به شر

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٤٥)، وأصل الكلام لابن باديس رحمه الله.

(٢) وأصل التفسير لابن باديس رحمه الله.

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٤٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ٣٤٥).

الأشرار وحسد الحاسدين، وكفىٰ بهذه التربية قامعًا للغرور، وإنه لَشَرُّ الشرور)[1]، ثم يبيّن أن من تمام التوحيد الالتجاء إلىٰ الله والانقطاع عن غيره إليه، فيقول: (ومِن صِدقِك في توحيدك لله في ربوبيته وإلهيته، أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه، بصدق معاملتك لله وإخلاص توحيدك إياه، . . . تستشعر أن العالم كله عجز وقصور، وأن خيراته مكدّرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلّا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد، فَتَجِيءُ المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد)[2].

سورة الإخلاص مَعاذٌ من الشرك.

يتحدث الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سورة الإخلاص[3] وتضمُّنها لأصول العقائد وكونها حصنًا من أعظم الشرور؛ فيقول: (وكفىٰ بما فيها من أصول العقائد معاذًا من الشرك وهو أصل الشرور كلها)[4]، ثم يذكر اشتمال السورة علىٰ أنواع التوحيد الذي يعصم الإنسان؛ فيقول: (سورة الإخلاص قد عرَّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد. فإذا قرأتَ القرآن وتدبّرتَه علىٰ ترتيبه، ووجدتَ توحيد الله منبثًا في آياته وسوره، متجليًّا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره، سادًّا ببراهينه علىٰ النفوس كل ثَنِيَّةٍ وكلّ مَطلع، كانت آخر مرحلةٍ يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن، هذه السورة المعجزة علىٰ قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصيّة مودّعٍ مُشفِق بمهمّ يخشىٰ عليك نسيانه فيعمد فيها من الكلام إلىٰ ما قلّ ودلّ ولم يملّ)[5]، ثم يبيّن

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٤٧).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٤٧).

(٣) وأصل الكلام لابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) آثار الإمام (١/ ٣٤٥).

(٥) آثار الإمام (١/ ٣٤٧).

بعض ما تتركه السورة في نفس قارئها من الإخلاص في التوحيد وصدق الالتجاء إلىٰ البارئ سبحانه، فيقول: (ومِن صِدقِك في توحيدك لله في ربوبيته وإلهيته، أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه، بصدق معاملتك لله وإخلاص توحيدك إياه. فأنت وقد آمنت وصدّقت وخرجت من سورة الإخلاص متشبعًا بمعانيها، ومنها معنىٰ الصمد، تستشعر أن العالم كله عجز وقصور، وأن خيراته مكدّرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلّا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد، فَتَجِيءُ المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد)[1].

الدعوة إلىٰ التوحيد وبيان استلزام الربوبية للألوهية.

ويظهر جهد الإمام الإبراهيمي ﷺ جليًّا في تقريره عقيدة التوحيد والدعوة إليها، ومن ذلك وصاياه الثمينة التي يسديها للأمة علىٰ مختلف طبقاتها، ومن تلك الوصايا وصيته بتصحيح العقائد وإقامة التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، إذ يقول: (فصحّحوا عقائدكم في الله، واعلموا أنه واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، هو المتفرد بالخلق والرزق والإعطاء والمنع والضرّ والنفع. فأخلصوا له الدعاء والعبادة، ولا تدعوا معه أحدًا ولا من دونه أحدًا، وطهّروا أنفسكم وعقولكم من هذه العقائد الباطلة الرائجة بين المسلمين اليوم، فإنها أهلكتهم وأضلّتهم عن سواء السبيل)[2]، ويظهر في هذا النص استدلاله بالربوبية علىٰ الألوهية؛ لاستلزامها ذلك.

ويقرر الإمام الإبراهيمي ﷺ أن في الخلق دلالة علىٰ الخالق، ولازمًا لألوهيته، فيقول في إيضاح هذا المعنىٰ: (فإذا الدين والكون دالٌّ ومدلول عليه، وإذا هو يفتح بدلالة ذاك مغالق هذا، وفتح فكرَه علىٰ عظمة الكون فاهتدىٰ بها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام: (١/٤٠٦).

إلىٰ عظمة المكوّن، فإذا كلّ شيء في الكون جليل، لأنه من أثر يد الله، وإذا كل شيء فيه قليل، لأنه خاضع لجلال الله)(١)، ولو أن المسلمين فقهوا توحيد الله من بيان القرآن، وآيات الأكوان، لما ضلّوا هذا الضلال البعيد في فهم المعاملات الفرعية مع الله -وهي العبادات-(٢)، ثم يبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الاعتقاد هو الطريق الموصل للسعادة والسيادة، فيقول: (ومن هذه النقطة يبدأ سموّ النفوس السامية وتعاليها، وتهيُّؤها للسعادة في الكون، والسيادة علىٰ الكون)(٣).

وهذا الاستدلال من الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في دلالة الخلق علىٰ توحيد الألوهية؛ جارٍ علىٰ طريقة ونهج القرآن، وكذلك كانت جادّة العلماء من قبله ومن بعده، ومن ذلك قول الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة علىٰ إقامة هذا البرهان القاطع المذكور علىٰ توحيده -جل وعلا- عُلِم من استقراء القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر علىٰ خلق شيء، فهو مخلوقٌ محتاج، لا يصح أن يُعبد بحال)(٤).

ومما صدح به الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ موضحًا عقيدة التوحيد ومقررًا لها وداعيًا إليها ونابذًا لما يناقضها، قوله: (نريد لهذا العامي أن يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبالكعبة قبلة وبالقرآن إمامًا وبمحمد رسولًا، وأن لا يرجو النفع إلا من ربّه ولا يستدفع الضرّ إلا به، وأن لا يستعين بعد الأسباب الكسبية إلا بقوّته، وتريدون منه أن يؤمن مع ذلك أو قبل ذلك أو بعد ذلك بأنكم أولياء الله وإن استبحتم الحرمات وركبتم المحرمات، وأن يشرككم مع الله في الدعاء أو يدعوكم من دونه وأن يلتجئ إليكم حتىٰ فيما هو من خصائص الألوهية، وأن يشدّ الرحال

(١) آثار الإمام (٣/ ٥١٤).

(٢) آثار الإمام: (٤/ ١٩٦).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٥١٤).

(٤) أضواء البيان، للشنقيطي (٧/ ٢٠٨).

لبيوتكم كما يشدّها لبيت الله)[1]، ومن ذلك قوله في الغاية التي يطمح إليها مشروعه الإصلاحي: (يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه، ولا يسلمون وجوههم إلا إليه ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله. وقد عرفوا المقامات الثلاثة فأعطوا لكل مقام حقّه غير منقوص، عرفوا مقام الألوهية فأعطوه ما يستحق من توحيد وتمجيد، وعرفوا مقام النبوّة فأعطوه ما يستحقّ من تعظيم واحترام واقتداء وتأسٍّ، وعرفوا مقام أنفسهم فأعطوها ما تستحقّ من تزكية وتكميل بالاستقامة علىٰ صراط الدين، والتسابق إلىٰ التفاضل بالتقوىٰ والاهتداء بسنن الله في كونه وبسننه في دينه)[2].

عقائد الإسلام مبنية علىٰ التوحيد.

ومما قرره الإمام الإبراهيمي ﵀ أن العقائد الإسلامية مبنية علىٰ التوحيد، وأن التوحيد موافق للعقل الإنساني، فيقول في ذلك: (فعقائد الإسلام مبنية علىٰ التوحيد، والتوحيد أقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد، وأدعىٰ لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه، والعقل إذا اطمأن من هذه الجهة انصرف إلىٰ أداء وظيفته مجموعًا غير مشتّت)[3]، ثم يبيّن علاقة العبادات بالتوحيد وأثرها فيه بقوله: (والعبادات غذاء وتنمية لذلك التوحيد وعون علىٰ تزكية النفس وتصفيتها من الكدورات الحيوانية)[4]، وإنما سمي توحيد الألوهية توحيد العبادة لقيامه علىٰ ذلك من صرف العبادة لله وحده، فلا يكون توحيدًا إلا بالعبادة.

التوحيد أساس الأعمال الصالحة.

ويقول الإمام الإبراهيمي ﵀ مقررًا كون التوحيد أساس كل عمل صالح،

---

(١) آثار الإمام (١/ ١١٦).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٣٨).

(٣) آثار الإمام: (٤/ ٦٨).

(٤) المرجع السابق.

وأنه به تستقيم حياة العبد، ويتضح له طريق العلم والعمل: (وتوحيد الله هو نقطة البدء في طريق الاتصال به ومنه تبدأ الاستقامة أو الانحراف فمن وحّد الله حق توحيده، قدره حق قدره، فعرفه عن علم، وعبده عن فهم، ولم تلتبس عليه معاني الدين بمعاني الدنيا)[1]، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فبغير التوحيد لا يصلح حالٌ ولا يستقيم أمر.

الدعاء أعلىٰ مظاهر التوحيد.

كما يقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الدعاء أعلىٰ مظاهر توحيد الله والعبودية له جل في علاه، وبذلك تمثّل نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في منهج يجب أن يُقتدىٰ به، فيقول: (وإذا كان المظهر الأعلىٰ للتوحيد من العبادات هو الدعاء، فإن أدعية إبراهيم التي قصها الله علينا هي أشرف تلك المظاهر في التنزيه المحض، والأدب الكامل، وهي الأسلوب الذي يجب أن يحتذيه كل داع موحِّد)[2]، وفي بيانه للمنهج الصحيح في التعاطي مع الدعاء ببذل السبب معه، يقول: (والدعاء من غير تعاون علىٰ الأسباب، كالتوكل كلاهما سخرية بالله وبعباد الله، فلتعلموا أن الدعاء المشروع والتوكل المشروع إنما يأتي في عالم الأسباب بعد عَقْل الناقة، وبذل الطاقة)[3].

التوحيد والإخلاص.

يقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإخلاص من الأعمال التي تجمّل الحياة وتُغليها، وتقف بها في مستوىٰ الإجلال وتحييها[4]، فيقول عن ذلك: (السعي فيما تقوم به هذه الحياة الدنيا من الأعمال وتتوقف عليه عمارتها، وهذا يرجع

(١) آثار الإمام (٤/ ١٩٦).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٣٩٥).

(٣) آثار الإمام (٥/ ٢٣١).

(٤) آثار الإمام (١/ ٦٥).

إلىٰ الدين بإخلاص النية، وتمحيض القصد للجري علىٰ حكمة الله وتأييد سننه الكونية)[١]، ويقول عن عبادة الإخلاص التي هي من صميم التوحيد: (والإخلاص أحوج ما تحتاج إليه ناشئتنا في وقت ذهب فيه الإخلاص ضحيّة المداجاة[٢] والنفاق والغش والمؤاربة[٣]، ومجموعها هو الرياء الخادع)[٤].

وذكر أن من عاجل جزاء الإخلاص ما يضعه الله من القبول لعبده المخلص له، فيقول: (القبول جزاء من الله علىٰ الإخلاص، يعجّله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالِم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدع النفوس المدبرة عن الحق إلىٰ الإقبال عليه)[٥].

التوحيد والخوف من الله.

ويتحدث الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبودية الخوف من الله واستلزامها لحبه جل وعلا، وإثمارها للسكينة والطمأنينة؛ فيقول مقررا ذلك: (فالنفوس الراهبة تخاف الله خوفًا تفضله علىٰ قياس الخوف من الملوك والأقوياء، مع أن الخوف من المخلوق يقتضي البعد عنه، والحذر منه والبغضَ له، أما الخوف من الله فإنه يقرب إليه، ولا يبعد عنه، ويثمر الحبّ والرضىٰ والسكينة والاطمئنان، فأنّىٰ يقاس أحدهما علىٰ الآخر! ولكنه الضلال في فهم العبادة جر إلىٰ الضلال في فهم آثارها ومعانيها، ثم إلىٰ الحرمان من آثارها ومعانيها)[٦] والخوف من الله وحده باب عظيم من أبواب تحقيق التوحيد ومجانبة الشرك، ولذا يقول الإمام

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المُداجاةُ: المُطاولة والمداراة.

انظر: العين، للفراهيدي (٦/ ١٦٨)، وتهذيب اللغة، للأزهري (١١/ ١١١).

(٣) المؤاربةُ: المُداهاة والمخاتلة.

انظر: العين، للفراهيدي (٨/ ٢٩٠)، والفائق، للزمخشري (١/ ٣٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ٤٦).

(٥) آثار الإمام (٤/ ١١٢).

(٦) آثار الإمام (٤/ ١٩٥).

موضحًا علاقة التوحيد بعبادة الخوف وبعض آثارها: (وإن هذا الشباب إذا تدرّب علىٰ الإقدام وقوّة العزيمة وعدم الخوف إلا من الله فإنه يأتي بالأعاجيب، وإن الله يأتي بعبارات الحصر والخوف ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: ٤٠]، وإن المسلمين لم يؤخذوا إلا من الابتعاد عن خشية الله . . . فإذا كان المسلم لا يرهب إلّا الله فإنه لا يعبد وثنًا ولا يهاب ظالمًا مهما بلغ طغيانه. ويوم كان المسلمون كذلك سادوا الدنيا وملكوها بالعدل، ولما انتقلوا إلىٰ اعتقادهم بالمخلوق واعتمادهم علىٰ المخلوق استعبدوا)[١].

الكلام علىٰ السحر والرقّىٰ الشيطانية وأنواع التأثير.

تناول الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة التأثيرات كالسحر والعين، وأنواع التأثر بها، وقرّر الاعتقاد الصحيح فيها بأنّ تأثيرها يكون بأمر الله وقدرته، فقال في بيان ذلك ضمن تلخيص تفسير المعوّذتين[٢]: (والنفث: إخراج الهواء من الفم مدفوعًا بالنفس بدون بصاق، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل. والنفث وإن كان عامًا لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة، يعقدون خيطًا ويتمتمون عليه برقىٰ معروفة عندهم، وينفثون علىٰ كل عقدة منه بقصد إيصال الشر من نفوسهم الخبيثة إلىٰ نفس المسحور، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]، وما أمرنا الله بالاستعاذة من شرّه إلّا لأنه يؤثّر في بعض النفوس القابلة للتأثر به، حاش النفوس المعصومة كنفوس الأنبياء، فإن شرور الدنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم إلىٰ أرواحهم، ولا يتعاصىٰ علىٰ هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ وما يوهمه لفظ الرواية فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني. ونحن نعتقد دينًا أن تأثير المؤثرات هو من وضع الله وحده، ونقطع علمًا وتجربة أن للقوىٰ النفسية تأثيرًا أعظم من تأثير القوىٰ الجسمانية، وأن من مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون، وتأثير التنويم في

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢١٠-٢١١).

(٢) وأصل التفسير لابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المنوّم، وأن التأثير والتأثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوّة وضعفًا، وأن تأثير العين ليس من ذاتها وإنما هو من النفس التي من وراء العين، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تُحدث ذلك الأثر، وإن هذا التأثير لون من ألوان النفس، فإن كانت خيرة كان تأثيرها خيرًا، وإن كانت شريرة كان شرًا)[1]، ثم بيّن حقيقة رُقىٰ السحرة وكونها رقىٰ شيطانية غير شرعية، فقال: (فالنفث المذكور في الآية إن أثَّر فإنما يؤثر بالقوّة النفسية التي من ورائه، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة إلّا نفث الشر، لأن الشر هو صفته الطبيعية، كالحية لا تنفث الترياق وإنما تنفث السم، وكالعدو يلقاك بطعن الأَسَل، لا بطعم العسل إذ كان ذلك من طبيعة العداوة. هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة. وأما النفوس الخيّرة الطيبة كنفوس المؤمنين فإنها تنفث الخير للخير)[2]، ويقول أيضًا: (وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثًا مجردًا بل يُغَمْغِمُون[3] بِرُقىٰ شيطانية وأسماء أرواحٍ خبيثة)[4].

الرُّقَىٰ الشرعية.

ومما قرره الإبراهيمي رَحِمَهُ الله من صحّة نفاذ الأسباب الشرعية بقدرة الله وأمره؛ ما يتعلّق بالرُّقىٰ الشرعية النافعة الواردة في السنة، وهي من الاستعاذة بالله، وضرب لذلك أمثلةً فقال: (وأما النفوس الخيّرة الطيبة كنفوس المؤمنين فإنها تنفث الخير للخير، وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ الله عَنها أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه جمع بين كفّيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه، يبدأ برأسه ووجهه يفعل ذلك ثلاث مرات[5]، فهذا نفث الخير

(١) آثار الإمام (١/ ٣٥١).
(٢) آثار الإمام (١/ ٣٥٢).
(٣) والغَمْغَمةُ والتَّغَمْغُم: الكَلَام الذي لا يُبين. لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٤٤٤).
(٤) آثار الإمام (١/ ٣٥٢).
(٥) رواه البخاري برقم: (٤٧٢٩).

من خير نفسٍ خَلَقَها الله، ثم قالت في تمامه: فلما اشتكىٰ كان يأمرني أن أفعل ذلك، وفي رواية: كان يقرأ بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهذا وأمسح بيد نفسه رجاء بركتها[(١)]، وفي رواية مسلم عنها أنه كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله. فهذه الأحاديث -وهي ثابتة صحيحة- تثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعًا. وتبيّن لنا أن كل نفس تنفث ما وَقَر فيها، وأن النفث إيصالٌ للقوّة الروحانية إلىٰ ما يُراد وصول الأثر إليه، وهي دليلنا علىٰ ما أسلفنا من أن في النفث خيرًا وشرًا، ولولاهما لما كان النفث إلّا من فعل السحرة)[(٢)].

من آثار التوحيد.

ومن آثار التوحيد التي قررها الإمام الإبراهيمي رحمه الله أنه أعظم أسباب انتصار الحق وأهله علىٰ الباطل وأهله، فيقول في بيان هذه الحقيقة: (فتنصرف خواطرهم إلىٰ البحث في سبب انتصار الحق علىٰ الباطل يوم الفتح الأكبر، وانتصار الخير فيه علىٰ الشر، وانتصار التوحيد علىٰ الشرك، فلا يجدونه إلّا في إخلاص التوحيد لله، وصدق العبودية له، ونذر الجندية في سبيله، وتلك هي الغايات التي أشار إليها من لا ينطق عن الهوىٰ في استهلال خطبته يوم فتح مكة)[(٣)].

كما قرر رحمه الله أن من آثار التوحيد علىٰ المسلمين جمعُ كلمتهم، وتوحيد صفهم، وعدم تفرقهم، فيقول: (فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبىٰ لها الله أن تتفرّق وإن كثرت فيها دواعي التفرّق، ويأبىٰ لها دينها -وهو دين التوحيد- إلا أن تكون موحّدة)[(٤)]، ولا ريب أن في كلمة التوحيد توحيد للكلمة، فما اجتمعت القلوب علىٰ خير من التوحيد.

---

(١) رواه البخاري برقم: (٥٤٠٣).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٥٢)، وأصل الكلام لابن باديس رحمه الله.

(٣) آثار الإمام: (٥/ ٨٧).

(٤) آثار الإمام: (١/ ١٠٧).

وبعد هذا الاستعراض لتقريرات الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان أهمية التوحيد ومكانته؛ يمكن أن نجمل ما قرره في النقاط التالية:

- أن التوحيد أصلح الحال الفاسدة التي كان عليها الناس قبل مجيء الإسلام.

- أن التوحيد أساس الحضارة الإسلامية وسر هيمنتها.

- توافق الأنبياء عليهم السلام في دعوة التوحيد ونبذ الشرك.

- استعمال نبي الله إبراهيم عليه السلام للطريقة العقلية في محاربة الأوثان كالاستدلال بالمكونات علىٰ المكوّن.

- نجاح دعوة النبي ﷺ في بناء التوحيد والإيمان واستقرارها في قلوب المؤمنين.

- دلائل القرآن ودلائل العقل تورث العلم اليقيني بوحدانية الله تعالىٰ واستحقاقه للعبادة دون غيره.

- أن أول ما جاء به القرآن ووضّحه وأكد علىٰ أهميته مرارًا وأقام عليه الأدلة التفصيلية هو التوحيد.

- أن في الخلق دلالة علىٰ الخالق ولازمًا لألوهيته (الاستدلال بالربوبية علىٰ الألوهية).

- أن الفقه الصحيح لتوحيد الله يعصم من الضلال في فهم المعاملات الفرعية مع الله.

- أن اعتقاد التوحيد هو الطريق الموصل للسعادة والسيادة.

- أن العقائد الإسلامية مبنية علىٰ التوحيد.

- أن التوحيد موافق للعقل الإنساني، وأدعىٰ لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه.

- أن التوحيد أساس كل عمل صالح وبه تستقيم حياة العبد ويتضح طريق العلم والعمل.

- تقرير القرآن للتوحيد وبيان سبيل الموحّدين من خلال قصص نبي الله إبراهيم عليه السلام.

- أن في قصص نبي الله إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن منهج متكامل في التوحيد والدعوة إليه والصبر عليه، والبراءة من الشرك وأهله.

- أن أعلىٰ مظاهر توحيد الله والعبودية له هو الدعاء.

- أن من آثار التوحيد علىٰ المسلمين جمعُ كلمتهم وتوحيد صفهم.

- أن التوحيد أعظم أسباب انتصار الحق وأهله علىٰ الباطل وأهله.

- بيان معنىٰ الربوبية والألوهية وبعض مظاهرهما.

- إثبات تأثير السحر وتفصيل ذلك وبيان خبث السحرة.

- إثبات الرقىٰ الشرعية.

ثالثًا: التحذير من الوثنية والشرك

الشرك المراد هنا هو المناقض لتوحيد العبادة وهو عبادة غير الله تعالىٰ[1]، وهو أكبر الكبائر وأعظم ما عُصي الله به، ولا يقبل الله من صاحبه صرفًا ولا عدلًا، وأدلة النهي عنه والتحذير منه أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن إِلَيْكُم وَلَيَزِيدَنَّ رَبِّكُمْ مِّنْهُم كَثِيرًا أُنزِلَ مَّآ مِن إِلَيْكَ طُغْيَٰنًا رَّبِّكَ فَلَا وَكُفْرًا عَلَى﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ومن السنة حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار**»[2]، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من لَقِيَ الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لَقِيَهُ يشرك به شيئًا دخل النار**»[3]، وغيرها كثير.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية (١١/ ٦٨٢)، ودحض شبهات علىٰ التوحيد، لأبابطين (٣٣)، والمورد العذب الزلال، لابن حسن (٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧).

(٣) رواه مسلم (٩٣).

بيان خطر الوثنية وحال إبراهيم عليه السلام معها.

وقد تناول الإمام الإبراهيمي رحمه الله ما يُضاد التوحيد ويناقضه وهو الشرك وما يتصل به؛ فحذّر منه وبيّن خطره وضرره، فمن ذلك قوله عن الوثنية التي ضلّ بها كثير من الأمم: (هي داء الإنسانية العضال وهي العدو الذي حاربه نوح ألف سنة إلّا خمسين عامًا، فما آمن معه إلّا قليل)[(١)]، ويقول عن نبي الله إبراهيم عليه السلام وشأنه مع الوثنية: (شأنه أنه قبّحها في نظر قومه أشنع تقبيح، وقرعهم علىٰ عبادتها أعظم تقريع)[(٢)]، ثم يبيّن رحمه الله كيف انتقل نبي الله إبراهيم عليه السلام إلىٰ أعلىٰ مراتب الإنكار فسنّ سنّةً لمن بعده من الأنبياء بتحطيم الأوثان، فيقول: (ولما لم تغن فيهم تلك القوارع ولم توثر في نفوسهم القاسية البراهين الصوادع، راغ[(٣)] يجلي تلك الأوثان ضربًا باليمين حتىٰ جعلها جذاذًا[(٤)] وحطمها تحطيمًا، وهذه هي المرتبة الرفيعة، مرتبة تغيير المنكر باليد سنّها أبو الأنبياء إبراهيم)[(٥)]، ثم يذكر رحمه الله من سار علىٰ طريقته من الأنبياء في تعاملهم مع أوثان أقوامهم، فيقول: (وتبعه فيها موسىٰ حينما قال للسامريّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه: ٩٧]، وتبعهما ختامهم وأفضلهم محمد ﷺ فحطم أوثان العرب المحيطة بمكة، وأرسل أصحابه يهدمونها في كلّ حيّ، ولم تغنِ عن طاغية ثقيف شفاعةُ ثقيف)[(٦)] [(٧)].

---

(١) آثار الإمام: (١/ ٣٩٥).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٣٩٦).

(٣) يُقال: راغَ فلانٌ إلىٰ كذا، إذا مالَ سِرًّا إليه.
انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ولسان العرب، لابن منظور (٨/ ٤٣٠).

(٤) الجَذُّ: القَطْع والكسر. جعلها جذاذًا: أَيْ كَسَّرَها.
انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٤٠٩)، والنهاية، لابن الأثير (١/ ٢٥٠).

(٥) آثار الإمام: (١/ ٣٩٦).

(٦) يشير إلىٰ قصة وفد ثقيف حين سأل أشرافهم النبي ﷺ عن صنمهم فأمرهم بهدمه فامتنعوا، فأرسل المغيرة رضي الله عنه فهدمه. انظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٣٠٢)، والسيرة النبوية، لابن كثير (٤/ ٦٢).

(٧) آثار الإمام: (١/ ٣٩٦).

من أسباب انتشار الوثنية.

ويواصل الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ تحذيره من الشرك، فيتحدث عن استفحال داء الوثنية المُهْلِك في المسلمين، ويبيّن أن ذلك من آثار هجر القرآن وعلومه، فيقول: (ومن آفات البعد عن هداية القرآن وعلوم القرآن وتربية القرآن أن الوثنية التي أودت بالأمم قبلنا، وكانت علة العلل في ضلالها وشقائها، ولقي منها رسل الله الْأَلاقي[1] حتىٰ قال نوح في الوثنيين من قومه، بعد أن ذكر أسماء أوثانهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، وقال إبراهيم في أوثان قومه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، هذا المرض الفتّاك الذي استعصىٰ علىٰ أولي العزم من رسل الله علاجُه، هو الذي غفل عنه المسلمون، وهوّن شأنَه علماؤهم الجامدون حتىٰ استشرىٰ وأَعضل)[2].

إنكار بعض مظاهر الوثنية.

وقد استنكر رَحِمَهُ اللَّهُ مظاهر الوثنية التي عمّت وطمّت في عصره، إذ انتشرت القباب والأبنية علىٰ القبور، وقصدها الناس من دون الله، وغلوا في تعظيم أصحابها غلوًّا يُوصِل إلىٰ الشرك الأكبر، فيقول: (فهذه القِباب المشيدة، وهي أوثان هذه الأمة، أضلت كثيرًا من الناس، وأكثر من الكثير، وافتتنوا بها، وبأسماء أصحابها حتىٰ ألهتْهم عن دنياهم وأفسدت عليهم أخراهم، وغلوا في تعظيمها حتىٰ أصبحت معبودةً تُشَدُّ إليها الرحال، وتقرَّبُ لها القرابين والنذور، وتسأل عندها الحاجات التي لا تسْأَلُ إلّا من الله، ويحلف بها من دون الله، ويتآلىٰ بها علىٰ الله)[3].

---

(١) الأُلْقِيَّةُ: وَاحِدٌ مِنْ قَوْلِكَ لَقِيَ فلانٌ الأَلاقيَّ مِنْ شَرٍّ وعُسْر. ولَقِيتُ مِنْهُ الأَلاقِيَ؛ أَي الشَّدائد.
انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ٢٥٥)، وتاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ٤٧٦).

(٢) آثار الإمام: (١/ ٣٩٦).

(٣) آثار الإمام: (١/ ٣٩٧).

ويبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من أسباب ذلك تهاون بعض العلماء مع تلك المظاهر الشركية، وعدم سدّهم لذرائع الشرك، وبعدهم عن سنن الأنبياء، حتىٰ وصل الحال بالأمة إلىٰ هذا الحد الخطير، فيقول: (وما جَرَّ هذا البلاء علىٰ الأمة الإسلامية حتىٰ أضاعت الدين والدنيا، إلّا سكوتُ العلماء عن هذه الأباطيل أول نشأتها، وعدمُ سدِّهم لذرائعها حتىٰ طغت هذا الطغيان علىٰ عقول الأمة، ولو أنهم فقهوا الأمة في كتابِ ربها، وساسوها بسنة نبيها لكان لها من سيرة إبراهيم ومحمد عاصمٌ أي عاصم من هذا الشر المستطير)[1].

وقد اشتدّ نكيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ما يُعرف في بلاده بعادة «الزُّرَد»، وهي جمع «زَرْدَة» وتعني التجمّع الذي يُقيمُه الطُرُقيّون، والمقصود به مآدب الأكل التي يقع فيها من الآثام والمنكرات والفواحش والمحرمات والبدع والشركيات ما أنكره الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهي تُقام علىٰ الأوثان لبعض من يزعمون صلاحهم، ويصوّر لهم الشيطان صاحب الوثن إلهًا متصرفًا في الكون، متصرفًا في النفع والضرّ والرزق والأجل بين عباد الله، وقد كانت هذه الزرد تقام في أيام الجدوب للاستسقاء غير المشروع، فأصبحت عادة مستحكمة، وشرعة محكمة، وعبادة موقوتة، يتقرّب بها هؤلاء المبتدعة إلىٰ أوثانهم في أوقات الجدوب والغيوث علىٰ السواء؛ ولذا وصف الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الزُّرَد بأنها «أعراس الشيطان» وولائمه وحفلاته ومواسمه، وأن كل ما يقع فيها رجس من عمل الشيطان، وأن كلّ داعٍ إليها، أو معينٍ عليها، أو مكثّرٍ لسوادها فهو من أعوان الشيطان، وبيّن أن كلّ ذلك مما ذكّرنا به القرآن، وبيّن لنا أنه من أمر الشيطان ووعده، وتزيينه وإغوائه، وقد أحيا الله قلوبًا بالتوحيد الذي هو سعادة الدارين، فماتتْ هذه العوائد الشيطانية أو كادت تموت، بتأثير الحركة الإصلاحية المطهّرة للعقائد، ثم قضي عليها بتأثّر الناس بالحرب ولأوائها، وقد ماتت قلوبٌ فعادت في السنتين الأخيرتين إلىٰ ما

(١) آثار الإمام: (١/ ٣٩٧).

كانت عليه، ويعزم الإمام الإبراهيمي رحمه الله علىٰ مواصلة جهوده في الحديث عن هذه الشركيات وإبطالها وردّها[1].

الدعوة إلىٰ التوحيد المناقض للشرك.

وقد رفع الإمام الإبراهيمي رحمه الله نداءه لقومه يدعوهم إلىٰ التوحيد، وإصلاح ما فسد من العقائد؛ فيقول صادحًا بلسانٍ -نحسبه صادقًا-: (يا قومنا، أجيبوا داعي الله، ولا تجيبوا داعيَ الشيطان، يا قومنا إن أصول هذه المنكرات مَفسدة للعقيدة، وإن فروعها مُفسدة للعقل والمال، وإنكم مسؤولون عند الله عن جميع ذلك، يا قومنا إنكم تنفقون هذه الأموال في حرام وإن الذبائح التي تذبحونها حرام لا يحلّ أكلها، لأنها مما أهل به لغير الله؛ فمن أفتاكم بغير هذا فهو مفتي الشيطان، لا مفتي القرآن)[2].

آثار الشرك علىٰ المسلمين.

لقد كان الشرك وضعف التوحيد سببًا في تأخّر المسلمين وبُعدهم، ولذلك آثارٌ تقع علىٰ الإنسان حتىٰ يكون مسلوب الإرادة، وفي بيان ذلك يقول الإبراهيمي رحمه الله: (وما أخّر المسلمين إلا هذا الشرك الذي أبعد المسلمين عن عبادة الله. لأن الإنسان إذا تلفّت إلىٰ جهات متعددة فإنه يصبح بلا إرادة، وما الإنسان إلّا إرادة وعزيمة فإذا صلحت إرادته صلحت عزيمته، وإذا أراد الإنسان شيئًا وسعىٰ لتحقيقه فإن إرادته تؤدي به إلىٰ نيل مبتغاه، ومن أصبح بلا إرادة أصبح مسيّرًا مثل ما هو حالنا اليوم)[3]، وآثار الشرك تذهب بالإنسان إلىٰ أبعد من ذلك، حتىٰ يلقىٰ في جهنم -عياذًا بالله-.

ويرصد الإمام رحمه الله طرفًا من آثار الشرك وأضراره المهلكة، وكيف محا

---

(١) انظر: آثار الإمام (٣/ ٣٢٠-٣٢٢).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٣٢٢).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢١٠).

الإسلام كل ذلك، وأحل التوحيد محله، فيقول: (أعلن الإسلام من أول يوم حربًا شعواء علىٰ الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشدّ ما كانت سلطانًا علىٰ النفوس، وتغلغلًا فيها، وإفسادًا لفطرة الخير وإطفاء لنورها، حتىٰ اجتثّها ومحا آثارها من النفوس ومن الآفاق، وعمر مكانها بالتوحيد)[١].

مفاسد الوثنية.

وفي بيان مفاسد الوثنية يقول أيضًا: (وأعظم مفسدة هي الوثنية التي تعطّل العقول وجميع المواهب التابعة لها المتصرفة بأمرها، وإذا تعطل العقل تعطّلت ثمراته وفوائده وأصبح الناس في حكم المجانين، وتسلطت عليهم الأوهام، وأصبح نظرهم إلىٰ الحقائق زائغًا منحرفًا، وحسبهم نتيجة لذلك أنهم يؤلهون أشياء كلها أحط من الإنسان، ومنها ما هو من صنعه)[٢]، ويؤكد ذلك المعنىٰ في عظم فساد الوثنية بقوله: (وأكبر المفاسد هي الوثنية التي هي آفة العقل والفكر وحجر العثرة في سبيلهما)[٣].

ثم يقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن حملة الإسلام علىٰ الشرك حررت العقول، ودفعت النفوس إلىٰ أخذ الدين بقوة، وهذا هو الأثر الذي تركه النبي ﷺ في نفوس أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حتىٰ كانوا سدًّا منيعًا في وجه الوثنية، فيقول في بيان ذلك: (أتدرون السر في تلك الحملات علىٰ الوثنية؟ هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها حتىٰ يواجه أمانة الدين الجديد صحيحًا معافىٰ، ويؤدي الوظيفة التي خلق لأدائها؛ وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنىٰ عقولهم من جديد علىٰ صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد علىٰ هدم طاغية ثقيف)[٤]، ويؤكد هذا المعنىٰ في تطهير النبي ﷺ للنفوس من درن

---

(١) آثار الإمام: (٤/ ٣٥٩).

(٢) آثار الإمام: (٤/ ٣٦٤).

(٣) آثار الإمام: (٥/ ٨٣).

(٤) آثار الإمام: (٤/ ٣٥٩).

الشرك، فيقول: (أما تحطيم الأصنام التي حول الكعبة فقد حطم مثلها أبوه إبراهيم الخليل، ولكن محمدًا ﷺ طهر النفوس من الوثنية قبل أن يطهر وجه الأرض من الأوثان)(١).

جمعية العلماء في مواجهة الشركيات.

وإكمالًا لما مضىٰ من الجهود الإصلاحية للإمام الإبراهيمي رحمه الله في تقرير التوحيد والتحذير من الشرك؛ نذكر طرفًا من جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي رأسها الإمام مدّةً من الزمن، فمن ذلك ما عدّده الإمام رحمه الله من غاياتٍ تطمح الجمعية في الوصول إليها، وأهداف ترغب في تحقيقها، وعلىٰ رأس تلك الغايات والأهداف حمل الناس علىٰ تحقيق الإيمان بالله وحده وتقريره في نفوسهم، وحملهم علىٰ عبادة الله وحده، وترك ما يعبد من دونه، فيقول رحمه الله مبيّنا لذلك: (إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنّة رسوله، ولا سلطان علىٰ أرواحهم إلا الله الحي القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم إلا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتثمر آثارًا صحيحة)(٢).

ثم يبيّن رحمه الله الهدف الأسمىٰ لجهود الجمعية بحمل الناس علىٰ التوحيد، فيقول: (يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه، ولا يسلمون وجوههم إلا إليه ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، وقد عرفوا المقامات الثلاثة فأعطوا لكل مقام حقّه غير منقوص - عرفوا مقام الألوهية فأعطوه ما يستحق من توحيد وتمجيد . . .)(٣) وما أعظمه من هدف وما أسماها من غاية.

---

(١) آثار الإمام: (٥/٨٨).
(٢) آثار الإمام (١/١٣٨).
(٣) المرجع السابق.

وقد تحدّث رَحِمَهُ الله عن عمل جمعية العلماء في توجيه الأمة، وعلىٰ رأس ذلك التوجيه تمكين أساس التوحيد الذي تنتج عنه ثمارٌ وآثار عظيمة في صلاح الأمة، فقال: (إن هذا النوع من التحرير لا يقوم به، ولا يقوَىٰ عليه، إلا العلماء الربانيون المصلحون، فهو أثر طبيعي للإصلاح الديني الذي اضطلعت بحمله جمعية العلماء، عرف ذلك من عرَفه لها إنصافًا، وأنكره من أنكره عنادًا وحسدًا. فما زادها اعتراف المعترف إلا نشاطًا، وما زادها جحودُ الجاحد إلا حزمًا وثباتًا. بذلك التحرير العقلي الذي أساسه توحيدُ الله، تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة، والمشارب المتباينة. والنزعات المتضاربة)[1]، ثم عدّد آثارًا أخرىٰ من آثار هذا الإصلاح المبارك.

ثم بيّن رَحِمَهُ الله أن الجمعية قد نجحت في جهودها تلك، فقال: (إن جمعيتكم تفخر بأنها نجحت في جمع طوائف عظيمة من الأمّة الجزائرية علىٰ الحق بعد أن كانت كلها متفرقة علىٰ الباطل . . . وبأنها أفلحت في تربية الأمة علىٰ عدم الخوف إلا من الله والرهبة إلا منه، وأن تواصل فيه وتقاطع فيه)[2]، ولا ريب أن الدعوة إلىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له من أعظم أسباب التوفيق والفلاح.

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ الله في التحذير من الوثنية والشرك؛ يمكن أن نجمل ما دوّنه في النقاط التالية:

- أن الوثنية هي داء الإنسانية العضال الذي ضلّ به كثير من الأمم.

- أن نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر الوثنية بأعلىٰ مراتب الإنكار حين حطّم الأوثان، فسنّ بذلك سنّةً لمن بعده من الأنبياء.

- أن انتشار الوثنية في المسلمين هو من آثار هجر القرآن وعلومه.

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٥٦).

(٢) آثار الإمام (١/ ٢٨٦).

- الإنكار الشديد لمظاهر الوثنية كانتشار القباب والأبنية علىٰ القبور، وقصدها من دون الله والغلو في تعظيم أصحابها.

- أن من أسباب انتشار الوثنية تهاون بعض العلماء مع المظاهر الشركية، وعدم سدّ ذرائع الشرك، والبعد عن سنن الأنبياء.

- أن سبب تأخّر المسلمين هو الشرك وضعف التوحيد.

- من آثار الشرك علىٰ الإنسان أن يجعله مسلوب الإرادة فاسد الفطرة معطل العقل.

- أن الإسلام جاء من أول يوم باجتثاث الوثنية بجميع أنواعها.

- أن حملة الإسلام علىٰ الشرك حررت العقول، ودفعت النفوس إلىٰ أخذ الدين بقوة.

رابعًا: فضل دين الإسلام على سائر الأديان

قبل الشروع في بيان الإبراهيمي رحمه الله لفضل دين الإسلام؛ نتناول جانبًا من حديثه عن الأديان السماوية، وما اتصل بها من أمور، وما تركته من آثار، فقد عاصرها الإمام في زمانه حين كانت تلك الأديان حاضرةً في الجزائر ولها وجود ظاهر.

فبدايةً يعتقد الإمام الإبراهيمي رحمه الله (أن للأديان السماوية في أصلها النقي أسبابًا واصلةً إلىٰ الله، وأن بينها أرحامًا متشابكة علىٰ الحق والخير، ونسبًا مرفوعة إلىٰ الملإ الأعلىٰ تتقاضاها التعاون والتناصر علىٰ الحق والخير)[1]، كما يرىٰ رحمه الله أن التفاضل بين الأديان يكمن في التوفيق بين مطالب الروح والجسد، وهو الذي ميّز دين الإسلام عن غيره من الأديان، فيقول: (وإن التاريخ لم يشهد دينًا جمع بين مطالب الروح والجسم إلا هذا الدين، وأن السعادة لا تتمّ في الدارين إلا بالتوفيق بين المطلبين . . . وإذا كان في الديانات السماوية قبل الإسلام ما لا يفي بحاجة البشر من تحصيل السعادتين، فكيف بالقوانين الوضعية . . . وإنّ ما يقصّه التاريخ من اضطراب الأمم وتخبّطها في سبيل الحياة، إنما هو ناشئ عن هذا السبب، وهو عدم التوفيق بين المطلبين، وبهذا التوفيق تتفاضل الأديان، وبه تتحقق حكمة وجود الإنسان)[2].

---

(١) آثار الإمام (٣/ ١٢٥).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٠٨-١٠٩).

المشتركات بين الأديان السماوية.

تتفق الأديان السماوية وكتبها في مقصد جمع الناس علىٰ الحق والهدىٰ، وفي تقرير ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (تلتقي الأديان السماوية في كلمة سواء ومقصد أعلىٰ وهو جمع أهلها علىٰ الهدىٰ والحق، ليسعدوا في الدنيا ويستعدوا لسعادة الأخرىٰ. بهذا جاءت الأديان المعروفة، وبهذا نزلت كتبها)[1]، ومما تتفق عليه الأديان السماوية معنىٰ المعروف والمنكر، وفي بيان ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ مستنكرًا علىٰ مسيحية الجزائر: (وهل أمرتْ بمعروف أو نهتْ عن منكر في هذه القضية كما هو شأن الأديان السماوية الصحيحة النسبة إلىٰ السماء، التي لا تختلف في معنىٰ المعروف والمنكر؟)[2].

وقوع التحريف في بعض كتب الديانات.

ويتحدث رَحِمَهُ اللَّهُ عن ضياع كتب الأمم السابقة بما نالها من التحريف والتناسي، فيقول: (ولعل لتلك الأمم الكتابية ما يشبه العذر في المصير الذي صارت إليه لضياع كتبها التي هي منبع الهداية بين التحريف والتبديل والنسيان والتأويل)[3].

الأديان الثلاثة في الجزائر وأصول الانحراف.

ويسلّط رَحِمَهُ اللَّهُ الضوء علىٰ الأديان الموجودة في الجزائر، وهي الإسلام والنصرانية واليهودية، وأن الصراع قائم بين الإسلام من جهة وبين المسيحية واليهودية مجتمعتين من جهة أخرىٰ[4]، ويبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أصولها الصحيحة، وما لحق بها من باطل، فيقول: (تتجاور في الجزائر أديان ثلاثة، أصلها من السماء وإن

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٠٩).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٢٥).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٢).

(٤) انظر: آثار الإمام (٣/ ٨٠).

أخلد أتباعها إلىٰ الأرض، وأساسها التوحيد وإن شانها أهلها بالتثليث أو الوثنية، وكتبها وحي إلهي، ولكن وصمها بعضهم بالتحريف والتبديل، وخلطها بعضهم بالأجنبي والدخيل، وعاملها بعضهم بالتأويل والتعطيل)[1]، ونستخلص من هذا النص أصول الانحراف في الأديان علىٰ النحو التالي:

- اتّباع الدنيا.
- التثليث.
- الوثنية.
- التحريف.
- إدخال ما ليس منها.
- التأويل.
- التعطيل.

مسالك دخول الأديان إلىٰ النفوس.

ثم يعمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ تحليل كل واحد منها، وبيان مداخله إلىٰ النفوس، فيذكر عن اليهودية والنصرانية بعدهما عن الفطرة، وأن اليهودية إنما تتسلّل إلىٰ النفوس الفارغة فيقول: (جاء الإسلام إلىٰ هذا الشمال فوجد من اليهودية عرقًا ناشزًا مُنْتَبِرًا[2]، ومن النصرانية عرقًا سائسًا نخرًا[3]، فقضىٰ عليهما بسماحه، ولم يقض علىٰ أهلهما لسماحته، وأعانه علىٰ ذلك بعدهما عن الفطرة، وحرج مدخلهما إلىٰ النفوس، فاليهودية دين لا يدخل إلّا في النفوس الفارغة أو التي أجمت[4]

(١) آثار الإمام (٣/ ٧٨).

(٢) كل مُرتفِع: مُنْتَبِر. النهاية، لابن الأثير (٥/ ٧)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/ ٣٨٠).

(٣) سائس: أي فاسد. والنَّخِر: البالي.

انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/ ١١٩)، (٥/ ٤٠٥).

(٤) أَجَمَ الطعامَ واللَّبنَ وغيرَهما: كَرِهَه ومَلَّه مِنَ المُداومةِ عَلَيْه.

انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/ ١٠٨٨)، ولسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٧).

الوثنية، فهي تتطلب ما يسد الفراغ أو يدفع الملل، زيادة عن كونها لم تصحبها دعاية ولا إقناع)[١].

وقد بيّن رحمه الله أن سبيل الأديان إلىٰ النفوس هو الإقناع، وليس الحيلة والقوّة[٢]، وأما النصرانية فتسرّبت مع الغزو الروماني بشراسته وثقله، ولذا كان تمكنها بعد طول مدة، ويقول في ذلك: (والنصرانية دخلت هذا الوطن في ركاب الغزاة الرومانيين وفي ظل سيوفهم، بعيدًا عن روحانيتها السامية[٣]، مصطبغة بالعنجهية الرومانية والعتو الروماني، فكان مقامها واستقرارها تابعين في الطول والتمكن للاستعمار الروماني)[٤].

الحقد الصليبي علىٰ الإسلام وأهله.

ويتحدث الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن بعض صفات الصليبيين الذين دهموا المسلمين بحملاتهم، وساموهم سوء العذاب، وما زالت منهم بقايا في زماننا هذا، فيقول مبيّنا حقدهم الدفين علىٰ الإسلام وأهله: (وهم قوم غلاظ شداد يحملون في نفوسهم حقدًا علىٰ الإسلام والمسلمين طالما غذاه القساوسة والرهبان في أوروبا بمختلف أنواع التغذية المسمومة، الراجعة إلىٰ خبث الطوية، وفساد التربية، وسوء التوجيه، أولئك هم الصليبيون الذين حاربهم صلاح الدين، وتلك بعض صفاتهم، وأولئك هم الذين ما تزال بعض سماتهم ماثلة للعيان في بعض الأمم حتىٰ في أيامنا هذه)[٥].

ويبيّن رحمه الله جوانب مما لحق الإسلام وأهله من الصليبيين المستعمرين حين غزوا الجزائر، فيذكر من ذلك أنه كان استعمارًا دينيًّا مسيحيًّا عاريًا؛ وقف

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٧٨).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٨٠).

(٣) قبل التحريف الذي طرأ عليها.

(٤) آثار الإمام (٣/ ٧٨-٧٩).

(٥) آثار الإمام (٢/ ٢٩٩).

للإسلام بالمرصاد، وانتهك حرماته واغتصب أمواله وأوقافه، وعاث في معابده تحويلًا وهدمًا واحتكارًا وتحكّمًا، وضيّق عليه في شعائره وشدّد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام، وزاد علىٰ ذلك السوء احتضانه لليهودية، وتمكينها وحماية أهلها، فكانتا حربًا علىٰ الإسلام وأهله، إلىٰ غير ذلك من الفظائع والانتهاكات[1].

المسيحية والإلحاد.

وقد كانت المسيحية في الجزائر سببًا في انتشار الإلحاد -من حيث تدري أو لا تدري-، فبمعاونتها للاستعمار المحارب للإسلام والممكّن للإلحاد؛ كانت من أكبر أسبابه، وفي بيان ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (تشكو المسيحية من طغيان الإلحاد وكثرة أسبابه، ولكنها تعمل علىٰ تمكين الإلحاد وتقوية أساسه، فهي تنصر الاستعمار، وهو أبو الإلحاد وأمه، وهو فاتح أبوابه، ورابط أسبابه، وهي تحارب الإسلام، وهو الحصن الذي يتحطم الإلحاد علىٰ صخوره، ولعمري ليس في التناقض أغرب من هذا)[2].

براءة نبي الله عيسىٰ عليه السلام من المسيحية المعاصرة.

ويُنزّه الإمام الإبراهيمي رحمه الله دين نبي الله عيسىٰ عليه السلام عن أفعال المسيحية المعاصرة الباغية الظالمة، فيقول عن الاستعمار الصليبي: (فكأن من وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب، وأن لا يكسو الظهر إلا بالتجريد من الدين، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبائسين! حاشا لدين المسيح عليه السلام وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم أن يكون هذا طريقه إلىٰ النفوس، وهذه طريقته في الانتشار. إن المسيح كان عدوًّا للظلم والباطل، وإن الاستعمار أقبح باطل وأشنع ظلم علىٰ وجه الأرض، فهل يُعدّ من

---

(١) انظر: آثار الإمام (٣/ ٨٠).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٢٨).

أتباع المسيح وورثة هديه من ينصر الاستعمار؟)[1]، وكان الأولىٰ بتلك المسيحية أن توالي الإسلام وأهله إن كانت تأخذ بهدي المسيح ﷺ، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله: (لو أن المسيحية كانت تسير برشد وبصيرة، وتجري علىٰ شيء من بقايا هدي المسيح، لاتخذت من الإسلام صديقًا لا عدوًّا، وحليفًا لا منابذًا)[2].

بعض سِمات اليهودية.

وأما عن اليهودية وبعض سماتها وخصائصها، ودورها في حرب الإسلام وأهله في الجزائر؛ فيذكر رحمه الله أنها كانت تناصر الاستعمار علىٰ الإسلام بوسائل منها «التفقير»، ويذكر أن من تقاليد اليهودية أنها لا تهتم بكثرة الأتباع، لأنها دين طائفة مخصوصة، ولأنها جنسية ودين معًا، كما أن من تقاليدها استغلال كل فرصة لتحقيق مصالحها ومنافعها القومية والمادية وغيرها، دون مراعاة لموروث أو تاريخ، وإنما تقدر المصلحة بالحاضر وإن كان زائفًا أو مدخولًا[3].

العناية بإحياء دين الإسلام.

وإن الناظر فيما خطّه الإمام الإبراهيمي رحمه الله في تراثه يظهر له بوضوح تركيز الإمام علىٰ قضية الإسلام، فلا يكاد يخلو بيان له من ذكر الإسلام والدفاع عنه، وقد كرر كثيرًا أن مشروعه ومشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين متمثّلٌ في إحياء الإسلام واللغة العربية لغة الإسلام، وبذل في سبيل ذلك جهدًا ظاهرًا لكل مطالع لتراثه رحمه الله، ولا ريب أن الإسلام حقيقٌ بكل اهتمام، وأن الكتابة حوله والحديث عنه أمرٌ في غاية الأهمية ولاسيما في زمنٍ تبدّلت فيه أحوال المسلمين واختلّت فيه موازينهم، فلا يصلحهم ولا يصلح حالهم غير إقامة الإسلام علىٰ وجهه.

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٩٧).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٢٧).

(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ٨٢).

تعريف الإسلام وبيان بعض معانيه.

فمما ذكره الإمام في هذا الباب تعريفه للإسلام وبيان بعض معانيه السامية، إذ يقول عنه: (هو إسلام الوجه لله عنوانًا لإسلام القوىٰ الباطنة له، هو المعنىٰ الذي خالطت بشاشته قلب نبي التوحيد إبراهيم فقال: أسلمتُ وجهي، وتذوقته بلقيس حين هداها الله فقالت: وأسلمت، ألا وإن في الاستسلام نوعًا من المعاني لم يتخيله وضع ولا عرف، ولم يتداوله نقل ولا استعمال حتىٰ جاء محمد بالهدىٰ ودين الحق، ونقل اللغة من طور إلىٰ طور، هو استسلام الجوارح -وسلطانها القلب- لله ولعظمته وقدرته وعلمه حتىٰ توحّده وحده، وتعبده وحده، وتدعوه في النائبات وحده، وتنيب إليه وحده، وتذعن إلىٰ سلطانه وحده، وتخشاه وحده، فتستقل عن الأغيار بقدر ذلك الاستسلام إليه، وتتحرّر بقدر العبودية له، وتتوحّد قواها بقدر إفراده بالألوهية، وتعتزّ بقدر التذلّل لعظموته، وتنجح في الحياة بقدر اتباعها لسننه، وتصفو من الكدرات الحيوانية بقدر اتّصالها به، وتتزكىٰ سرائرها بقدر إيمانها به، وتبعد عن الشرور والآثام بقدر قربها منه، ثم تسود الكائنات بأمره، وتخضع الكون لسلطانها بسلطانه، وتكشف أسرار الوجود بصدق التأمّل في آياته والتفكر في بدائع ملكوته)[1].

وتعريف الإمام الإبراهيمي رحمه الله للإسلام مقاربٌ لتعريفات العلماء ممن سبقه أو لحقه، قال قتادة رحمه الله: (والإسلام: شهادة أنّ لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيرَه ولا يجزىٰ إلا به)[2]، وقد عرَّف الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله الإسلام بأنه: (الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله)[3].

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٦٩).

(٢) جامع البيان، للطبري (٦/ ٢٧٥).

(٣) الدرر السنية في الكتب النجدية (١/ ١١٧).

مزايا ومحاسن دين الإسلام.

ويقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن دين الإسلام لا يختصّ بجنس، فهو صالح لكل جنس، وأنه موافق لكل فطرة وملائم لكل نفس، وأنه وحّد الأمم المختلفة فصبغها بصبغة الإسلام، لأنه دين فطري روحي، يصل إلىٰ نهاية الكمال الإنساني، ولأن أصوله بُنيت علىٰ حكمة من خالق الحكمة، ففي عقائده غذاء العقل وفي عباداته تزكية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع، فهو يغرس أصول الفضائل الإنسانية في الأرواح، ويكسر حدّة الحيوانية ويفلّ شراستها، ويزيل الحواجز والفروق بين المستضعفين والمستكبرين، وأنه يجمع بين مطالب الروح والجسم.

وأن شريعة الإسلام بتوفيقها بين مطالب الروح والجسم كانت أكمل الشرائع، وكانت ناسخة لجميع الشرائع وادعاها للقبول والإلف، وأنه سبق لدين الإسلام في بعض فصوله أن كان سبب تقدّم وعمران فائقين لا مثيل لهما، وأنه كان سببًا في الصلاح فمن مقاصده إسعاد البشر، وأنه حرّر العقل من قيوده وشرع المساواة في حقوق الحياة[١].

كما يقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن دين الإسلام قد جاء بالحضارة والمدنية المبنية علىٰ حكم الله وآداب النبوّة، فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها والتشريع الإلهي العادل سياجها واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها، وبذلك كله أصبحت مهيمنة علىٰ المدنيات كلها[٢].

وأن من أكبر الدلائل وأصدق البراهين علىٰ أن دين الإسلام حق؛ بقاؤه مع الغارات الشعواء من الخارج والعوامل المخربة من الداخل[٣].

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٧٥).

(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ٨٢).

وقد أقام الإسلام الحجة علىٰ الأديان وأهلها بعدله وتسامحه وفضائله، وعقائده المبنية علىٰ توحيد الوجهة، وعباداته المثمرة لتزكية النفس، وأحكامه الكافلة للمصلحة، وبمسايرته للفطرة وصلاحيته لجميع الأزمنة والأمكنة، فذلك شيء يشهد به أعداؤه حين تتغلب عقولهم علىٰ أهوائهم[1].

ويبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من مفاخر التشريع الإسلامي المستند علىٰ الوحي الإلهي، الذي تميّز به دين الإسلام عن سائر الأديان؛ اعتناؤه بأحكام الأسرة وما يتفرّع عنها، إذ بنىٰ أصولها علىٰ الفطرة، وبصلاح الأسرة تصلح الأمة، فعناية الإسلام بأبوابها أكبر برهان علىٰ عنايته بإصلاح الأمّة وإسعادها[2].

وقد بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فضل الإسلام علىٰ سائر الأديان وتميّزه عليها بعدّة مزايا، فيقول: (أما الإسلام فهو أوثقها اتصالًا بالأصول السماوية، وأوسعها امتدادًا مع التاريخ، وأبقاها أثرًا في صحائفه، وأعمقها تأثيرًا في نفوس معتنقيه لملاءمة روحه روحهم، ولمناسبة الفطرة فيه وفيهم، ولأن تأثرهم به كان عن اقتناع لا عن إكراه، ولأن الجانب الإنساني الاجتماعي هو أرحب الجوانب فيه)[3].

ويقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن دين الإسلام أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني، فقد ساس الأرض بقانون السماء، ونقل الأمم التي دانت به من الفوضىٰ إلىٰ النظام، ومن التنابذ إلىٰ التآخي، ومن الخوف إلىٰ الأمن، ومن الاضطراب إلىٰ الاستقرار[4].

وأن الإسلام عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وكل هذه الأجزاء ترمي لإصلاح نفس الفرد الذي هو أصل لإصلاح المجتمع[5].

---

(١) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٢٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٧٨).

(٤) انظر: آثار الإمام (٤/ ٦٥).

(٥) انظر: آثار الإمام (٤/ ٦٨).

وأن الإسلام لو فهم علىٰ حقيقته، وطبّق علىٰ وجهه الذي جاء به من عند الله محمد بن عبد الله لكان هو الدواء للأمم والحكم في معترك الخلاف، والجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم[١].

آية الإسلام في قوّة رسوخه في القلوب.

ويبيّن الإبراهيمي ﷺ جانبًا من أقوىٰ الدلائل علىٰ الدين الحق دين الإسلام؛ وهو ما يُلاحظ من شدة تمكّنه في نفوس أتباعه وعدم تزحزحه، فيقول في ذلك: (إني لو شئت أن آتي ببدع من الرأي في معرض الاستدلال علىٰ حقيقة هذا الدين لقلت: إن ما عمّ المسلمين من تنكّب عن هداية دينهم، وهو في عمومه من الأدلة علىٰ حقيقة دين الإسلام، وأنه الدين لا دين غيره، فاعجب لدينٍ ينتزع الشواهد علىٰ صحّته من حالتي الإقبال والإدبار، واعجب لدين يَسِم طِباع بَنِيه بِسِمَة التوحيد في حالتي الوفاء والجفاء، واعجب لدينٍ تَغْفَلُ القلوب عن وعي حقائقه، وتكسل الجوارح عن أداء وظائفه، وتتجرّد النفوس عن حلاه، وهي مع ذلك كله علىٰ أشدّ ما عرفت من العصبية والتشيعّ له والاعتزاز بالنسبة إليه، وإنّ ههنا لَسِرًّا لم أتبيّنه فلم أحسن التعبير عليه)[٢].

علاقة دين الإسلام بسائر الأديان.

ثم يبيّن علاقة الإسلام وتعامله مع غيره من الأديان، والذي اتّسم -أي التعامل- بالعدل ومجانبة الظلم، فيقول: (فالإسلام في إبان قوته وعنفوان فورته، تعرف إلىٰ الدينين [اليهودي والمسيحي] بالخير والحق والعدل والإحسان، وأبقىٰ علىٰ الدماء والعقائد والمعابد، بل حماها وحافظ عليها أكثر من محافظة الدول المسيحية، ولما جاز البحر إلىٰ الأندلس لينشر الهداية والنور ووجدهما

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٧٨).

(٢) آثار الإمام (١/ ١١٢).

هناك يضطهد أقواهما أضعفهما، رفع الضَّيْم عن المَضِيم[١] وسوّىٰ بينهما في عدله وعاملهما بتلك المعاملة نفسها، ولم يشهد التاريخ أنه أكره يهوديًّا أو مسيحيًّا علىٰ الإسلام)[٢]، فـ (الإسلام لا يرىٰ الكتابيَّ إلّا ذميًّا له كل ما للمسلم من حقوق، وليس عليه كل ما علىٰ المسلم من واجبات، أو معاهدًا يوفىٰ له بعهده، أو مستأمنًا يبلغ به مأمنه، أو محاربًا ينبذ إليه علىٰ سواء، بلا ظلم في الأولىٰ، ولا نقض في الثانية، ولا نكث في الثالثة، ولا غدر في الرابعة. هذه هي معاملة الإسلام للدينين حيثما جمعتهم أرض، يوم كانت له السيادة والسلطان)[٣].

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن دين الإسلام قد جعل للأديان السماوية وأهلها اعتبارًا خاصّا في أمور كثيرة، رغم هيمنته عليها ونسخه لها، فيقول: (الإسلام -مع نسخه للأديان، ومع اعتباره أن البشرية لا يصلحها إلا دين واحد- خصّ السماوية منها بالاعتبار، وخصّ أهلها بأحكام تقرّبهم من المسلم، وسماهم أهل الكتاب، تنويهًا بالعلم وإرشادًا إليه)[٤].

هيمنة دين الإسلام علىٰ سائر الأديان.

ويقرر أن دين الإسلام قد هيمن علىٰ جميع الأديان والنحل الباطلة، ومزّق بنوره وبرهانه الضلالات التي كانت مغطّية علىٰ العقول حتىٰ استقرّ في قراره من النفوس والأقطار، وأصبح برهانه لائحًا وبيّناته واضحة وقوّته غالبة[٥]، فالإسلام دين سماوي عام كامل، وهو دين التحرير العام[٦].

---

(١) الضَّيْمُ: الظُّلْمُ والقهر والاضطهاد، والمَضِيم: المظلوم.
انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٣٥٩)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/ ٣٨٣).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٧٩).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٧٩-٨٠).

(٤) آثار الإمام (٣/ ١٢٧).

(٥) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٨٤).

(٦) انظر: آثار الإمام (٤/ ٣٥٧).

مقاومة مدّ التنصير (التبشير).

ومن جهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله وجمعيته المباركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير عقيدة الإسلام لدىٰ المجتمع الجزائري وتدعيم رواسيها؛ منابذة التنصير المسيحي الذي دهمهم وأجلب عليهم بخيله ورجله.

فيبيّن رحمه الله حقيقة (التبشير) وبعض وسائله وما يحتف بذلك من تجلية أمره وواقعه، فيذكر أنه نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح، وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي، دفعته أولًا ليكون قائدها إلىٰ الاستعمار، وأمدته بالمعونة والحماية، حتىٰ أصبحت جميع الأوطان أوطانه، وهذا التبشير المسيحي يرىٰ أن أعدىٰ عدو له المصلحون المسلمون لأنهم يدعون إلىٰ الإسلام النقي، والإسلام النقي لا مطمع للتبشير في طرق حماه، وأما جمعياته فهي قوية يمدها الأغنياء من المسيحيين بالملايين من المال، ويمدها رجال الكهنوت ونساؤه بالأعمال، وتمدها الحكومات (اللادينية) بالمعونة والتأييد، وهي تراعي في اختيار المراكز نفسية السكان وحالة المعيشة[1].

ويذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله توافر الأسباب التي تدعم تمكين التنصير في الجزائر أكثر من غيرها، كتقادم عهده، وصولة الاستعمار الذي يحميه، وفشوّ الجهل والأمية والفقر في الأمة التي هي فريسة التنصير، وانتشار الطرقية التي هي كافلة التنصير والممهدة له حسًا ومعنىٰ، وقعود علماء الدين عن مقاومته ومعارضته، ولكن مع ذلك كله لم يلق التنصير النجاح الذي يتناسب مع الجهود المبذولة فيه، والسبب الأكبر في ذلك هو تصلب الجزائري في دينه مهما بلغت به العامية والأمية والفقر[2].

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ١٩٦-١٩٧).

ويبيّن رحمه الله أن الاستعمار قد تمالأ مع المسيحية في الجزائر لنشر التنصير في المجتمع المسلم، وكان من الوسائل التي اتخذها أنه (هو الذي أجاع وأعرىٰ، وهو الذي أفقر وأمرض، وهو الذي مكن للجهل والجمود؛ كل ذلك عن عمد وقصد، وكل ذلك ليذل، ويقل، ويهيئ للمبشرين وسائل التنصير)[1]، كما تمالأت الحكومة الجزائرية آنذاك علىٰ تسهيل أمر التنصير، ومن ذلك أنها أوكلت للمُنَصِّرين في الكثير من مراكزهم توزيع المؤن المخصصة علىٰ المسلمين لتحببهم إلىٰ الناس ولتيسر لهم سبل الاختلاط بهم وتبادل الأحاديث ومن ثم تتسرب الدعاية التنصيرية بينهما، وقد غدا توزيع التموين حينذاك سلطة عليا وجاذبًا من أعظم الجواذب[2].

وقد قامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بجهود ضخمة لمواجهة تيّار التنصير والحدّ منه، فقامت بتقوية المعاني الدينية في النفوس، كالقيام بحق الله في البائس الفقير والرحمة باليتيم، والبر بالمساكين، وشرحت للأمة المنافذ التي يتسلّل منها المنصِّرون، حتىٰ تكالب المنَصِّرون واستعدوا الحكومة علىٰ جمعية العلماء عندما أحسوا بخطرهم عليهم، ومما اجتهدت فيه الجمعية وجَدَّتْ لحرب التنصير العمل علىٰ فتح المدارس الإسلامية في أهم النقاط التي يتمركز فيها التنصير[3]، وقد أثمرت هذه الجهود -بفضل الله- خيرًا، وخففت من تلك الهجمات التنصيرية، وفي ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (ونحمد الله علىٰ أننا خفّفنا من شرور هذه الفتنة، وعلىٰ أن في الجسم الجزائري مناعة تدفع عنه غوائل هذا البلاء، والمبشّرون أنفسهم يشهدون أنهم لم تستنزل رقاهم إلا واحدًا أو اثنين في الآلاف من جرائمهم، وأن جمعية العلماء هي أقوىٰ خصم لهم في هذا الباب)[4]، مع أنه لم تتوفر لدىٰ الجمعية الوسائل الكافية لتنظيم مقاومة

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٨١)، وانظر: آثار الإمام (٤/ ١٦٩).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ٨١).

(٣) انظر: آثار الإمام (٤/ ١٦٩).

(٤) آثار الإمام (٤/ ١٦٩).

منتجة، وأهمها المال وهو السلاح الماضي الفتاك في هذا الميدان[1].

وبعد استعراض تقريرات الإمام الإبراهيمي رحمه الله حول الأديان السماوية وفضل دين الإسلام؛ يمكن أن نجمل ما قرره في النقاط التالية:

- أن للأديان السماوية في أصلها الصحيح أسبابًا واصلة إلىٰ الله، وأن أساسها جميعا التوحيد، وكتبها في الأصل وحي إلهي.

- أن التفاضل بين الأديان يكمن في التوفيق بين مطالب الروح والجسد، وهو الذي ميّز دين الإسلام عن غيره من الأديان.

- أن مما تتفق فيه الأديان السماوية وكتبها مقصد جمع الناس علىٰ الحق والهدىٰ، ومعنىٰ المعروف والمنكر.

- أن كتب اليهود والنصارىٰ ضاعت بين التحريف والتبديل والنسيان والتأويل.

- أن الصراع قائم بين الإسلام وبين المسيحية واليهودية.

- أن اليهودية والنصرانية بعيدتان عن الفطرة.

- أن اليهودية تتسلّل إلىٰ النفوس الفارغة، وأن النصرانية تسرّبت مع الغزو الروماني.

- أن سبيل الأديان إلىٰ النفوس هو الإقناع، وليس الحيلة والقوّة.

- أن الصليبيين متصفون بصفات قبيحة، من أبرزها حقدهم الدفين علىٰ الإسلام وأهله.

- أن المسيحية في الجزائر كانت سببًا في انتشار الإلحاد بمعاونتها للاستعمار.

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٩٧).

- براءة دين نبي الله عيسىٰ عليه السلام من أفعال المسيحية المعاصرة الباغية الظالمة.

- أن اليهودية لها دور في حرب الإسلام وأهله في الجزائر بمناصرة الاستعمار.

- أن اليهودية لا تتهتم بكثرة الأتباع لأنها دين طائفة مخصوصة.

- أن اليهودية تستغل كل فرصة لتحقيق مصالحها ومنافعها القومية والمادية وغيرها.

- الإسلام هو «إسلام الوجه لله عنوانًا لإسلام القوىٰ الباطنة له، واستسلام الجوارح -وسلطانها القلب- لله».

- الإسلام دين روحي فطري صالح لكل جنس، وموافق لكل فطرة، وملائم لكل نفس.

- دين الإسلام وحّد الأمم المختلفة فصبغها بصبغة الإسلام.

- شريعة الإسلام أكمل الشرائع وهي ناسخة لما سواها لتوفيقها بين مطالب الروح والجسم.

- دين الإسلام سهل الدخول للنفوس وسريع القبول.

- أن دين الإسلام قد هيمن علىٰ جميع الأديان والنحل الباطلة وأقام الحجة عليها بعدله وتسامحه وفضائله.

- أن من أعظم الدلائل والبراهين علىٰ أن دين الإسلام حق؛ بقاؤه مع شدة معاداته.

- أن من مفاخر التشريع الإسلامي المستند علىٰ الوحي الإلهي؛ اعتناؤه بأحكام الأسرة.

- فضل الإسلام علىٰ سائر الأديان وتميّزه عليها بوثوق أصوله السماوية وسعة امتداده وتأثيره.

- علاقة الإسلام وتعامله مع غيره من الأديان مبني علىٰ أصل العدل ومجانبة الظلم.

- أن دين الإسلام قد جعل للأديان السماوية وأهلها اعتبارًا خاصّا بأحكام تقرّبهم من المسلم، وسماهم أهل الكتاب.

- أن دين الإسلام أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني.

- أن عقائد الإسلام وعباداته وأحكامه وآدابه، تهدف إلىٰ إصلاح نفس الفرد ليصلح المجتمع.

- من آيات دين الإسلام قوّة رسوخه في القلوب.

خامسًا: الإلحاد .. أسباب حلوله ووسائل دفعه

الإلحاد في اللغة الميل عن القصد[1]، وفي الاصطلاح يمكن تعريفه بأنه «عدم الإيمان بوجود الله»[2]، وللإلحاد أنواع متعددة وأوصاف مختلفة، والذي يظهر أن الإلحاد الذي تطرّق له الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ هو إنكار وجود الله تعالىٰ والكفر بجميع الأديان، وهي موجة اكتسحت العالم منذ سنوات عديدة، وكان لعصر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ نصيب منها، فمن خلال كلامه يتبيّن أن نشأة الإلحاد في القطر الجزائري كانت مواكبةً لدخول الاستعمار الفرنسي والذي بدأ في عام ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م[3]، وقد اقترن الإلحاد في العهد القريب بالشيوعية، ففي الوقت الذي تمددت فيه الشيوعية تمدد الإلحاد والعكس بالعكس[4]، وقد كان من الوسائل الخبيثة الأساسية التي اعتمدها الاستعمار في الجزائر لهدم الإسلام نشر الإلحاد في أوساط الشباب المسلم، بواسطة

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٣٨٩).

(٢) انظر: ظاهرة نقد الدين، للعميري (١/ ١٨٣).

(٣) انظر: المقاومة الجزائرية، للعسلي (٧).

(٤) الشيوعية مذهب إلحادي يقوم علىٰ إنكار وجود الله، وتكذيب الأنبياء كافة، والكفر بجميع الأديان، وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا علىٰ يد ماركس وإنجلز.
انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (٢/ ٩١٩).

المدارس وغيرها، مما كان سيؤدي إلىٰ انتشار الشيوعية بشكل مريع[1].

وقد صدع الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بالحق في أبواب كثيرة، وسعىٰ في إرساء قواعد الإسلام الصحيح بكل ما أوتي من قوة، وكان مما ناله حظٌّ من جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ مواجهة الإلحاد والتصدي لعاديته، وبيان طرائق دخوله لبلاده وأسباب ذلك، وتجلية أمره وإبطال دعوته، ولا شك أن مواجهة الإلحاد من أهم المهمات في سبيل تقرير العقيدة السليمة ودفع الأباطيل والانحرافات التي عصفت بالمسلمين.

بيان أسباب حلول الإلحاد في القطر الجزائري

قبل الولوج في جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان أسباب حلول الإلحاد؛ نسلط الضوء علىٰ جزء من الحالة التي كان عليها أهل الجزائر مع موجة الإلحاد التي اجتاحت البلاد ومدىٰ تأثّرهم بها، يتحدث الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك فيقول: (من فضل الله علىٰ الجزائر أن الإلحاد لم يتسرب إلىٰ عقول أبنائها المتعلمين إلّا بنسبة ضئيلة، والسر في ذلك يرجع من جهة إلىٰ تصلب الجزائري في دينه وإن كان جاهلًا به)[2]، فلم يكن للإلحاد مستقر في نفوس المتعلمين إلا قليلا.

وأما عن الأسباب التي أدّت إلىٰ حلول الإلحاد في القطر الجزائري؛ فمنها:

١. الثقافة الأوروبية التي راجت عن طريق التعليم الحكومي البعيد كل البعد عن الدين، فيقول الإمام عن ذلك: (الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية من طريق التعليم اللاديني أو من طريق التقليد الأعمىٰ)[3]، فيظهر من ذلك أن التشبّه بالكافر قد يوصل صاحبه إلىٰ أحط

---

(١) الجزائر الثائرة، للورتلاني (١٣٧).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٩٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩٤).

المنازل، وقد نهينا عن التشبه بالكفار وأمرنا بمخالفتهم في أحوال كثيرة، ومن أدلة ذلك حديث النبي ﷺ: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**»(١) وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بالكفار كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢).

ويحكي الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن الأستاذ محمد بن مرزوق -أحد دعاة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- قائلًا: (سمعتُ من فيه رحمه الله أن التعاليم المدرسية الحكومية أثّرت في نفسه تأثيرًا سيئًا كانت نتيجته الإلحاد، ولكن هذه الغمرة انجلت عنه سريعًا، وتلتها غمرة تألم مطبقة، ولما لم يجد أمامه مظهرًا إلا النحلة الدرقاوية(٣) انتحلها وغرق فيها إلىٰ الأذنين، ولكنه أدرك بفكرته السليمة فسادها ومُنافاتها لدين الحق، فانتشل نفسه من تلك الوهدة، وبقي يرقب فجر الهدىٰ حتىٰ انبلج فجر نوره بظهور الحركة الإصلاحية علىٰ يد جمعية العلماء، فكان الرجوع إلىٰ مبادئها خاتمة المطاف لنفسه التواقة إلىٰ الحق)(٤).

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رحمه الله كون الإلحاد قد جاء إلىٰ ديار المسلمين في الجزائر مع موجات الغرب فيقول: (وفي وطنكم موجة من الإلحاد، جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار)(٥)، ويؤكد ذلك في موضع آخر فيقول: (دخل داء النزعات الإلحادية إلىٰ الجزائر في

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم: (٤٠٣١).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١/ ٢٧٠).

(٣) الدرقاوية: طريقة صوفية في غرب الجزائر، تنسب إلىٰ الشيخ محمد العربي الدرقاوي، انجذب نحوها علماء الجزائر وأصبحوا من مريديها في ذلك العهد (١٢٢٠هـ)، وهي متفرعة عن الشاذلية، كان لأتباعها سبح وخرق وأوراد وحلقات ذكر وطرق للاجتماع والانتخاب ونحو ذلك. تقشف أتباعها ومنعوا اللباس الفاخر والتزين، ولبسوا الرث من الثياب وابتعدوا عن أمور الدنيا. وكانوا يجتمعون في المناطق النائية والصعبة، من زعمائهم عبدالقادر الشريف، وابن الأحرش المغربي وغيرهم.

انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، لسعد الله (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ٣٨٥).

(٥) آثار الإمام (٣/ ٢٧١).

ركاب الاستعمار، يتمشّىٰ مع الحضارة الغربية ويتفشّىٰ في علومها وآدابها، وأمدّه الاستعمار بالقوّة، ليغالب به العقائد الثابتة وليضلّ به المهتدين، أو يحول به بين الضالين وبين الهداية)[١]، بل قد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن نزعة الإلحاد هي أسوأ ما أدخله الغرب إلىٰ قطر الجزائر، فيقول: (نزعة الإلحاد التي هي شر ما نسلت الحضارة الغربية، ومن آثارها قطع الصلة بيننا وبين الشرق وروحانيته)[٢].

ويقسّم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أحوال المتعلمين إلىٰ ثلاثة أقسام، ويبين في أحدها ما للتعليم الأوروبي من أثر في حرف أبناء المسلمين إلىٰ الإلحاد، فيقول: (ويح المسلمين! يولد مولودهم، فإما أن يهمل ولا يعلم -وهذا هو الأكثر- فيستقبل الحياة بلا دين ولا دنيا، وإما أن يعلم هذا التعليم الشائع فيجمد وتخمد فيه جذوة الإسلام، وإما أن يسلك به المسلك الثالث وهو التعليم الأوروبي أو المطبوع بالطابع الأوربي فيلحد ويحتقر آباءه وأمّته ودينه ولغته ووطنه، فمن للمسلمين؟)[٣].

٢. المفارقة التي يجدها التلميذ بين ما يتلقاه في تلك المدارس وبين ما تربىٰ عليه، فيُرجِع الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ سبب تأثير التعليم الأوروبي في دخول الإلحاد علىٰ الناشئة إلىٰ المفارقة التي يجدها التلميذ بين ما يتلقاه في تلك المدارس وبين ما تربىٰ عليه مما يحدث له ربكة تؤول به إلىٰ الإلحاد، فيقول: (ذلك أن الناشئ الذي يتلقىٰ التعليم في هذه المدارس اللائكية[٤] يحس من أول أيامه في التعليم بمنافرة ما يتعلمه في المدارس من حقائق الكون مثلًا لما تعوّد سماعه من أهليه، ثم يزداد ما يسمعه في المدارس رسوخًا في نفسه بما يقام عليه من الدلائل فيزداد علىٰ قدر ذلك نفورًا من كل ما يسمعه من أهليه، ثم ينقلب

---

(١) آثار الإمام (٤/ ١٧٠).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٢٣٢).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٧-٢٨).

(٤) اللائكية: عرّفها في موضع آخر بأنها تعني وضع سور بين الحكومات وبين الأديان، وتقوية السلطة المادية وتوهين السلطة الروحية. انظر: آثار الإمام (٣/ ١٠٣).

ذلك النفور منهم ومما يسمعه منهم احتقارًا لهم وله، ولكل ما يلابسهم من عوائد وأزياء حتىٰ ينتهي به الأمر إلىٰ الدين إذ يجد أبويه وأقاربه لا يعرفون منه إلّا قشورًا ممزوجة بالخرافات، ثم هم لم ينشئوه علىٰ احترام الدين ولم يشربوه حبه من الصغر ولم يروضوه علىٰ إقامة شعائره، فإذا تمادت به مراحل التعليم وهو علىٰ هذه الحالة، شَبَّ علىٰ الوحشة من قومه ولغته ودينه ومَلَكَ الإلحاد عليه أمره إلّا من رحم ربك)[١].

٣. غفلة الآباء والأولياء عن جوانب الضعف في أبنائهم فينحرفون إلىٰ الإلحاد، ويوضح لنا الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ ذلك فيقول: (الإلحاد ضيف ثقيل حل بهذا القطر منذ انتشرت بين أبنائه الثقافة الأوروبية من طريق التعليم اللاديني أو من طريق التقليد الأعمىٰ، وغذته غفلة الآباء والأولياء عن هذه الناحية الضعيفة من أبنائهم)[٢]، ويواصل حديثه عن الإلحاد وغفلة الآباء عن الأبناء بقوله: (وهذه عاقبة طبيعية للإهمال المتفشي في مثل الأوساط الجزائرية، فإن كثيرًا من الآباء يطلقون لأبنائهم الحبل علىٰ الغارب ولا يحوطونهم بالرعاية اللازمة لحماية دينهم وأخلاقهم وقوميتهم، بل يكلونهم إلىٰ عادات فاسدة ومؤثرات ضعيفة لا تقوىٰ علىٰ مقاومة ما يجدّ علىٰ مشاعرهم ويغزو عقولهم كل يوم من مؤثرات قوية جذابة مسلحة بالدليل)[٣].

٤. سوء تربية النشء بالبعد عن تحبيب الدين إليهم وعدم تعويدهم علىٰ القيام به، فيعدّه الإمام سببًا في إلحاد الأبناء، ويقول في سياق حديثه عن الإلحاد وتقصير الآباء والأولياء: (ثم هم لم ينشئوه علىٰ احترام الدين ولم يشربوه حبه من الصغر ولم يروضوه علىٰ إقامة شعائره، فإذا تمادت به مراحل التعليم وهو علىٰ

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٩٤).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

هذه الحالة، شب علىٰ الوحشة من قومه ولغته ودينه وملك الإلحاد عليه أمره إلّا من رحم ربك)[1].

٥. الجهل بحقائق دين الإسلام وضعف الصلة بالله، والتهاون في إقامة الشعائر والاستخفاف بأحكام الدين، يقول الإمام عن ذلك السبب: (وفي وطنكم موجة من الإلحاد، جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكّن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومهّد لها في نفوس هذا الجيل جهله بحقائق الإسلام، وضعف صلته بالله، وإنّ تساهلكم في إقامة شعائر الدين، أو استخفافكم بأحكامه، معين علىٰ تفشي الإلحاد في الجيل الجديد الذي تقومون علىٰ تربيته، فاحذروا الظهور بمظهر المستخف بالدين، ولو في فلتات اللسان، فإن لكل فلتة ولكل كلمة تصدر منكم أثرًا في نفوس تلاميذكم؛ لأنكم محل القدوة عندهم)[2].

٦. البدع والخرافات، فقد كان لها دورٌ في حرف فئام من الناس إلىٰ الإلحاد، فيقول رحمه الله في بيان ذلك: (وما دام أبناؤنا يأوون إلىٰ بيوت قواعدها الجهل والخرافات، وقعائدها الجاهلات الخرافيات، فنحن بين حالين لا ندري أيهما شر؟ الأمّيّة ومعها التخريف، أو القراءة ومعها الإلحاد. وإنك لا تبعد إذا قلت إن لفشوّ الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة أثرًا كبيرًا في فشو الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلمًا أوروبيًا، الجاهلين بحقائق دينهم)[3]، ويقول في موضع آخر مبينًا أثر البدع والضلالات في التمهيد لقبول الإلحاد: (إن شيوع ضلالات العقائد وبدع العبادات والخلاف في الدين هو الذي جرّ علىٰ المسلمين هذا التحلّل من الدين، وهذا البعد عن أصليه الأصليين، وهو الذي جرّدهم من مزاياه وأخلاقه حتىٰ وصلوا إلىٰ ما نراه، وتلك الخلال من إقرار البدع والضلالات هي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٣/ ٢٧١).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩٥).

التي مهّدت السبيل لدخول الإلحاد علىٰ النفوس، وهيّأت النفوس لقبول الإلحاد)[1].

وكيف كانت البدع ممهدة للنفوس لقبول الإلحاد؟ يوضح الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك فيقول: (لأنهم يحملون من الصِّغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقًا وعدلًا، وأنكروا معها الدين ظلمًا وجهلًا. وهذه إحدىٰ جنايات الطرقية علىٰ الدين. أرأيت أن القضاء علىٰ الطرقية قضاء علىٰ الإلحاد في بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه؟)[2]، ويقول أيضًا: (ومحال أن ينفذ الإلحاد إلىٰ النفوس المؤمنة، فإن الإيمان حصن حصين للنفوس التي تحمله، ولكن الضلالات والبدع ترمي الجد بالهوينا، وترمي الحصانة بالوهن، وترمي الحقيقة بالوهم، فإذا هذه النفوس كالثغور المفتوحة لكل مهاجم)[3]، فمن هنا كانت البدع والضلالات بما تتركه من وهن وهشاشة سببًا لولوج الإلحاد إلىٰ الأنفس الضعيفة.

٧. بُعد بعض العلماء عن الشباب مما أوقع النفور بينهم، فأدّىٰ ببعضهم إلىٰ الإلحاد، ويوضح الإمام ذلك فيقول: (وإن من الأسباب التي مكنت للإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين مجانبة علماء الدين الجامدين لهم ونفورهم منهم، وهي عادة ما يزال يتّسم بها هذا الصنف من العلماء إلىٰ الآن، وبهذه العادة السيئة كادوا يضيعون علىٰ الأمة طائفة من أبنائها هم ذخرها للمستقبل وعدّتها للشدة)[4].

٨. وجود بعض المذاهب الفكرية المُفْضِيَة إلىٰ الإلحاد، فيقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا حلول ذلك في ظل غفلة المسلمين: (هاجت عليهم دعايات

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٩٥).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٩٥).

الأديان الأخرىٰ وما تفرّع عنها من مذاهب مادية تغري بالمادة وتؤلّهها، ومن مذاهب فكرية تغري الفكر المسلم بالمروق من الدين وخلع ربقته ثم تشعّبت هذه المذاهب الفكرية إلىٰ شعبتين: واحدة تسعىٰ سعيها وتبذل وسائلها لفتنة المسلم عن دينه وإدخاله في دين آخر . . . والأخرىٰ تريد المسلم أن يخرج من الإسلام إلىٰ الإلحاد المحض الذي يكفر بالأديان كلها، وهذه الشعبة تجعل هدفها شباب المسلمين لما يصحب الشباب من قوّة الإحساس وسرعة التأثّر وتأجّج العاطفة والميل إلىٰ الانطلاق)[1].

ويواصل رحمه الله حديثه عن أثر هذه المذاهب المتفرعة عن الأديان الأخرىٰ، وما تصبو إليه من غايات هدّامة لتستولي علىٰ الأمة المسلمة وخيراتها: (والشعبتان معًا تلتقيان عند غاية واحدة هي فصل المسلمين وهم قوة في العدد عن دينهم وهو مناط قوّتهم الروحية ليتم للقائمين علىٰ الشعبتين استعباد أبدان المسلمين واستغلال خيرات أوطانهم)[2].

٩. الاستعمار، فقد كان له دور كبير في تمكين الإلحاد وترويجه، ويبين الإمام الإبراهيمي رحمه الله هذه الحقيقة بجلاء، فيذكر أن الإلحاد دخل إلىٰ الجزائر بواسطة الاستعمار، وأنه كان مددا له في سبيل تقويته، فيقول: (دخل داء النزعات الإلحادية إلىٰ الجزائر في ركاب الاستعمار، يتمشّىٰ مع الحضارة الغربية ويتفشّىٰ في علومها وآدابها، وأمدّه الاستعمار بالقوّة، ليغالب به العقائد الثابتة وليضلّ به المهتدين، أو يحول به بين الضالين وبين الهداية)[3]، كما يذكر رحمه الله أن الإلحاد نزعة خبيثة من غرس يد الاستعمار، فيقول: (في وقت أجلب فيه الاستعمار بخيله ورجله علىٰ هذه الثلاثة، ينتقّصها ليزهد فيها، وينقصها ليبيدها. تمالئه علىٰ ذلك نزعتان خبيثتان، كلاهما من غرس يده: نزعة الإلحاد التي هي

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٨٤).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٢٨٥).

(٣) آثار الإمام (٤/ ١٧٠).

شر ما نسلت الحضارة الغربية، ومن آثارها قطع الصلة بيننا وبين الشرق وروحانيته، ونزعة أخرىٰ . . .)[1].

بل يبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن الاستعمار حرب علىٰ الإيمان بالإلحاد، فيقول: (والاستعمارُ سَلٌّ[2] يحارب أسبابَ المناعة في الجسم الصحيح؛ وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه علىٰ نسْخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمانَ بالإلحاد)[3].

ويؤكد رَحِمَهُ اللَّهُ أن لوثة الإلحاد من غايات الاستعمار المقصودة، فيقول: (وفي وطنكم موجة من الإلحاد، جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار)[4].

ويكشف الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بعض وسائل الاستعمار وخطواته ومساعيه في حرب الإسلام وتمكين الإلحاد محاربةً للحق بالباطل، فيقول: (خبّ الاستعمار وأولع في هذا المضمار وجمع علىٰ حرب الإسلام كل ضال من أبنائه وكل دجّال وكل مبتدع وكل متّجر بالدين، يشجعهم ويرعاهم ويكرّمهم ليحاربوا الدين الحق بالدين الباطل، وظاهرهم بجيش آخر من المبشّرين يحميهم ويمهّد لهم الطريق، وبجيش آخر من الملاحدة الذين أنشأتهم مدارسه علىٰ درجات تبدأ بالزهد في الإسلام ثم بالتنكّر له والازدراء، ثم بالمروق منه)[5].

ويظهر مما سبق رصد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ لأسباب انتشار الإلحاد في القطر الجزائري، وتحليله لبعض جوانب تلك الموجة التي أغوت بعض شباب المسلمين، وفيما يلي ذكرٌ لبعض جهود الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في مواجهة الإلحاد وتقرير ما يضاده.

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٢٣٢).

(٢) السُّلُّ: داءٌ يأخُذ الإنسانَ ويقتُل.

انظر: العين، للفراهيدي (٧/ ١٩٢)، وتهذيب اللغة، للأزهري (١٢/ ٢٠٦).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٤٧).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٢٧١).

(٥) آثار الإمام (٥/ ٧٥).

بيان الوسائل والجهود في مواجهة الإلحاد

١. الاعتصام بكتاب الله.

يقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن كتاب الله جل وعلا يعصم الأمة من الوقوع في شراك الإلحاد، فيقول: (وضعنا الديني في هذا الوطن وضع شاذ غريب، كوضعنا السياسي أو أشدّ شذوذًا وغرابة، بل ما كان وضعنا الديني غريبًا إلا لأن وضعنا السياسي غريب، ولو كنا نملك الحقوق السياسية كبني آدم لاستتبع ذلك الحقوق الدينية، لأننا أمّة مسلمة ما زال لنا من قرآننا عاصم من الإلحاد، ومن ميراثنا الجنسي معاذ من الزيغ، ومن فطرتنا الشرقية واق من هذا التحلل الذي أصيبت به الأمم)[1]، ولا شك أن كتاب الله نور وهدىٰ وعصمة، قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

٢. التحصّن بالإيمان.

ويقرر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإيمان أقوىٰ الحصون التي تصد عادية الإلحاد في نفس العبد، وأن البدع والضلالات توهن ذلك الحصن وتضعفه، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومحال أن ينفذ الإلحاد إلىٰ النفوس المؤمنة، فإن الإيمان حصن حصين للنفوس التي تحمله، ولكن الضلالات والبدع ترمي الجد بالهوينا، وترمي الحصانة بالوهن، وترمي الحقيقة بالوهم، فإذا هذه النفوس كالثغور المفتوحة لكل مهاجم)[2].

٣. نشر تعاليم الدين وبيان موافقته للعقل.

ويبين الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مواجهة الإلحاد والتصدي له ومغالبته بنشر تعاليم الدين، وبيانهم لموافقة الدين للعقل والواقع، بما يدرء الشبهات والشكوك الجارفة للإلحاد، وتوجيههم للآباء

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٢٨٥).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

ليرعوا أبناءهم ويكونوا خير قدوات صالحة لهم، فيقول في ذلك: (وقد كان لجمعية العلماء الآثار المحمودة في مقاومة الإلحاد بما يبثه رجالها من حقائق الدين، وبما يشرحونه في دروسهم ومحاضراتهم من مطابقته للعقل واتفاقه مع قضايا العلم ومسايرته للحياة المدنية، وبما أرشدوا إليه الآباء من رعاية الأبناء والظهور أمامهم بمظهر القدوة الصالحة في الدين والخير والفضيلة)[١].

٤. قرب العلماء من فئة الشباب.

كما يبين ﵀ اهتمام علماء الجمعية بفئة الشباب المعرَّضين للإلحاد، واقترابهم منهم وجذبهم إلىٰ معاقل العلم والدين، مما أثر عليهم تأثيرًا حسنًا، ولم يكونوا منافرين لهم كما وقع من بعض العلماء الآخرين مما أدىٰ إلىٰ صدود أولئك الشباب عن الدين وانخراطهم في الإلحاد، يقول ﵀: (ولكن رجال جمعية العلماء يعلمون أن هذه الطائفة المعرضة للإلحاد هي زهرة الأمة وأنها جديرة بكل عناية واهتمام، وأنها -وإن لم تسلم من طائف الإلحاد- سالمة من الجمود والتخريف، وأنها أقرب إلىٰ الإصلاح والرجوع إلىٰ الحق بما معها من إدراك صحيح وبما فيها من ملكات الاستدلال، لذلك مازجوا هذه الطائفة وخلطوها بأنفسهم وعرفوا كيف يجذبونها إلىٰ المحاضرات والدروس الدينية، فكان لهذه الطريقة الرشيدة أثرها الصالح في تقويم زيغ الزائغين منها وإرجاعهم إلىٰ حظيرة الدين بكل سهولة)[٢].

٥. دور الآباء في تحصين الأبناء.

وقد بيّن أن ما قامت به جمعية العلماء من جهد في مواجهة الإلحاد هو أقصىٰ ما يمكنها بذله في هذا الباب، وجعل الحِمل الأكبر والأهم علىٰ عاتق الآباء في تحصين الأبناء من الإلحاد، بل عدّه الدواء الأنجع في محاربة الإلحاد والذي يجتث العلة من أصولها، يقول ﵀: (إن هذا الجهد الذي تجهده جمعية

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٩٥).

(٢) المرجع السابق.

العلماء في مقاومة الإلحاد هو غاية الممكن في هذا الباب، أما الدواء الذي يجتث هذه العلة من أصلها فهو قيام الآباء بواجبهم من التربية الدينية الصحيحة)[1].

٦. محاصرة الإلحاد ومحاربته في مَظانِّه.

ويذكر أن من الوسائل التي انتهجتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لمقاومة الإلحاد غشيان أماكنه التي يروج فيها ومهاجمته، وأن هذا أبلغ في التأثير من مخاطبة المصلين لكون الملحد لا يصلي أصلًا ولا يدخل المسجد، وفي بيان ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ مدافعًا عن جهود الجمعية وموضحًا: (وقد قرأت في هذه الأيام لكاتب تونسي مقالًا يَنْعَىٰ فيه علىٰ جمعية العلماء إهمالها لهذه الجهة من جهات الفساد وهي جهة الإلحاد، واعتذر عن علماء جامع الزيتونة بأنهم وإن قعدوا في نواحي الإصلاح التي تخبّ فيها جمعية العلماء وتضع، قاموا في حرب الإلحاد بما شكرهم عليه، ولكنه حصر عملهم في هذا السبيل في خطب جمعية ينددون فيها بالإلحاد ويحذرونه، وفات هذا الكاتب الفاضل أن جمعية العلماء لم تسكت عن الإلحاد بل هاجمته في أمنع معاقله، ونازلته في أضيق ميادينه، كما فاته أن صرعىٰ الإلحاد لا يغشون المساجد)[2].

ويبين رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من جهود الجمعية المبذولة في مواجهة الإلحاد فيقول: (أما جمعية العلماء فلم تنم عن حق من حقوق الإسلام، ولم تفرط في قلامة ظفر منها، بل قامت بواجبات الدفاع عنه في ثلاثة ميادين في وقت واحد: دافعت عنه في الميدان الخارجي بما ردّت من شُبه الطاعنين، وكفكفت من غلواء المبشّرين، وبما أقامت من حصون في وجوه الملحدين، وما منهم إلا من يريد أن يطفئ نوره ويقطع ظهوره)[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (١/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) آثار الإمام (٣/ ١٣٨).

٧. بثّ حقائق الإسلام والهدي النبوي.

ومما اتخذته الجمعية من طرائق مقاومة الإلحاد؛ نشر هدي المصطفىٰ ﷺ وسنته وبيان حقائق دينه ومخاطبة العقول بذلك، ويقول في ذلك: (وقد حالت جمعية العلماء بينه [أي: الإلحاد] وبين الانتشار بما أفاضت علىٰ العقول، وأشاعت في النفوس من الهدي المحمدي، وحاصرته بحقائق الإسلام فحصرته في أضيق الأمكنة، وفي نفوس كأنها رموس)(١).

٨. مُدافعة الطرق البدعية.

ومما يراه الإمام الإبراهيمي رحمه الله حلاً للقضاء علىٰ الإلحاد مواجهة الطرقية ومدافعتها، يقول: (أرأيت أن القضاء علىٰ الطرقية قضاء علىٰ الإلحاد في بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه؟)(٢).

وينادي الإمام رحمه الله شباب عصره بلغة الحريص علىٰ دينهم ومعتقدهم، والمنذر لهم ممن يتربص بهم ويدفعهم إلىٰ حظيرة الإلحاد، فيقول رحمه الله: (دينكم - أيها الشباب- لا يفتننكم عنه ناعق بإلحاد، ولا ناعق بتنقّص. وربّكم -أيها الشباب- لا يقطعنكم عنه خنّاس من الجنّة والناس. وكتاب ربّكم -أيها الشباب- هو البرهان والنور، وهو الفَلَج والظهور، وهو الحجّة البالغة، والآية الدامغة، فلا يزهّدنكم فيه زنديق يؤول وجاهل يعطل ومستشرق خبيث الدخلة، يتخذه عضين، ليفتن الغافلين، ويلبّس علىٰ المستضعفين)(٣).

٩. مواجهة المذاهب المُفضية إلىٰ الإلحاد بعدة وسائل.

ثم يبين الإمام الإبراهيمي رحمه الله بعض الوسائل المهمة التي كان ينبغي اتخاذها في مواجهة المذاهب المنحلّة المفضية إلىٰ الإلحاد، كالدعوة إلىٰ الدين،

---

(١) آثار الإمام (٤/ ١٧٠).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٩٥).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٧٠).

ودعم ذلك بالمال والعقل والعلم، وإثبات حقائق الإسلام بالبراهين، وتحقيق العدل، وغير ذلك مما يُقاوم به الضلال والانحراف، وأن الإسلام يكفل ذلك كله، فيقول ﷺ: (ولو حافظ المسلمون علىٰ فريضة الدعوة في دينهم وكانت لهم دعاية منظمة يمدّها الأغنياء بالمال والعقلاء بالرأي والعلماء بالبرهان المثبت للحقائق الإسلامية وبالتوجيه لغاية الغايات فيه . . . وإقامة العدل بين الناس ونشر المحبة بينهم، لو فعلوا ذلك . . . لكانوا اليوم فيصلًا بين الكتلتين المتطاحنتين وحاجزًا حصينًا بين البشرية وبين الكارثة المتوقعة التي لا تبقي علىٰ بر ولا فاجر ولا مؤمن ولا كافر، بل إنني أعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لو كان للإسلام دعاة فاهمون لحقيقة الإسلام محسنون للإبانة عنها ولعرضها علىٰ العقول لرجعت إليه هذه الأمم الحائرة في هذا العصر، الثائرة علىٰ أديانه وقوانينه وأوضاعه لأن أديانه لم تحفظ لهم الاستقرار النفسي والطمأنينة الروحية، ولأن قوانينه الوضعية لم تضمن لهم المصالح المادية ولم تقم الموازين القسط بين طبقاتهم، ولأن الأوضاع العامة لم تحقن دماءهم ولم تغرس المحبة بينهم، فهم لذلك تائهون متطلعون إلىٰ حال تغيّر هذه الأحوال، وفي الإسلام ما يقوم بذلك كله ويرجع بالناس إليه وإلىٰ اختياره حكمًا ترضىٰ حكومته لو وجد من يدعو إليه علىٰ بصيرة ويبيّن حقائقه ويحسن عرضها علىٰ العقول ببرهان الواقع والمعقول)(١).

١٠. دور النهضة الجزائرية في مقاومة الإلحاد.

ويذكر الإمام الإبراهيمي ﷺ الجهد العظيم الذي قامت به النهضة الجزائرية علىٰ كافة الأصعدة مع ضعف العدد والعدّة، ومن تلك الجهود محاربة الإلحاد والضلال في الدين، فيقول ﷺ: (النهضة الجزائرية المتعدّدة النواحي كانت أكبر من القائمين بها، فهي متشعّبة، والقوّامون عليها بجدّ وصدق نفر قليل، وكانت تتقاضاهم أن يهدموا ويرفعوا الأنقاض، ويبنوا ويشيّدوا ويعمروا ويربّوا ويعلّموا، كل ذلك في آن واحد، وأن يحاربوا عدّة أعداء في عدة ميادين: يحاربون

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٨٥).

الاستعمار، ويحاربون التدجيل في الدين، والضلال في العقائد، ويحاربون الإلحاد، كل ذلك مع قلّة الأنصار وقلّة المال، ولولا فضل الله عليهم ورحمته وصدق وعده معهم، لما جروا في هذه الميادين خطوة)[1].

١١. الرجوع عن الإلحاد.

ومن آثار جهود الجمعية في مقاومة الإلحاد رجوع بعض من تأثر بالإلحاد وبغيره من الطرائق البدعية والفرق الضالة إلىٰ الحق، ومنهم داعية الجمعية نفسها الأستاذ محمد بن مرزوق رَحِمَهُ اللَّهُ الذي قال عنه الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبقي يرقب فجر الهدىٰ حتىٰ انبلج فجر نوره بظهور الحركة الإصلاحية علىٰ يد جمعية العلماء، فكان الرجوع إلىٰ مبادئها خاتمة المطاف لنفسه التواقة إلىٰ الحق)[2].

هذا جانب عظيم من جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في الإصلاح العقدي بمقارعة الإلحاد، ووصد أبوابه وصدِّ عاديته، وتقرير العقيدة الصحيحة وحقائق الإسلام الموافقة للعقل والعلم، والداحضة لشبه الإلحاد الذي تسلّل لتلك الديار، فوجد في انتظاره من يدحضه ويقاوم مدَّه.

(١) آثار الإمام (٥/ ٢٥٧).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٨٥).

المبحث الثاني: تعظيم الكتاب والسنة

تمهيد.

أولًا: أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة.

ثانيًا: استمداد العقيدة من الكتاب والسنة.

ثالثًا: مستندات مرجعيّة الكتاب والسنة.

رابعًا: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها.

خامسًا: مكانة السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن.

تمهيد

لقد جاءنا الله تعالىٰ بكتاب عزيز: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، جمع فيه علم الأولين والآخرين، وأكمل به الفرائض والدين، فهو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، فمن تمسّك به نجا، ومن خالفه ضلّ وغوىٰ، وحثنا الله في كتابه علىٰ التمسك بسنة رسوله ﷺ، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: ٧]، وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المَائدة: ٩٢]، فأمرهم بطاعة رسوله كما أمرهم بطاعته، ودعاهم إلىٰ التمسك بسنة نبيه كما أمرهم بالعمل بكتابه[١]، وقد قال النبي ﷺ: «**تركتُ فيكم شيئَين لن تضِلوا بعدهما، كتابَ اللهِ وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتىٰ يَرِدا عليَّ الحوضَ**»[٢]، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لم أسمع أحدًا نسبه الناس أو نسب نفسه إلىٰ علمٍ يخالف في أن فرض الله ﷻ اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه، بأن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وأن ما سواهما تبع لهما)[٣].

---

(١) انظر: الإبانة، للأشعري (١١-١٢).

(٢) أخرجه البزار برقم: (٨٩٩٣)، والحاكم برقم: (٣١٩) واللفظ له.

(٣) الأم، للشافعي (٧/ ٢٨٧).

وقال الإمام البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أنه من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأوله من غير حجة من السنة والجماعة، فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم، ومن قال علىٰ الله مالا يعلم فهو من المتكلفين، والحق ما جاء من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، والسنة ما سنّه رسول الله ﷺ، والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان)[1].

فالكتاب والسنة هما الأصلان اللذان يعتمد عليهما أهل السنة والجماعة في أخذ العلم والدين، وعلىٰ رأس ذلك كله أمور الاعتقاد، ومن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلىٰ النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلىٰ ما بُعِث به من الكتاب والحكمة، وقد أخبر أنه أكمل له ولأمته دينهم، وأتم عليهم نعمته؛ محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا؛ فإن معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية، فكيف يكون ذلك الكتاب، وذلك الرسول لم يحكموا هذا الكتاب اعتقادًا وقولًا؟! ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علَّم أُمَّتَه كل شيء حتىٰ الخراءة، وقال: «**تركتكم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[2]؛ محال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين -وإن دقت- أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية[3].

وقد اهتم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشأن الكتاب والسنة، وعظّم أمرهما غاية التعظيم، واجتهد في حمل الناس عليهما اجتهادًا كبيرًا، وذلك لكونهما الأصلين

---

(١) شرح السنة، للبربهاري (٤٥).

(٢) رواه ابن ماجه برقم: (٤٣).

(٣) انظر: الفتوىٰ الحموية، لابن تيمية (١٧٧-١٨١).

الأصيلين في أخذ العلم والدين، والمصدرين الأساسيين من مصادر العقيدة، ويظهر ذلك فيما دوّنه قلمه وصدح به لسانه، فله في هذا الباب كلامٌ كثير وجهدٌ إصلاحيٌّ كبير، وهو من أهم ما تكلم به ﵀ وأبدىٰ وأعاد وأجاد وأفاد، وقد انتظم حديثه عن تعظيم الكتاب والسنة في المطالب التالية:

أولًا: أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة

ثانيًا: استمداد العقيدة من الكتاب والسنة

ثالثًا: مستندات مرجعيّة الكتاب والسنة

رابعًا: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها

خامسًا: مكانة السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن

وفيما يلي بيان لهذه المطالب.

أحكام الدين مرجعها الكتاب والسنة.

يقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الكتاب والسنة أصل الدين ومنبعه وأنهما سبب سعادة المسلمين وسيادتهم في العصور الأولىٰ[١]، ولذا فقد تعددت عباراته في تقرير أهمية الاعتصام بهما والتحاكم إليهما، فمن ذلك تقريره أن دين الإسلام لا تؤخذ أحكامه من غير الكتاب والسنة، فيقول عنه: (وأنه دين الفطرة، وأنه لا يرجع في أحكامه إلا إلىٰ النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قولية أو عملية متواترة)[٢].

ويجدر التنبيه هنا إلىٰ أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول؛ فإنه يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع[٣]، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جمهور أهل العلم من جميع الطوائف علىٰ أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقا له أو عملا به أنه يوجب العلم، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه، من أصحاب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢١٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ٥١).

(٣) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز (٢/ ٥٠١).

من أهل الكلام أنكروا ذلك، ولكن كثيرا من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء، وأهل الحديث والسلف علىٰ ذلك، وهو قول أكثر الأشعرية، كأبي إسحاق[1] وابن فُورَك[2])[3].

استمداد الأحكام القضائية من الكتاب والسنة.

ويقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أن أصول الأحكام القضائية لدىٰ المسلمين مستمدّةٌ من الكتاب والسنّة، فيقول: (القضاء بين المسلمين في أحوالهم الشخصية والمالية والجنائية جزء لا يتجزأ من دينهم، لأن الحكم بينهم فيها حكم من الله، ولأن أصول تلك الأحكام منصوصة في الكتاب والسنة، وكل ما فيهما فهو دين، ولأنهم ما خضعوا لتلك الأحكام إلّا بصفة كونهم مسلمين)[4].

ويبين رَحِمَهُ اللهُ أن تفاصيل تلك الأحكام القضائية التي تتعلق بالأسرة وغيرها موجودة أيضًا في الكتاب والسنة أصولًا وفروعًا وحِكَمًا وأحكامًا، وأن ذلك من مفاخر التشريع الإسلامي المأخوذ من الوحيين، فيقول عنها: (فكل أولئك من صميم الدين، بيّن الكتاب أصولها وحِكَمَها وأحكامها، وشرحت السنة القولية والعملية فروعها ودقائقها، ولم يتركها الله سُدىٰ ولا وكلها إلىٰ الآراء والأزمنة، لأن دينه دين الفطرة . . . وإنما تفهم بتفهم أسرار كلام الله، وكلام محمد بن

---

(١) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن مهران الإسفراييني، روىٰ عنه البيهقي والقشيري، كان من معاصري الباقلاني وابن فورك، توفي سنة ٤١٨هـ.
انظر: طبقات الشافعية، للسبكي (٤/ ٢٥٦)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/ ٣٥٣).

(٢) هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ، أخذ العلم بالعراق، ثم توجه إلىٰ الري ثم نيسابور، بلغت مصنفاته قريبا من مئة مصنف، كان أشعريا، رأسا في فن الكلام، أخذ عن أبي الحسن الباهلي صاحب الأشعري. توفي سنة ٤٠٦هـ رَحِمَهُ اللهُ.
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٢)، والوافي بالوفيات، للصفدي (٢/ ٢٥٤)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/ ٢١٦).

(٣) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (٢٨-٢٩).

(٤) آثار الإمام (٢/ ١٤٤).

عبد الله. إن أحكام النكاح وتوابعه تُعدّ من مفاخر التشريع الإسلامي المستند علىٰ الوحي الإلهي)[١]، كما يبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن التشريع إذا لم يستند علىٰ وحي إلهي سماوي طغىٰ عليه التحكم والاستبداد[٢]، وأن الرسوخ في فقه الكتاب والسنة يؤهل العلماء إلىٰ مراعاة المصالح والمفاسد وأحوال كل وقت بحسبه، ووضع القواعد التي تعصم قضاة الإسلام من الخطأ في التنفيذ[٣].

وكذلك فيما يتعلق بحدّ الحدود بين المرأة والرجل وبين المحكوم والحاكم وبين الفقير والغني وبين العبيد والسادة وبين العمّال وأصحاب المال ونحو ذلك؛ فقد بيّن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن النصوص القطعية من القرآن والسنة قد تناولت ذلك كله، مع ما يحوطها من الترغيب والترهيب المؤثر في النفوس، وأن الناظر في سيرة النبي ﷺ وأقضيته التي قضىٰ بها يجد ذلك واضحًا، وكذلك ما جاء عن الخلفاء الراشدين في أحكامهم، فقد كانت موافقةً لأحكام النبوة، والنبوة وحي يوحىٰ[٤]، فهو يقرر بذلك أهمية التحاكم إلىٰ الكتاب والسنة لإتيانها بكمال تلك الأحكام.

دعوة الخصوم للتحاكم إلىٰ الكتاب والسنة.

ومما سطره يراع الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في الحثّ علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما والأخذ بهما؛ ما ذكره في معرض حديثه مع بعض خصومه وهو يبين لهم وجوب التحاكم إلىٰ الكتاب والسنة، ويدعوهم إلىٰ الرضا والتسليم بأحكامهما، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (الدين الذي أوجب علينا أن ننكر المنكر يوجب عليهم الفيئة إلىٰ الحق، ويوجب علينا جميعًا التحاكم إلىٰ كتاب الله وسنّة نبيّه، والرضا

(١) آثار الإمام (٣/ ١٣٣).
(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٧٥).
(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٣٣).
(٤) انظر: آثار الإمام (٤/ ٣٥٩).

بحكمهما والتسليم لهما، والرجوع إلىٰ سبيلهما الجامعة، وقد دعوناهم إلىٰ هذا ولا نزال ندعوهم)[1].

الوصية بالرجوع إلىٰ الكتاب والسنة.

ومما بيّنه الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ في أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة وأثر ذلك في طيب الحياة؛ نداؤه للمسلمين بقوله: (اعرفوا هذه الحياة وافهموها، واجعلوا وسيلتها الأولىٰ العمل الصالح، وارجعوا فيها إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه، وخذوها بالمحاذاة والتلقين والاتعاظ بأحوالكم الماضية وأحوال الأمم قبلكم، فإذا عرفتم هذا النوع من الحياة طلبتموه واذا طلبتموه وجدتموه، وإذا وجدتموه سعدتم به وأسعدتم)[2]، وكذلك كانت وصيته لمشايخ الوعظ أن يعتمدوا في تذكيرهم علىٰ صرائح الآيات القرآنية، وصحيح السنة النبوية إيمانًا منه بمكانتهما من الدين[3].

وقد تمنّىٰ رَحِمَهُ اللهُ أن يقوم علماء الأقطار الإسلامية بتصحيح عقائد المسلمين والعودة بهم إلىٰ الكتاب والسنة لما في ذلك من العصمة عن الخلاف والتفرق الذي مزّق الأمة، فيقول: (وكم وددنا لإخواننا علماء الأقطار الإسلامية، لو قاموا بمثل ما قمنا به من تطهير عقائد المسلمين، وتوجيههم التوجيه الصحيح النافع في الدين والحياة، والرجوع بهم -في صراحة وجرأة- إلىٰ كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، وإنقاذهم بذلك من عصبيات المذاهب والطرق التي فرّقت شملهم، ومصائب التفرّق والخلاف التي أذهبت ريحهم)[4].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢١٠).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٣٥٢).

(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ٢٨٦).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٣١١).

تميُّز منهج السلف بالوقوف عند نصوص الكتاب والسنة.

ومما يدعم تقرير الإمام الإبراهيمي رحمه الله لأهمية الاعتصام بالكتاب والسنة؛ إشادته بالمتمسّكين بالكتاب والسنة ورفعه من شأنهم لارتفاعهم بما اعتصموا به، فيذكر أن السلف الصالح -رضوان الله عليهم- كان مما يميز منهجهم الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعدم مجاوزتهما بأي نوع من أنواع التجاوز، فيقول: (أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام، واستقاموا علىٰ طريقته أتم استقامة، وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنة، لا يتعدونها ولا يتناولونها بالتأويل)[1]، ويؤكد رحمه الله رجوع السلف إلىٰ الكتاب والسنة في أمور الدين، ومن ذلك حسم الخلاف فيها؛ فيقول: (وكانوا كلما طاف بهم طائف الخلاف في مسألة دينية بادروه بالرد إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسوله فانحسم الداء وانجابت الحيرة)[2].

ومما أبانَ به الإمام الإبراهيمي رحمه الله أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة والوقوف عند حدودهما والعمل بهما، ما ذكره من أوصاف المحدِّثين الأوائل الذين هم علىٰ الجادّة، إذ يقول: (ولقد كان من مقتضىٰ كون الرجل محدِّثًا أن يكون سلفيّ العقيدة وقّافًا عند حدود الكتاب والسنَّة، يرىٰ ما سواهما من وسواس الشياطين، ... وعرفوا بالوقوف عند الآثار والعمل بها، لا يعْدونها إلىٰ قول غير المعصوم إلا في الاجتهاديات المحضة التي لا نصّ فيها)[3].

أوبة الأمة إلىٰ الكتاب والسنة.

ومما سطره الإمام الإبراهيمي رحمه الله في تدعيم تمسك الناس بالكتاب والسنة والاحتجاج بهما؛ إشادته بالموجة التي أعادت الناس إلىٰ الأصلين الأصيلين

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٣).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٥٤٤).

الكتاب والسنة، إذ يقول: (هبّت علىٰ هذا الوطن نفحة من نفحات الله في هذا العهد الأخير فأصبح كتاب الله يدرّس بكيفية حية مثمرة وعلىٰ أساس أنه هداية عامة لجميع البشر، وأنه حجة الله البالغة علىٰ خلقه في كل زمان وفي كل مكان، وأصبحت سنّة رسول الله ﷺ تُدرّس من أصولها الصحيحة، ويبيّن فيها وفي كتاب الله مقارنة الحكمة للحكم والدليل للمدلول والعلم للعمل)(١).

كما يشيد في موضع آخر بأوبة الأمة وعودتها إلىٰ الكتاب والسنة بعد مشاهدته لأحوالٍ سَرَّته، فيقول: (هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الأمّة إنابتها إلىٰ ربها، وتكفيرها عن ذنبها ورجوعها إلىٰ الله . . . فإن هروب هذه الأمة من الله هو تفلّتها من كتابه وبعدها عن هدايته، والتماسها الوصول إليه علىٰ غير طريقه، فضلّت وتاهت قرونًا وها هي ذي تفيء إلىٰ الله علىٰ طريق كتابه وسنّة محمّد وأصحابه وعسىٰ هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد برّه وإحسانه)(٢)، وفي بيانه هذا تقريرٌ لمكانة الكتاب والسنة وإيضاحٌ لكونهما أصل الهداية وأساسها.

سلطان العلماء منوطٌ بسلطان الكتاب والسنة.

وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن سلطان العلماء منوطٌ بسلطان الكتاب والسنة، فيُشيد بعلماء الصدر الأول من الإسلام حين كانوا معتصمين بالكتاب والسنة قوَّامين بهما، وكيف كان أثر ذلك علىٰ نفوذ سلطانهم ورجوع الناس إلىٰ رأيهم، فيقول: (كان هذا السلطان ظاهرًا علىٰ أشدّه، متجليًا في سطوعه في صدر الإسلام يوم كان العلماء قوّامين علىٰ الكتاب والسنّة، جارين علىٰ صراطهما، واقفين عند حدودهما، قائمين بفريضة الأمر بما عرفاه، والنهي عما أنكراه، لا يهدون الأمة إلا بهديهما، فكان سلطانهم نافذًا حتىٰ علىٰ الخلفاء، وألسنتهم مبسوطة بالنقد

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٤٧).

(٢) آثار الإمام (٣٦١-٣٦٢).

والتجريح لكل من زاغ عن صراط الدين كائنًا من كان، وكان رأيهم هو المرجع في مصالح الدين والدنيا)[1]، وحين كان مصدرهم الأول في التشريع الكتاب والسنة؛ كانوا أصحاب حجة قوية بعيدين عن الضلال، واجتمعت عليهم الأمة، وفي ذلك يقول: (وكانوا يصدُرون في أعمالهم وأحكامهم عن الكتاب والسنة، فيصدرون عن الدليل الذي لا يضلّ، ويستندون إلىٰ الحجة التي لا تدحض؛ وكانت الأمة ترجع إليهم، فترجع إلىٰ وحدة متماسكة في الدين لا تتفرّق بها السبل، ولا تتشعّب الآراء)[2]، ويعد الإمام الإبراهيمي رحمه الله العالم المسلم قائدًا للنفوس بسلاح الكتاب والسنة المفَسَّرةً بأفعال النبي ﷺ[3].

جهود جمعية العلماء في تعظيم الكتاب والسنة واتخاذهما منهجا.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا كون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي رأسها الإمام الإبراهيمي رحمه الله فترةً من الزمن؛ تتخذ من الكتاب والسنة مرجعيةً في جميع أمورها، ولاسيما ما يتعلق منها بالاعتقاد، وقد جاء في المادة (٦٤) من القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والذي كتبه الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (تجري الجمعية في جميع أعمالها . . . وتجري في الديني منها خاصّة علىٰ الرجوع إلىٰ صريح الكتاب وصحيح السنّة، ثم الرجوع إلىٰ الإجماع الثابت والقياس الجلي فيما لا نصّ فيه، ثم الترجيح فيما اختلفت فيه الأنظار والاجتهادات)[4].

كما جاء في المادة (٦٦) من ذات القانون: (فالجمعية تريد أن ترجع بهذه الأمة -من طريق الإرشاد- إلىٰ هداية الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح لتكون

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٢٨٦).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٢٨٦).

(٣) انظر: آثار الإمام (٤/ ١٠٩).

(٤) آثار الإمام (١/ ٨٤).

ماشية في رقيّها الروحي علىٰ شعاع تلك الهداية)[1]، وورد أيضًا في المادة (٧٠) من ذات القانون: (يبتدئ البرنامج ببيان الأسباب التي أدّت بالناس إلىٰ الإعراض عن الكتاب والسنّة وأبعدتهم عن هدايتهما، ثم ببيان ما يلزم سلوكه لإرجاعهم إلىٰ تلك الهداية)[2].

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غير ما موضع أن الجمعية تستقي من معين الوحيين الكتاب والسنة في برامجها العلمية والتعليمية، فهما أصل الإسلام الحق، كما يقول: (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تتشرّف بحمل لواء الإصلاح الديني بالدعوة إلىٰ نشره وتحقيقه، ذات برنامج عملي في تعليم الإسلام علىٰ حقيقته من أصليه -الكتاب والسنّة-، وفي نشر الفضائل الإسلامية والأخلاق القرآنية، وما يقتضيه ذلك من محاربة البدع والخرافات والجمود والرذائل والمحرّمات)[3]، فحقيقة حركة جمعية العلماء في الجزائر كما أوضحها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هي في حقيقتها دعوة القرآن والسنّة الصحيحة فهمًا وعملًا ورجوع بالمسلمين إليهما لأنهما أصل الدين ومنبعه ولأنهما سبب سعادة المسلمين وسيادتهم في العصور الأولىٰ، وفي القرآن ما فيه من هداية وتوجيه صالح وتمكين للمقوّمات التي لا تعتز الأمم إلا بها ولا تقوم إلا عليها)[4]، فكان هذا المنهاج واضحًا للجمعية باعتماد الكتاب والسنة مرجعية دينية لها، وأصلًا لجميع أعمالها.

ويبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن غاية الجمعية هو حمل الناس علىٰ الرجوع إلىٰ الكتاب والسنة والاهتداء بهما، فيقول: (إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنّة رسوله، ولا سلطان علىٰ أرواحهم إلا الله الحي

---

(١) آثار الإمام (١/ ٨٤).

(٢) آثار الإمام (١/ ٨٦).

(٣) آثار الإمام (٢/ ١٣٣).

(٤) آثار الإمام (٤/ ٢١٢).

القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم إلا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتثمر آثارًا صحيحة)[1].

ويذكر رحمه الله أن من أساليب الجمعية في وعظ الناس وتذكيرهم في المساجد اتخاذ طريقة السلف بالتذكير بالكتاب والسنة وتقريبهما بالشرح والبيان والاعتبار، فيقول: (أما في المساجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتذكير هي طريقة السلف، تذكر بكتاب الله، تشرحه وتستجدي عبره، وبالصحيح من سنّة رسول الله، تبينها وتنشرها)[2]، ويكرر ذكره لمنهج الجمعية في ذلك، ويبين التزام مدرسيها به، فيقول: (فإن عمدة الجمعية في التذكير على كتاب الله، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام، ومدرسوها ما منهم إلّا من له في العلم مقام معلوم، وهم يلتزمون في تذكيرهم الأحاديث التي صحت أسانيدها ومتونها)[3]، فكما أن الجمعية قد جعلت مرجعيتها الكتاب والسنة، فكذلك كانت تسير في دعوة المسلمين بنور الكتاب والسنة، وتسعى في العودة بهم إلى هديهما؛ بل كانت هذه إحدى غاياتها الكبرى.

ويذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله أيضًا أن مما تنص عليه رسائل الجمعية لمدرسيها؛ حثهم على الاستناد إلى الكتاب والسنة، ففي إحدى تلك الرسائل: (حثوا إخوانكم على إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضاعوها كالزكاة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والمرحمة والتعاون على البر والتقوى والتآلف والتحابب مستندين في ذلك كله على كتاب الله وحديث نبيّه مستدلين بنصوصهما على النهج السلفي لجمعيتكم)[4]، ويتكرر مثل هذه المعنى في عدة مواضع من كلام الإمام رحمه الله الذي يوضح فيه

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٣٨).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٩١).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩٣).

(٤) آثار الإمام (٢/ ٢٩٤).

منهج الجمعية، وأن من أعظم أهدافها وغاياتها الرجوع بالمسلمين إلىٰ ينبوع الدين ومطلع هدايته من الكتاب والسنة[1].

وقد أثمرت جهود الجمعية في إعادة الناس إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويبين الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ جانبًا من ذلك فيقول عن التفات الأمة إلىٰ القرآن نتيجة لجهود الجمعية في ذلك، وتأثيره العظيم في حياة الأمة: (نجحت الجمعية أيضًا في إلفات الأمة إلىٰ القرآن وفي جمعها عليه وحملها علىٰ التدبّر في معانيه . . . حتىٰ يكون المؤمن مسوقًا بالقرآن مدبرًا به. وسنرىٰ من تأثير القرآن في النفوس ما يحقّق الأمنية التي تاق إليها حكماء الأمم وأعياهم الوصول إليها، وهي الكمال الروحي من طريق سمو الأخلاق وهي الغاية التي وصل إليها سلفنا وما وصلوا إليها إلا بالقرآن)[2].

كما يحكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نجاح الجمعية في نشر السنة النبوية بين الناس وتوضيحها لهم، وحملهم علىٰ الرجوع إليها والتمسك بها، فيقول: (وأفلحت الجمعية في تبيين السنّة النبوية المحمدية معنىً ومفهومًا، وحمل الأمة علىٰ الرجوع إليها علمًا وعملًا، والتمسّك بالصحيح الثابت منها فعلًا وتركا)[3]، بل يعدّ هذا النجاح بإعادة مكانة السنة ثمرة الجهود المبذولة: (وأما الثمرة فهي هذا النجاح الباهر الذي نلقاه في كل أعمالنا للأمّة، في تطهير العقول، وفي تصحيح العقائد، وفي استجابة داعي القرآن، وفي تمكين سلطان السنّة)[4]، (وقد رجع للقرآن بعض نفوذه وسلطانه، وحجّته وبرهانه، وللسنّة النبوية مكانها علمًا وعملًا، وللعلماء المصلحين قوّتهم في التوجيه، ومكانتهم في التدبير، وقدرتهم علىٰ القيادة. وإن هذه النتيجة لدعوة جمعية العلماء لمعجزة ادّخرها الله لهذا القطر الجزائري)[5].

---

(١) انظر: آثار الإمام (٢/ ٣٧٤)، (٣/ ٥٤)، (٥/ ١٥٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ٢٨٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ٢٨٥).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٥٥٣).

(٥) آثار الإمام (٣/ ٣١١).

ولعله من خلال النص الآتي يمكن تلخيص رؤية الجمعية ومنهجها، وبيان اعتمادها علىٰ الكتاب والسنة في جميع أعمالها، وعلىٰ رأسها إصلاح العقائد، واهتمامها بأمر القرآن وحرصها علىٰ القيام بحقوقه، وجعله أساسًا في إقامة شؤونها، يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (فالجمعية تعطيه جزءًا من اهتمامها، وكيف لا تهتم بالقرآن وهو سلاحها الذي به تناضل، وسيفها الذي به تصول، وعدتها في الشدة، وعلىٰ الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحي، وفي الدعوة إليه لقيت الأذىٰ، ورميت بالعظائم؟ إن جمعية العلماء علىٰ ما خدمت به القرآن من تبيين حقائقه للناس، ونشر فضائله بينهم، وتحبيبه إلىٰ نفوسهم، وشرح مزاياه فيهم، وجعله أساسًا في التذكير والوعظ -علىٰ كل ذلك تتمنىٰ لو تتفسح أمامها السبل، ويخف عنها ما تلاقيه في طريقها من معاكسة الطرقيين وأذنابهم، وإعنات الحكومة وعمالها- لتقوم كل القيام بما يجب عليها للقرآن من حق، فتنشئ من أبناء الأمة جيلًا قرآنيًا يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فهمه والعمل به ويتخلق بأخلاقه ويتربىٰ علىٰ هديه، ثم ينشر بواسطته دين الله في أرض الله)(١).

ويمكن أن نجمل ما مضىٰ من تقريرات الإمام الإبراهيمي رحمه الله لأهمية الاعتصام بالكتاب والسنة فيما يلي:

- أن الكتاب والسنة أصل الدين وسبب سعادة المسلمين وسيادتهم في العصور الأولىٰ.

- أن أحكام دين الإسلام لا تؤخذ إلا غير الكتاب والسنة.

- أن أصول الأحكام القضائية وتفاصيلها مستمدّةٌ من الكتاب والسنّة.

- أن الرسوخ في فقه الكتاب والسنة يؤهل العلماء إلىٰ مراعاة المصالح والمفاسد والأحوال.

- أن التشريع إذا لم يستند علىٰ وحي إلهي سماوي طغىٰ عليه التحكم والاستبداد.

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٩٢).

- أن نصوص القرآن والسنة حدّت الحدود بين أصناف المجتمع المسلم.

- أن أقضية الخلفاء الراشدين في أحكامهم موافقة للأحكام النبوية.

- أن الإسلام يوجب التحاكم إلىٰ كتاب الله وسنّة نبيّه، والرضا بحكمهما والتسليم لهما.

- أن للاعتصام بالكتاب والسنة أثر في طيب الحياة.

- أن العودة بالمسلمين إلىٰ الكتاب والسنة يعصمهم من الخلاف والتفرق.

- أن الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم-.

- أن الرجوع إلىٰ الكتاب والسنة في أمور الدين يحسم الخلاف فيها.

- أن سلطان العلماء منوطٌ بسلطان الكتاب والسنة.

- أن تشريع الكتاب والسنة يورث قوة الحُجّة والبعد عن الضلال.

- أن الاعتصام بالكتاب والسنة سبيل للقيادة.

ثانيًا: مستندات مرجعيّة الكتاب والسنة

سرد عدد من المستندات.

مما صدح به الإمام الإبراهيمي رحمه الله في حثّ الناس علىٰ الرجوع إلىٰ هدي الكتاب والسنة؛ بيانه للمزايا التي انطوىٰ عليها هدي الكتاب والسنة، والتي تُعد مستندات لمرجعية الكتاب والسنة، وهي التي اجتمع عليها المسلمون الأوائل بدعوة النبي ﷺ إليها وحضّه عليها، فيقول: (اجتمع المسلمون في أول أمرهم علىٰ هداية إلهية عامة، وهي هداية الدين التي جاء بها القرآن، وشرحها محمد بن عبد الله ﷺ، ودعا إليها المستعدين وحضّ عليها المستجيبين، ونفّذها في أمة الإجابة)[1]، ثم شرع في سرد تلك المستندات لمرجعية الكتاب والسنة، وهي كما يلي:

١. اجتماع هداية الكتاب والسنة علىٰ عقائد صحيحة.

٢. وحفظها لعلائق العبد بربّه.

٣. وتحديدها لتلك العلائق.

٤. واشتمالها علىٰ أخلاق متينة تحفظ العلائق بين العباد.

٥. ووزنها للمصالح بالميزان القسط.

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٦٣).

٦. وتقريرها للفضيلة ووزنها وقيمتها.

٧. وبيانها للرذيلة ووزنها وقيمتها وحدودها مع الفضيلة.

٨. وحفظها لحقوق العباد وفصلها في مظانّ الشقاق.

٩. وجمعها للأمة من غني وفقير علىٰ العدل والإحسان[١].

وهي من أهم وأبرز مزايا هدايات الكتاب والسنة ومستندات مرجعيتهما.

ومنها أيضًا ما ذكره الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صفات الكتاب العزيز ومزاياه التي تحقق مرجعيّته والتي وصفه الله بها، ووصفه بها نبيه ﷺ الذي أنزل علىٰ قلبه، بأنه إمام وموعظة، ونور وبيّنات، وبرهان وبيان، وهُدًى وفرقان، ورحمة وشفاء لما في الصدور، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأنه قول فصل، وما هو بالهزل، وأنه لا يَخْلَق جديده ولا يبلىٰ علىٰ الترداد ولا تنقضي عجائبه، وفيه نبأ من قبلنا وحكم ما بعدنا، ثم يكون حجة لنا أو علينا[٢].

الحفظ الإلهي للوحي.

ومن مستندات مرجعية القرآن التي بينها الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حفظ الله تعالىٰ لكتابه من عبث العابثين، فيقول: (إن القرآن هو هذه الأحزاب الستون التي نقرأها اليوم بألفاظها وحروفها ونقوشها، منقولًا بالتواتر القطعي، محفوظًا بحفظ الله من كل ما أصاب الكتب السماوية من قبله من النسيان والتبديل وتحريف الكلم عن مواضعه. كبر بتواتره عن الإسناد والمسندين، وشهادة المعدلين والمجرحين)[٣].

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٦٣).

(٢) انظر: آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٠).

ثم يبيّن رحمه الله كيف استعصىٰ القرآن العظيم علىٰ أعدائه فلم يفلحوا في سعيهم للنّيل منه، فيقول: (قد نَيَّف[1] علىٰ ثلاثة عشر قرنًا ولم يشك المسلمون في حرف منه فضلًا عن كلمة، وفي الأرض عدد حصاها أعداء له يتمنون بقاصمة الظهر أن لو ينطفئ نوره، ويستسر ظهوره، ويرضخون في سبيل محوه من الأرض بما كسبت الأيدي واحتقبت الخزائن من الأموال، وبما أخرجت بطون النساء من الرجال، وبما أنتجت القرائح من مكر واحتيال وكيد ومحال. فلم ينالوا منه نيلًا إلا مضضًا تنطوي عليه جوانحهم، ووغرًا تنكسر عليه صدورهم، وشجىٰ تنثني عليه لهواتهم، وحقدًا تغلي مراجله في نفوسهم، وقد أبقاهم الله وأبقىٰ لهم منه المقيم المقعد وهم بهذا الحال وهو بهذا الحال إلىٰ يومنا هذا، فلينم المسلمون ملء جفونهم، ولينعموا بالًا من هذه الناحية، وليعلموا أن القرآن أُتِيَ من قبلهم)[2]، فسبحان من جعل كتابه معجزة خالدة، يقصم بها العتاة الجبابرة، ومرجعيّة للأمة لا تضل بها أبدا.

احتواء السنة علىٰ دواء الأمّة.

ومن تلك المستندات لمرجعية الكتاب والسنة التي حددها الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن السنة النبوية فيها دواء الأمة وسعادة العالم وحل مشكلاته؛ وذلك إذا فُهمت حقيقة الإسلام وجرىٰ تطبيقه وِفق هدي النبي ﷺ، فيقول مؤكدًا ذلك: (ويمينًا بَرَّةً لا حنث فيها ولا تأوّل، لو أن الإسلام فهم علىٰ حقيقته، وطبّق علىٰ وجهه الذي جاء به من عند الله محمد بن عبد الله لكان هو الدواء النافع الذي يحل العقد ويرفع الإشكال، ولكان هو الحكم في معترك الخلاف، والجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم)[3]، فإن الأمة قد تفرّقت وتعصّبت

---

(١) أي: زاد. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ٣٤٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٠).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٧٨).

لمذاهبها، والمذهب الجامع لها هو كتاب الله تعالىٰ، وهدي نبيه ﷺ[1]، ولن تتقدّم من بين الأمم إلا بالاقتداء بالنبي ﷺ[2].

كمال الوحي وشُمُوله.

ومن مستندات مرجعية الكتاب والسنة أن أن القرآن يحتوي علىٰ دين الله الكامل، وأن كل ما سبقه من الكتب والصحف فهي إرهاصات له وبشارات به وإشارات إليه[3].

ومن ذلك أن في القرآن كل ما كان الفكر العربي يتطلبه من العقائد والحقائق، وكل ما كان اللسان العربي يصبو إليه من آفاق، فنهض العرب به وأنهضوا الأمم معهم[4].

ومن ذلك أن القرآن كلٌّ لا تختلف أجزاؤه، ولا يختلّ نظمه، ولا تتعارض حُجَجُه، ولا تتناقض بيّناته، وأنه حُجَّةٌ علىٰ غيره، وليس غيره حجة عليه، وأنه من الخَطَل والخذلان الشنيع والضلال البعيد أن يُجعل الرأي الاجتهادي غير المعصوم أصلًا، ويُجعل القرآن المعصوم فرعًا، وأن يُعقد التوازن بين كلام المخلوق وكلام الخالق سبحانه[5].

وقد تبيّن مما مضىٰ تحديد بعض مستندات مرجعيّة الكتاب والسنة ومزايا هدايتهما، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

- اشتمال الكتاب والسنة علىٰ العقائد الصحيحة.

- حفظهما لعلائق العبد بربّه، وتحديدهما لتلك العلائق، ولعلائق العباد فيما بينهم.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٧٨).

(٢) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢١٠).

(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٢٠).

(٤) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٢٤).

(٥) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٢٦).

- اشتمالهما على الأخلاق العليا وتقريرهما للفضيلة، ووزنهما للمصالح بالميزان القسط.

- حفظهما لحقوق العباد والفصل في مظانّ الشقاق.

- كون القرآن موصوفًا من منزله بأوصاف كثيرة منها أنه إمام وموعظة، ونور وبيّنات، وبرهان وبيان، وهُدًى وفرقان، ورحمة وشفاء لما في الصدور، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأنه قول فصل، وما هو بالهزل، وأنه لا يَخْلَق جديده ولا يبلىٰ علىٰ الترداد ولا تنقضي عجائبه، وفيه نبأ من قبلنا وحكم ما بعدنا، ثم يكون حجة لنا أو علينا.

- أن القرآن محفوظ بحِفظ الله من كل ما أصاب الكتب السماوية من النسيان والتبديل والتحريف.

- أن السنة النبوية فيها دواء الأمة وسعادة العالم وحل مشكلاته.

- أن المذهب الجامع للأمة المتفرّقة هو كتاب الله تعالىٰ، وهدي نبيه ﷺ.

- أن في القرآن كل ما كان يتطلبه الفكر العربي من العقائد والحقائق.

- أن القرآن كلٌّ لا تختلف أجزاؤه، ولا يختلّ نظمه، ولا تتعارض حُجَجُه، ولا تتناقض بيّناته، وأنه حُجَّةٌ علىٰ غيره، وليس غيره حجة عليه.

ثالثًا: استمداد العقيدة من الكتاب والسنة

قدّمنا في أول هذا المبحث بيان مكانة الكتاب والسنة من الدين، وأنهما أهم مصادر التلقي التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في تقرير العقائد وغيرها.

وقد بيّن الإمام الإبراهيمي ﵀ استمداد العقيدة من الكتاب والسنة في عدة مواضع من تراثه، ومن ذلك بيانه لضرورة الرجوع إلىٰ القرآن في الاستدلال علىٰ العقائد، وأنه لا يمكن إثباتها من غير المعصوم، فيقول في بيان ذلك: (يجب الرجوع في طريق الاستدلال علىٰ العقيدة إلىٰ طريقة القرآن وهي إلفات النفس وتوجيهها إلىٰ الاستدلال بالمخلوقات علىٰ الخالق، وأن هناك فرقا عظيما بين العقيدة والعبادة والمعاملة وأنه لا مدخل لغير المعصوم في إثبات ما هو عقيدة أو ما هو عبادة)[1].

كما يبين ﵀ أن الميزان الدقيق لحقائق العقائد هو الكتاب والسنة، فيقول: (والعقيدة الحقّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنّة، فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس علىٰ ذلك الميزان وجدناها طائشة)[2]، فحقائق الإسلام وعقائده مستمدّة من الكتاب والسنة[3].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٥٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ٨٦).

(٣) انظر: آثار الإمام (٤/ ٩٧).

وفي بيان أثر الاعتصام بالكتاب والسنة في صلاح العقيدة وصحتها، والقضاء علىٰ الوثنية ودحر الشركيات كتشييد القباب علىٰ القبور والغلو في أصحابها والتقرب إليهم من دون الله، يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا ذلك بعد ذكره لتلك المظاهر الشركية: (وما جَرَّ هذا البلاء علىٰ الأمة الإسلامية حتىٰ أضاعت الدين والدنيا، إلّا سكوتُ العلماء عن هذه الأباطيل أول نشأتها، وعدمُ سدِّهم لذرائعها حتىٰ طغت هذا الطغيان علىٰ عقول الأمة، ولو أنهم فقهوا الأمة في كتابِ ربها، وساسوها بسنة نبيها لكان لها من سيرة إبراهيم ومحمد عاصمٌ أي عاصم من هذا الشر المستطير)[1]، فالكتاب والسنة عاصمان للعقائد من الزيغ والانحراف.

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العقيدة الصحيحة هي المستقاة من القرآن، فإن لم تكن كذلك كانت زيغًا وباطلًا، فيقول: (وما ثَمَّ إلّا ما ختمت به الرسالة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا فليس اليوم بدين، كما قال مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد بطلت عقائدنا يوم زغنا فيها عما جاء به القرآن)[2]، كما يؤكد أن السنة النبوية المتمثلة في أقوال وأعمال وأحوال النبي ﷺ هي المصححة للعقائد، والمقوّمة لفهومها[3].

ويعُدّ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدراسة السلفية الصحيحة ما استُمِدّت أصولها الاعتقادية من الكتاب والسنة، فيقول في ذلك: (إن السلفية نشأة وارتياض ودراسة، فالنشأة أن ينشأ في بيئة أو بيت كل ما فيها يجري علىٰ السنّة عملًا لا قولًا؛ والدراسة أن يدرس من القرآن والحديث الأصول الاعتقادية)[4].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٩٧).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٥٣).

(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٩١).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٥٤٤).

ويذكر ﵀ أن دين الإسلام -ويشمل العقائد والأحكام- قد فسّره النبي ﷺ بأقواله وأفعاله، فالسنة بلاغ عن الله، ومنها تُستمد العقائد، ولا انفكاك لها عن القرآن العاصم لهذا الدين العظيم، فيقول: (هذه بعض معاني هذا الدين العظيم دين الله السماوي الذي بلّغه محمد ﷺ وفسّره بأقواله وشرحه بأفعاله، ووسعته لغة العرب، وحمله إلينا الأمناء الهداة، وعصمه القرآن آية الله الكبرىٰ ومعجزة الدهر الخالدة وكتاب الكون الأبدي، وكنز الحكمة المعروض علىٰ العقول والأفكار وعلىٰ الأسماع والأنظار لتأخذ منه كل جارحة حظها من الغذاء)[1]، ومن فضل الله أن أصول الدين من كتاب وسنّة محفوظة بحفظ الله، ولم يضع منها شيء[2].

ويمكن أن نجمل ما قرره الإمام الإبراهيمي ﵀ من استمداد العقيدة من الكتاب والسنة في النقاط التالية:

- أنه لا يمكن إثبات العقائد والاستدلال عليها من غير الكتاب والسنة.
- أن الميزان الدقيق لحقائق العقائد هو الكتاب والسنة.
- أن الاعتصام بالكتاب والسنة يثمر صلاح العقيدة وصحتها.
- أن العقيدة الصحيحة تؤخذ من القرآن وإلا كانت زيغًا وباطلًا.
- أن السنة النبوية مصححة للعقائد ومقوّمة لفهومها.
- أن السلفية الحقّة هي التي استمدّت أصولها الاعتقادية من الكتاب والسنة.
- أن أصول الدين من كتاب وسنّة محفوظة بحفظ الله ولم يضع منها شيء.

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٦٩).

(٢) انظر: آثار الإمام (٤/ ٣٠٩).

رابعًا: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها

لقد اهتم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ غاية الاهتمام واجتهد غاية الاجتهاد في إعادة المسلمين إلىٰ هدي صدر هذه الأمة من السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، وحملهم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذ بهما صلح حال الأوّلين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فيقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع عدّة بصورةٍ لافتة أن لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها، وهي عبارة الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] التي فيها إصلاح لعقائد الأمة وإغلاق لأبواب الفساد الطارئة عليها، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما أحسن ما قال مالك: «لن يصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم، عوضوا ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وغيره)[2]، وقال الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا هذه الكلمة العظيمة: (جملة إن لم تكن من كلام النبوّة فإن عليها مسحة من النبوّة، ولمحة من روحها، وومضة من إشراقها)[3].

فيبين الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذي أصلح صدر هذه الأمة هو القرآن والسنّة، ولن يصلح متأخرو هذه الأمة إلا بالقرآن، فيقول موضحًا هذه الحقيقة:

---

(١) انظر: الشفا، للقاضي عياض (٢/ ٢٠٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (٢/ ٢٤٣).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٩٣).

(ما دام هذا القرآن موجودًا بين المسلمين، يقرؤونه ويجلّونه ويضعونه في مكانه من التقديس، فإن الأمل في إصلاح المسلمين لا ينقطع، لأن أوائلهم ما صلحوا إلّا به، فلا يصلح آخرهم إلّا به)[١]، وأما الآثار الهائلة التي سيحدثها القرآن في الأمة فقد ذكر الإمام رَحِمَهُ الله جانبًا منها بقوله: (وما هي إلّا هَبَّة من هَبَّاته ونفحة من نفحاته تهُب علىٰ نفوس هذا القطيع المبدّد وإذا قلوبهم مجتمعة، ونوافرهم[٢] متآلفة، وأمرهم جميع، وإذا بالمعجزة القرآنية التي جمعت العرب بعد ما كانوا عليه من تشتّت وتدابر، تعود ثانية فتنقل هذه الأمم من حال إلىٰ حال)[٣].

ويزيد تأكيد حقيقةِ صلاح القرون الأولىٰ بهدي الكتاب والسنة فيقول: (بل إن هذه الأمة استقامت في مراحلها الأولىٰ علىٰ هدي القرآن وعلىٰ هدي من أنزل علىٰ قلبه فبيّنه بالأمانة، وبلغه بالأمانة وحكم به بالأمانة وحكمه في النفوس بالأمانة وعلم وزكىٰ بالأمانة ونصبه ميزانًا بين أهواء النفوس وفرقانًا بين الحق والباطل، وحدًا لطغيان الغرائز وسدًا بين الوحدانية والشرك)[٤]، وبيّن رَحِمَهُ الله استمساك القرون الأولىٰ بالكتاب والسنة وتحاكمهم إليهما في كل أمر فيقول: (فكان أول هذه الأمة يحكمونه في أنفسهم، ويقفون عند حدوده، ويزنون به حتىٰ الخواطر والاختلاجات، ويردون إليه كل ما يختلف فيه الرأي أو يشذ فيه الفكر، أو يزيغ فيه العقل، أو تجمح فيه الغريزة، أو يطغىٰ فيه مطغىٰ النفس)[٥]، وهذه غاية شريفة إن وصل إليها المؤمن استقام له أمر دينه ودنياه وآخرته.

ويبيّن رَحِمَهُ الله جوانب من صلاح صدر هذه الأمة، وكون هذه الحقيقة محلّ تسليم وموضع يقين، فيقول: (وصلاح أول هذه الأمة شيء ضربت به الأمثال،

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٧٩).

(٢) النَّفْرُ: التَّفَرُّقُ. لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٢٢٤)، وَنَفَرُوا نَفَرًا تَفَرَّقُوا. المصباح المنير، للفيومي (٢/ ٦١٧).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٧٩).

(٤) آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٥) المرجع السابق.

وقدمت عليه البراهين، وقام غائبه مقام العيان، وخلّدته بطون التواريخ، واعترف به الموافق والمخالف، ولهج به الراضي والساخط، وسجّلته الأرض والسماء، فلو نطقت الأرض لأخبرت أنها لم تشهد- منذ دحدحها الله-[1] أمة أقوم علىٰ الحق وأهدىٰ به من أول هٰذه الأمة)[2]، ثم عدّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلةً علىٰ مظاهر صلاح الرعيل الأول -رضوان الله عليهم- التي تميّزوا بها ولم يأت بعدهم مثلهم فيها؛ من توحيدهم لله تعالىٰ واتحاد قوّتهم علىٰ الخير، واتفاق ظواهرهم وبواطنهم علىٰ الخير، وإقامة العدل وبذل الإحسان حتىٰ كانوا أكمل إنسانيّةً ممن بعدهم[3].

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن صلاح السلف إنما كان سببه القرآن؛ فيقول: (ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحًا بالجبلة والطبع، فالرعيل الأول منهم وهم الصحابة كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصْلَحَهم القرآن لما استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام)[4]، ثم يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثمار ذلك الاعتصام بالكتاب وآثاره علىٰ السلف، وما سيكون للخلف منه لو اعتصموا بالقرآن: (فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف، ولا يصلح المسلمون ويسعدون إلا إذا رجعوا إلىٰ القرآن يلتمسون فيه الاشفية لأدوائهم، والكبح لأهوائهم، ثم التمسوا فيه مواقع الهداية التي اهتدىٰ بها أسلافهم)[5]، ومن تلك الثمار والآثار أيضًا: (أن المسلمين الأولين صلحوا فأصلحوا العالم، وسادوه فلم يبطروا، وساسوه بالعدل والرفق، وزرعوا فيه

---

(١) أي: بسَطَها ووسّعها، فالدَّالُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ اتِّسَاعٍ وَتَبَسُّطٍ.

انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٢٦٥).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٩٣-٩٤).

(٣) انظر: آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٤) آثار الإمام (٤/ ٢٢٧).

(٥) آثار الإمام (٤/ ٢٢٧).

الرحمة والحب والسلام، وأن ذلك كله جاءهم من هذا القرآن، لأنه الشيء الجديد الذي حوّل أذهانهم، وهذّب طباعهم، وثبّت الفضائل في نفوسهم)[١].

ويواصل الإمام ﵀ بيان جوانب من الإصلاح الذي جاء به القرآن، فيذكر من ذلك أنه: (هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة، وحرّر العقول من ربقة التقاليد السخيفة، وفتح أمامها ميادين التأمّل والتعقّل، ثم زكّىٰ النفوس بالعلم والأعمال الصالحة وزيّنها بالفضائل والآداب، والقرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية، وداوىٰ بالوحدة ما جرحته الفرقة واجترحته العصبية، وسوّىٰ بين الناس في العدل والإحسان فلا فضل لعربي -إلا بالتقوىٰ- علىٰ عجمي، ولا لملك علىٰ سُوقَة[٢] إلا في المعروف، ولا لطبقة من الناس فضل مقرّر علىٰ طبقة أخرىٰ)[٣].

وخلاصة القول في ذلك يبيّنها الإمام ﵀ بقوله: (القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها. وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر ولا يهضم له حق علىٰ أساس من الحب والعدل والإحسان. والقرآن هو الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل: فالعقائد فيه صافية، والعبادات خالصة، والأحكام عادلة، والآداب قويمة، والأخلاق مستقيمة، والروح لا يهضم لها فيه حق، والجسم لا يضيع له مطلب. هذا القرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه. فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلىٰ كتاب ربّها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير علىٰ ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيّدها ويأخذ بناصرها وهو علىٰ كل شيء قدير)[٤].

---

(١) المرجع السابق، وانظر: آثار الإمام (١/١٥٨-١٥٩).

(٢) السُّوقةُ مِنَ النَّاسِ: الرَّعِيَّةُ ومَنْ دُونَ المِلك، ممن لم يكن ذا سلطان.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ١٧٠)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي (٨٩٦).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٤) آثار الإمام (٤/ ٩٥).

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن انصراف الأمة اليوم عن أسباب الرفعة التي أخذ بها الأولون، وهجرهم للقرآن الذي أصلح سلفهم، وافتتانهم بالآراء والمصطلحات المتجددة وغلوّهم في تمجيد العقل؛ قد جرّ عليهم الغفلة والانحطاط في القرون الأخيرة والتفرّق الشنيع في الدين أصوله وفروعه، وإن الاقتصار علىٰ حفظ كلمات القرآن مع نبذ أحكامه لا يغني ولا ينفع ما لم يُفهم ثم يعمل به[(١)].

وتراث الإمام الإبراهيمي رحمه الله غزيرٌ بحديثه العَذب عن القرآن العظيم وتقريره لفضائله وآثاره في إصلاح الأمم؛ فمن ذلك بيانه أن سر القرآن ليس في الحفظ الجاف ولا مجرد التلاوة، وليس من مقاصد إنزاله تلاوته علىٰ الأموات واتخاذه مكسبة، والاستشفاء به من الأمراض الجسمانية فحسب، وإنما السر في تدبره وفهمه، وفي إتباعه والتخلق بأخلاقه، فهذه هي الطريقة الواحدة التي اتبعها المسلمون الأولون فسعدوا بإتباعها والاستقامة عليها[(٢)].

ومن ذلك تقريره أن حق القرآن الذي يجب أن نقوم به هو تدبر معانيه وإتباعه، وأن هاتين الآيتين هما جواز الداخل إلىٰ أقطار القرآن: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩]، فالتدبر والإتباع هو ما يجب التنبيه عليه والتذكير به دائمًا، فالإتباع ثمرة التدبر، ولا تتحقق غايات القرآن إلا به، وهو سر التديّن والتّألّه، وفيه العصمة من الضلال والهلاك[(٣)].

ومن ذلك بيانه أن السلف -رضوان الله عليهم- قد علموا مقاصد إنزال القرآن، وأنه كتاب الدهر ودستور الحياة، وحجة الله الباقية إلىٰ قيام الساعة، وأنه كفيلٌ بإسعاد البشر في الحياتين، وأن من تعطيله عدم فهمه وعدم العمل به وعدم

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ١٦٠-١٦١).

(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٢١-٣٢٢).

تحكيمه. ففهموه وحكموه ورجعوا إليه، فرجعوا إلىٰ معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه(١).

ومن ذلك بيانه أن الأمة الإسلامية لم يزدهر تاريخها إلا بالقرآن؛ فالقرآن هو الذي ربّاها وأدّبها وزكّاها وهذّبها، وأعلىٰ الهمم، واستثار القوىٰ، وصَقَل الملَكات، وقوّىٰ الإرادات، ومكّن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوب بالرحمة، وحفّز الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر، وأن القرآن حين أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم علىٰ أخلاقه، علّمهم الإيمان والأمان والإحسان(٢).

ومن ذلك تقريره أن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلّا إذا فهمته عقول كعقول السلف، وعملت به نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم، وأنه لو فُهم كما فهمه السلف، وعُمل به كما عملوا به، وحكّمناه كما حكّموه؛ وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعةً له وموزونةً بميزانه؛ لكُنّا به أعزّةً وأئمة(٣).

ومن ذلك تقريره أن الدعوة إلىٰ القرآن هي أصل دعوات الحق، وأن الواجب علىٰ أهل التقوىٰ -في ظل ابتعاد الناس عن القرآن- أن يصرفوا قوّتهم كلها في دعوة المسلمين إلىٰ القرآن ليقيموه ويحقّقوا الحكمة من تنزيله، ويحكّموه في أهواء النفوس ومنازع العقول، ويسيروا بهديه وعلىٰ نوره إلىٰ الخير والسعادة(٤).

ومن ذلك بيانه أن من آيات حفظ الله لدينه أن لا يخلو عصرٌ من العصور من دعاةٍ وأئمة يوجّهون الأمة إلىٰ القرآن، ومفسّرين يشرحون مراد الله منه،

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٢٤).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٦٣).

(٣) انظر: آثار الإمام (٢/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٤) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٠١).

ويجعلونه حجة علىٰ المذاهب والاصطلاحات ومنازع الرأي والعقل، وحكمًا بينها، وأصلًا ترجع إليه ولا يرجع إليها، فتؤخذ منه العقائد وأمور الدين[1].

وبعد كل ما مضىٰ يعلن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أنه مهما وُصف القرآن فلن يُؤتىٰ بأبلغ من وصف القرآن لنفسه؛ فيقول: (إن وصف القرآن وأساليب التشويق إلىٰ القرآن لا توجد علىٰ أكملها في غير القرآن، فلو أن البلغاء من كل أمة وفي كل جيل اجتمعوا علىٰ أن يصفوه ببعض ما وصف به نفسه، وكانت قلوبهم علىٰ قلب رجل واحد وألسنتهم علىٰ لسان رجل واحد؛ لعجزوا وقعد بهم القصور دون الغاية من ذلك)[2].

ويمكن أن نجمل في النقاط التالية ما قرره الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ من أن هذه الأمة لا تصلح إلا بما صلح به أولها:

- أن الذي أصلح صدر هذه الأمة هو القرآن والسنّة، ولن يصلح متأخرو هذه الأمة إلا بالقرآن.

- أن القرآن هو الكفيل بجمع الأمة من بعد التفرق.

- أن القرون الأولىٰ استمسكوا بالكتاب والسنة وتحاكموا إليهما في كل أمر.

- أن من مظاهر صلاح الرعيل الأول التوحيد والاتحاد وعدم النفاق، وإقامة العدل وبذل الإحسان وكمال الإنسانيّة.

- أن انصراف الأمة عن أسباب الرفعة التي أخذ بها الأولون جرّ عليهم الغفلة والانحطاط والتفرّق في الدين.

- أن الاقتصار علىٰ حفظ القرآن مع نبذ أحكامه لا يغني ولا ينفع.

- أن الحق الواجب للقرآن هو تدبر معانيه وإتباعه.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٢٩).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٢٢).

- أن الأمة الإسلامية لم يزدهر تاريخها إلا بالقرآن.

- أن القرآن لا يؤتي آثاره في الإصلاح النفوس إلّا إذا فهم بفهم السلف وعُمل بعملهم.

خامسًا: مكانة السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن

اعتنىٰ الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ ببيان مكانة السنة كما اعتنىٰ ببيان مكانة القرآن؛ فهما صنوان لا يختلفان، وقرينان لا يفترقان، فمما قرره الإمام أهمية الاعتصام بالسنة النبوية واتّباعها في كل أمر، وعلاقة ذلك بصحة العقيدة، واعتباره رأس المال في الدين؛ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما رأس المال في الدين فهو تصحيح العقائد، وتصحيح العبادات، وتصحيح الأخلاق الصالحة، واتباع سنّة نبيّنا ﷺ في كل ما فعل وترك، والمحافظة عليها والانتصار لها، ونبذ البدعَ المخالفة لها)[1]، ثم يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ بيانه لمكانة السنة من الدين وأن شرط قبول العمل وصحته موافقة ما جاء عن النبي ﷺ، فيقول: (وكل ما خالف السنّة الثابتة عن نبيّنا ﷺ فهو بدعة)[2]، ثم يقول: (وصحّحوا عباداتكم بمعرفة أحكامها وشروطها ومعرفة ما هو مشروع وما هو غير مشروع، فإن الله تعالىٰ لا يقبل منكم إلا ما شرعه لكم علىٰ لسان نبيّه ﷺ)[3]، فإذا كان أمر السنة بهذا الحال فلا مناص لأحد عنها، ولا عذر في تنكّب طريقها والزيغ عنه.

ويبين الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ شيئًا من مكانة السنة النبوية وخصائصها ببيان عدة أمور:

---

(١) آثار الإمام (١/٤٠٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

١- أنها بيان لكتاب الله تعالىٰ وتفسيرٌ له، توالفه ولا تخالفه.

٢- أنها شرح عملي للدين الذي جاء من عند الله تؤيده ولا تعانده.

٣- أنها تشتمل علىٰ حقائق ودقائق فهمها السلف ونشروها.

٤- أنها طريق هداية وسعادة في الدنيا والآخرة.

٥- أنها وصلتنا عن طريق السلف الهداة المؤتمنين علىٰ فهمها والعاملين بها والواقفين عند حدودها.

٦- أنها موصِلة للحياة العزيزة الكاملة[١].

ويؤكد الإمام الإبراهيمي ﷺ كون السنة بيانًا للقرآن وتفسيرًا له بتقرير أهمية الفقه بها وبمقاصدها حتىٰ يُفهم القرآن، فهي الشارحة والمبينة له، فيقول: (وفهم القرآن يتوقف -بعد القريحة الصافية والذهن النير- علىٰ التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل)[٢]، ويزيد الأمر تأكيدًا فيقول عن علاقة السنة بتفسير القرآن: (أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن ويستثيرون أسراره وحكمه معتمدين علىٰ القرآن نفسه وعلىٰ السنة وعلىٰ البيان العربي)[٣].

ويقرر ﷺ أن من طريقة السلف في فهم القرآن اتخاذ السنة أداةً من أدوات فهمه، فيقول: (وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة، ومن وراء ذلك فطرة سليمة وذوق متمكن ونظر سديد وإخلاص غير مدخول واستبراء للدين قد بلغ من نفوسهم غايته وعزوف عن فتنة الرأي وفتنة التأويل)[٤]، كما يقرر ﷺ أن الاهتداء بالقرآن لا يكون إلا بفهمه

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٤٠٦).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٢٥٠).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٢٥١).

(٤) المرجع السابق.

فهمًا صحيحًا، وأن فهمه الصحيح متوقف علىٰ أمور، من أهمها: الاطّلاع الواسع علىٰ السنة القولية والعملية التي هي شرح وبيان للقرآن[1].

ويبرز الإمام الإبراهيمي رَحَمَهُ اللَّهُ جوانب مهمة من مكانة السنة النبوية، وهو تفسير أعمال وأقوال وأحوال ومآخذ ومتارك النبي ﷺ، وعدّه ذلك فقهًا عاليًا، بل سماه «لباب الدين»، و«روح القرآن»، و«عصارة السنة»[2]، ويذكر رَحَمَهُ اللَّهُ أن هذا هو الذي ورثه الصحابة وأتباعهم إلىٰ يوم الدين عن النبي ﷺ، وأن من ثمراته وآثاره سعادة المسلمين بفهمه وتطبيقه والعمل به، وإعزازهم في الدنيا والآخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في الأمّة لتحيا به، ونصحّح به عقائدها، ونقوّم به فهومها، فتصحّ عباداتها وسائر أعمالها[3].

ونجمل ما بيّنه الإمام الإبراهيمي رَحَمَهُ اللَّهُ من مكانة السنة النبوية وعلاقتها بالقرآن في النقاط التالية:

- أن اتباع سنّة النبي ﷺ في كل ما فعل وترك هو رأس المال في الدين.
- أن كل ما خالف السنّة الثابتة عن النبي ﷺ فهو بدعة.
- أن الله تعالىٰ لا يقبل من العمل إلا ما شرعه علىٰ لسان نبيّه ﷺ.
- أن السنة بيان لكتاب الله تعالىٰ وتفسيرٌ له وشرح عملي للدين.
- أن السنة طريق هداية وسعادة في الدنيا والآخرة.
- أن السلف اتخذوا السنة أداةً من أدوات فهم القرآن.
- أن الاهتداء بالقرآن متوقف علىٰ الفهم الصحيح والفهم الصحيح متوقف علىٰ الاطّلاع الواسع علىٰ السنة.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٢٦).
(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٩١).
(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ١٩١).

المبحث الثالث: إعلاء منزلة السلف

تمهيد.

أولًا: مناقب السلف.

ثانيًا: فضل علم السلف.

ثالثًا: جوانب من منهج السلف.

رابعًا: تبنّي الإبراهيمي لمنهج السلف.

تمهيد

السلف الصالح -رضوان الله عليهم- هم أصحاب النبي ﷺ ومن تَبِعَهم وسار على هديهم من القرون الثلاثة المفضّلة التي أثبت النبي ﷺ لها الخيرية[1]، والصحابي هو مَنْ لقيَ النبيَّ ﷺ مسلمًا ثمَّ ماتَ على الإسلام[2].

وهم الذين ثبت فضلهم ومنزلتهم بثناء الله تعالى عليهم في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وثناء النبي ﷺ عليهم بقوله: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[3]، ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبّر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف؛ أن خير قرون هذه الأمة -في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة- القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة. وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ؛ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا،

---

(١) انظر: لوامع الأنوار، للسفاريني (١/ ١٦١)، والتحف في مذاهب السلف، للشوكاني (١٨).

(٢) انظر: شرح التبصرة والتذكرة (٢/ ١٢٠)، والصارم المسلول (٥٧٦)، وفتح المغيث، للسخاوي (٤/ ٧٨).

(٣) رواه البخاري برقم: (٢٦٥٢)، ومسلم برقم: (٢٥٣٣).

وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، وأقْوَمَها هديًا، وأحسنها حالًا، قومًا اختارهم الله تعالىٰ لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم)[١]، وما أحسن قول الشافعي رحمه الله: (هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدىٰ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا)[٢].

ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب النبي ﷺ كما وصفهم الله في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة للنبي ﷺ في قوله: «**لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[٣]، فنؤمن ونقرّ بما جاء به الكتاب أو السنة أو الإجماع من فضائلهم ومراتبهم رضي الله عنهم، ولا نخوض فيما شجر بينهم، فالآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، ولا نعتقد عصمة كل واحد من الصحابة عن كبائر الإثم وصغائره؛ فالذنوب تجوز عليهم في الجملة، ولهم سوابق وفضائل توجب مغفرة ما يصدر منهم، ولهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، والقدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليلٌ مغمورٌ في جنب فضائهم ومحاسنهم كالإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح، فهم رضي الله عنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وهم صفوة الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها علىٰ الله[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر (٢/٩٤٧) رقم (١٨١٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية (٤/١٥٧-١٥٨).

(٣) رواه البخاري برقم: (٣٦٧٣)، ومسلم برقم: (٢٥٤٠).

(٤) انظر: العقيدة الواسطية، لابن تيمية (١١٥-١٢٢).

وقد قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان)(١).

وقال الإمام أبو زرعة رحمه الله: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدىٰ إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولىٰ وهم زنادقة)(٢)، والإمام الأوزاعي رحمه الله يقول: (عليك بآثار من سَلَف، وإن رَفَضَك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك بالقول)(٣).

فحب الصحابة رضي الله عنهم وتوقيرهم والتمسّك بما كانوا عليه؛ من أصول أهل السنة، فشعار أهل البدع ترك مذهب السلف، وجملة من أهل البدع كالباطنية والرافضة يجمعهم الطعن في الصحابة رضي الله عنهم، والطعن في الصحابة قدح في نقل الرسالة أو فهمها أو اتباعها، بل هو طعن في القرآن وفي الرسول ﷺ وفي دين الإسلام(٤).

وقد أدخل العلماء مبحث الصحابة في كتب العقائد لأسباب، منها:

١- أن الموقف من الصحابة يتعلق به قدر كبير من أصول الدين من جهة حفظه ونقله وسلامته من النقص والخلل، فالاعتقاد في الصحابة مؤثر علىٰ الاعتقاد في أصول الدين.

---

(١) العقيدة الطحاوية، للطحاوي (١٤).

(٢) الكفاية، للبغدادي (٤٩).

(٣) الشريعة، للآجري (٤٤٥) برقم (١٢٧).

(٤) انظر: الفتاوىٰ، لابن تيمية (٤/ ١٠٢-١٠٣، ١٥٥، ٤٢٩)، ومنهاج السنة، لابن تيمية (٧/ ٩)، وحاشية علىٰ شرح الطحاوية، للعبداللطيف (٢/ ٨٣٤).

٢- أن الموقف من الصحابة دخله الاختلاف بين عدة طوائف وفرق، فيُذكر الاعتقاد الصحيح في الصحابة لوجود المخالف فيه، ولكونه مميّزًا لبعض تلك الطوائف المخالفة في العقيدة[١].

ومن هذا المنطلق حرص الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تقرير منهج السلف وإظهاره وإشهاره، والدعوة إليه وإلىٰ التمسك به، وبيان فضل السلف -رحمهم الله- وتقدمهم في العلم والعمل، وفي تقرير ذلك ترسيخ للعقائد الصحيحة المأخوذة عن السلف ودفع لما خالفها من زيف وباطل، وقد انتظمت جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلاء منزلة السلف علىٰ النحو التالي:

أولًا: مناقب السلف.

ثانيًا: فضل علم السلف.

ثالثًا: جوانب من منهج السلف.

رابعًا: تبنّي الإبراهيمي لمنهج السلف.

وستجد فيما يلي ذكر السلف تارةً دون النص علىٰ الصحابة، فيدخل الصحابة في السلف حينئذ ويكون الجميع مقصودا بالذكر، وتجد ذكر الصحابة تارةً دون السلف، فيكون المقصود بذلك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وبين يديك تفصيل المطالب السالف ذكرها.

---

(١) انظر: اللآلئ البهية (٢/ ٣٣٤)، والعقود الذهبية (٢/ ٣١٧-٣١٨).

أولًا: مناقب السلف

لا ريب أن فضائل الصحابة الكرام والسلف الصالح ﭬ ومناقبهم أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، فكل من قرأ في سيرهم وعرف شيئا من أثرهم أقرّ بفضلهم وسابقتهم في كل خير، فهم نتاج تربية نبي الإسلام محمد ﷺ، وهم أصفياؤه من الخلق، وقد عاشوا بالقرآن ومع القرآن، فأثمر فيهم كل فضيلة، وأبعد عنهم كل رذيلة، وزاد في ترقّيهم أنهم يصبحون ويمسون بين يدي أشرف الخلق وسيد البشرية محمد ﷺ، فيقتدون به وهو الأسوة الحسنة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فكان جيلهم المثال الأعلىٰ والنموذج الأسمىٰ، وكانت سيرهم منهلًا يستقي منه كل مسلم، وظلاًّ يتفيّؤه كل مؤمن، ولا ريب أن بيان هذه الفضائل والمناقب يُعلي منزلتهم في النفوس ويرفع مكانتهم للمحل اللائق بهم والملائم لأحوالهم، ويحملُ علىٰ اتباع سننهم واقتفاء أثرهم، واجتناب ما جنح عن ذلك من البدع والضلالات التي ليست من هداهم في شيء، فهم أصحّ عقيدةً وأسلم عملًا وأرفع سلوكًا رضي الله عنهم وأرضاهم.

السلف أكمل إيمانًا من الخلَف.

وقد بيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله بعض تلك الجوانب من فضائلهم ومناقبهم -رضوان الله عليهم- فمن ذلك تقريره أن إيمان السلف ﭬ أكمل من إيمان

غيرهم، وذلك لفهمهم الصحيح لحقيقة الإيمان، فيقول: (يعتقد المسلمون كلّهم أن سلفهم كانوا أكمل إيمانًا من خلفهم وهذا صحيح، ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف حتىٰ لكأنهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه، وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح)[1]، وقد تناول الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة الإيمان بمفهوم السلف، وبيّنّاه في موضعه[2].

علو منزلة السلف في العلم والعمل.

ومن ذلك بيانه لعلو منزلتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في العلم والعمل، وانتفاعهم بالقرآن العظيم واهتداؤهم به ووقوفهم عند حدوده، حتىٰ غدوا به صالحين مصلحين، وأصبحوا به سادةً وقادة، فيقول في ذلك: (ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحًا بالجبلة والطبع، فالرعيل الأول منهم وهم الصَحابة كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصْلَحَهم القرآن لما استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف، ولا يصلح المسلمون ويسعدون إلا إذا رجعوا إلىٰ القرآن يلتمسون فيه الأشفية لأدوائهم، والكبح لأهوائهم، ثم التمسوا فيه مواقع الهداية التي اهتدىٰ بها أسلافهم)[3].

عِظَم انتفاع السلف بالقرآن.

ويؤكد رَحِمَهُ اللَّهُ أن صلاح جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم واستقامتهم إنما كان سببها وباعثها: القرآن، فيقول: (بل إن هذه الأمة استقامت في مراحلها الأولىٰ علىٰ

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٢) انظر صفحة (٣٧) من هذا البحث.

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٢٧).

هدي القرآن وعلىٰ هدي من أنزل علىٰ قلبه فبيّنه بالأمانة، وبلغه بالأمانة وحكم به بالأمانة وحكمه في النفوس بالأمانة وعلم وزكىٰ بالأمانة ونصبه ميزانًا بين أهواء النفوس وفرقانًا بين الحق والباطل، وحدًا لطغيان الغرائز وسدًا بين الوحدانية والشرك. فكان أول هذه الأمة يحكمونه في أنفسهم ويقفون عند حدوده ويزنون به حتىٰ الخواطر والاختلاجات، ويردّون إليه كل ما يختلف فيه الرأي أو يشذّ فيه الفكر، أو يزيغ فيه العقل، أو تجمح فيه الغريزة، أو يطغىٰ فيه مطغىٰ النفس. فالذي صلح به أول هذه الأمة، حتىٰ أصبح سلفًا صالحًا، هو هذا القرآن)[١].

حرص الصحابة الشديد علىٰ الاقتداء بالنبي ﷺ.

وقد فهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم كلام ربهم كما تلقوه مباشرةً عن نبيهم ﷺ، وكانوا خير عاملين بكتاب الله، ومن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهنا يتحدث الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم علىٰ الاقتداء بالنبي ﷺ في جميع أحواله وشؤونه الدينية والدنيوية، حتىٰ تحقق آثارها العظيمة في نفوسهم، فيقول: (كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمّل الإسلام بقوة يحرصون علىٰ أخذ همات العبادات من فعله ﷺ، كما يحرصون علىٰ التمثّل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله ومعاملته لخلقه، وعلىٰ التأسي به في الأفعال والترك في شؤون الدين والدنيا، . . . وإن في قول قائلهم: «أنا أشبهكم صلاة برسول الله»[٢] لدليلًا علىٰ تغلغل هذه النظرة في مستقرّ اليقين من بصائرهم، وأنهم كانوا يتشدّدون في أخذ الصور العملية من أفعاله ﷺ كما هي، ويتحرجون من التقصير فيها، ومرماهم في ذلك أن العمليات المأخوذة من طريق العيان أقرب إلىٰ اليقين وموافقة مراد الله منها، وبذلك تتحقق آثارها في النفوس)[٣].

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٢) القائل هو أبو هريرة رضي الله عنه كما ورد في مسند الإمام أحمد برقم (٨٢٣٦)، ومصنف ابن أبي شيبة برقم (٢٤٩٦)، وغيرهما.

(٣) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

جيل الصحابة ﷺ أصلح جيل.

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن جيل الصحابة ﷺ أصلح الأجيال، وبصلاحه تُضرب الأمثال، فيقول: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . . . والأمة المشار إليها في هذه الجملة أمّة محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلّم، وصلاح أول هذه الأمة شيء ضربت به الأمثال، وقدمت عليه البراهين، وقام غائبه مقام العيان، وخلّدته بطون التواريخ، واعترف به الموافق والمخالف، ولهج به الراضي والساخط، وسجّلته الأرض والسماء)[1].

ويزيد تأكيدًا علىٰ أنه لا صلاح للأمة إلا بما صلح به سلفها -رضوان الله عليهم- من إقامة الدين حق إقامة، وكمال الانقياد لله جل وعلا ولكتابه، فيقول رحمه الله: (الجسم الإسلامي لا مطمع في شفائه إلا إذا عولج بالأشفية القديمة التي صحّ بها جسم سلفه، وغذي بالأغذية الصالحة التي قوي عليها سلفه، وذلك أنه أقام الدين فاستقامت له الدنيا، وانقاد إلىٰ الله فانقاد له عباد الله، وأخذ كتاب الله بقوة، فمشىٰ علىٰ نوره إلىٰ السعادة في الدارين، وأرشده إلىٰ أن سعادة الدنيا عز وسلطان، وعدل وإحسان، وأن سعادة الآخرة حياة لا نصب فيها ولا نهاية، واطمئنان لا خوف معه ولا كدر في أثنائه، ورضوان من الله أكبر)[2].

فضل الصحابة ﷺ علىٰ من بعدهم.

ومما ذكره من مناقبهم ﷺ؛ فضلهم علىٰ الأجيال من بعدهم، ببذلهم لهم ثمار جهادهم من أجل دين الإسلام، فيقول: (فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل، وما غرس محمد شجرة الإسلام ليأكل هو وأصحابه ثمارها، ولكن زرع الأولون ليجني الآخرون)[3]، ويقول في موضع آخر: (هذا الوطن مسلم منذ

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٩٣).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٣١٠).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٤٨٣).

غرس فيه الفاتحون من أصحاب محمد ﷺ شجرة الإسلام وسقوها بدمائهم، فكيف يعلو فيه صوت ملحد أو صوت وثني؟)[1]، ويوضح رحمه الله أن السر في فتوحات الصحابة رضي الله عنهم هو قوة الروح لا العتاد: (إن تلك الفئة القليلة من أصحاب محمد ما فتحوا الكون بقوة العَدد والعُدد ولكن بقوة الروح، فانفخوا في هذه الأرواح الضعيفة التي أضعفها الضلال عن طريق الحق تنقلب نارًا متأججة)[2].

ولا غرو فقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم -كما وصفهم- أمناء الوحي وهداة البشرية وحملة الرسالة المحمدية: (هذا الدين العظيم دين الله السماوي الذي بلّغه محمد ﷺ وفسّره بأقواله وشرحه بأفعاله، ووسعته لغة العرب، وحمله إلينا الأمناء الهداة)[3].

أثر الصحابة في انتشار الإسلام وفتح البلدان.

ويُرجع الإمام الإبراهيمي رحمه الله الفضل في نشر الإسلام وتمكينه شمال افريقيا إلىٰ الصحابة الكرام رضي الله عنهم قادة الإسلام الذين جمعوا بين قيادة الأبدان وقيادة الأرواح، فيقول بعد كلامه عن فتوحاتهم العظيمة: (وإلىٰ هؤلاء الأبطال العظماء الذين جمعوا بين قيادة الكتائب وقيادة الأرواح، يرجع الفضل في تثبيت الإسلام وإرساء قواعده بافريقيا الشمالية، فلم تتزعزع له قاعدة، ولم ينقض له جدار من ذلك اليوم إلىٰ الآن، علىٰ رغم الفورات المعادية له، المنبعثة من الضفة الشمالية للبحر الأبيض)[4].

ويوضح رحمه الله أن إيمان الفاتحين من الصحابة والتابعين، وإخلاصهم فيه، وصدقهم وإيثارهم للحق، كان ذلك كله سببًا لنصرهم وتقدمهم الفائق سرعةً وتمكينًا رغم الصعوبات التي كانت تحيط بهم، فيقول في ذلك: (وشأن الفتح

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٢٠٧).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٢٧١).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٦٩).

(٤) آثار الإمام (٥/ ١٠٤).

الإسلامي لأفريقية علىٰ يد هؤلاء الأبطال كله عجيب يشبه الخوارق، فقد تمّ في ثلاث سنوات تقريبًا وبسط الإسلام ظلّه علىٰ تلك الأقطار الواسعة ذات الأمم التي لا يحصيها إلا الله، من حدود ليبيا إلىٰ السوس الأقصىٰ[١] علىٰ شواطئ المحيط الأطلسي، مع بعد الشقة ووعورة المسالك وقلة عدد المسلمين، وكثرة أعداء دعوتهم، وجهل الغزاة بمعالم الوطن ومجاهله، وبعادات أهله ولغاتهم، ولكنه الإيمان والإخلاص فيه وصدق العزيمة، وإيثار الحق)[٢].

وعن طرائق الصحابة الكرام رضي الله عنهم في الدعوة ونشر دين الإسلام في الأمصار، وما ترتب علىٰ ذلك من آثار خالدة، يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (فقد حمل الفاتحون وفيهم أولو بقية من أصحاب رسول الله ﷺ تعاليم الإسلام إلىٰ شمال أفريقيا، وقلب هذا الشمال هو ما نسمّيه اليوم الجزائر، فنشروها بالإقناع، وثبتوها بالشواهد العملية بعد أن اجتثوا من الشمال وثنية البربر[٣] وبقايا العتو الروماني، نشروا عقائد الإسلام حتىٰ استقرّت في النفوس، وعباداته حتىٰ اطمأنت إليها النفوس، وأحكامه حتىٰ حقّقت العدل، وحفظت الحقوق، وصانت المصالح، وضمنت المساواة، وأخلاقه حتىٰ تعايش الناس علىٰ المحبة وتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ)[٤]، وكان ذلك كله نتيجةً لما تلقَّوه وتعلّموه من دين الإسلام، فإنهم قد تخلقوا بأخلاق الإسلام فكانوا هداة الكون ودانت لهم المشارق

---

(١) السوس: بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية، وقيل: السوس بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصىٰ: كورة أخرىٰ مدينتها طرقلة، ومن السوس الأدنىٰ إلىٰ السوس الأقصىٰ مسيرة شهرين وبعده بحر الرمل.
انظر: معجم البلدان، للحموي (٣/ ٢٨١).

(٢) آثار الإمام (٥/ ١٠٤).

(٣) البربر: هم جيل كبير، وقبائل كثيرة، وشعوب جمة، وطوائف متفرقة، وأكثرهم ببلاد المغرب، وقد صار بعضهم من المغرب إلىٰ مصر، فنزلوا وتلبسوا بالعرب، وقد اختلف في نسبهم وعروبتهم اختلافًا كثيرًا.
انظر: اللباب، لابن الأثير (١/ ١٣٢)، وقلائد الجمان، للقلقشندي (٣٣-٣٥).

(٤) آثار الإمام (٥/ ٧٢).

والمغارب، وعمَّ نفعهم الأمم، يقول الإمام رحمه الله موضحًا ذلك: (وإن التاريخ شهد هذا الدين . . . وشهد أن سلف هذه الأمة ما لمسوا حاستي السعادة إلا به، وما كانوا أساتذة الكون إلا بهديه، ولا دانت لهم المشارق والمغارب إلا بالتأدّب بآدابه والتخلّق بأخلاقه، ثم نشر تلك الآداب وتلك الأخلاق علىٰ الأمم)[١]، وكذلك كانوا -رضوان الله عليهم- أئمة في العلم والعمل، وكانوا هداة مهتدين.

فضل أبي بكر رضي الله عنه وأحقّيّته بالخلافة.

ومما قرره الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان مناقب الصحابة الكرام رضي الله عنهم ما يتعلق بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفضله علىٰ غيره من الصحابة كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فذكر قضية إمامة الصلاة واستخلاف النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه تقديمًا له علىٰ سائر الصحابة، ومنهم الأكابر في العلم والتقوىٰ والدين، فيقول رحمه الله في بيان هذه المسألة: (إن إمامة الصلاة استخلاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، . . . وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم كلما غاب عن المدينة استخلف من ينوب عنه في الصلاة، كما يستخلف -أو قبل أن يستخلف- من ينوب عنه في الحكم بين الناس، وكان إذا جهز سرية أو بعث بعثًا فأهمّ ما يوصي به قوله: وليصل بكم فلان؛ ولم يشغله مرض الموت عن الاهتمام بإمام الصلاة، فاختار لها أبا بكر، وقال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس؛ ولم يَكِل هذه المسألة العظيمة للصحابة، وفيهم جبال العلم وأفذاذ التقوىٰ والدين، ولم يثنه عن اختيار أبي بكر رأي عائشة وحفصة في اختيار عمر)[٢].

ثم يبيّن موقف الصحابة رضي الله عنهم من إمامة الصلاة واستدلالهم بها علىٰ أحقية أبي بكر بالخلافة فيقول: (وإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتبرون إمامة الصلاة درجة فوق الخلافة العظمىٰ، بدليل استدلالهم علىٰ استحقاق أبي بكر للخلافة بتقديم

---

(١) آثار الإمام (١/١٠٨).

(٢) آثار الإمام (٣/١٥٣-١٥٤).

رسول الله إياه لإمامة الصلاة، وقال قائلهم: أفلا نرتضي لدنيانا من ارتضاه رسول الله لديننا؟)[1]، فيتبين لك من كلام الإمام الإبراهيمي رحمه الله السابق توقيره لصحابة رسول الله ﷺ، وموافقته لمذهب أهل السنة والجماعة في تفضيل أبي بكر رضي الله عنه واستحقاقه الخلافة بعد رسول الله ﷺ.

وفي هذه المسألة يقول ابن تيمية رحمه الله: (والتحقيق في خلافة أبي بكر وهو الذي يدل عليه كلام أحمد: أنها انعقدت باختيار الصحابة ومبايعتهم له، وأن النبي ﷺ أخبر بوقوعها علىٰ سبيل الحمد لها والرضىٰ بها، وأنه أمر بطاعته وتفويض الأمر إليه، وأنه دل الأمة وأرشدهم إلىٰ بيعته، فهذه الأوجه الثلاثة: الخبر والأمر والإرشاد؛ ثابت من النبي ﷺ)[2].

كمالات تميّز بها جيل الصحابة والسلف رضي الله عنهم.

ويبيّن رحمه الله جملة من الفضائل والمناقب التي امتاز بها جيل الصحابة رضي الله عنهم في جوانب متعددة، فكانوا أهلًا للاقتداء والاحتذاء، فمن ذلك:

١- قيامهم بالحق واهتداؤهم به.

٢- موافقة ظواهرهم لبواطنهم في الخير.

٣- إقامتهم للعدل.

٤- إحسانهم إلىٰ الغير.

٥- كمال إنسانيتهم.

٦- صحة توحيدهم.

٧- اتحادهم واجتماعهم علىٰ الخير.

---

(١) آثار الإمام (٣/ ١٥٣-١٥٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية (٣٥/ ٤٨).

فيقول موضحًا ذلك: (فلو نطقت الأرض لأخبرت أنها لم تشهد -منذ دحدحها الله-[1] أمة أقوم علىٰ الحق وأهدىٰ به من أول هذه الأمة، ولم تشهد منذ دحدحها الله مجموعة من بني آدم اتّحدت سرائرها وظواهرها علىٰ الخير مثل أول هذه الأمة، ولم تشهد منذ دحدحها الله قومًا بدأوا في إقامة قانون العدل بأنفسهم وفي إقامة شرعة الإحسان بغيرهم مثل أول هذه الأمة، ولم تشهد منذ أنزل الله إليها آدم وعمرها بذريته مثالًا صحيحًا للإنسانية الكاملة حتىٰ شهدته في أول هذه الأمة. ولم تشهد أمّة وحّدت الله فاتّحدت قواها علىٰ الخير قبل هذه الطبقة الأولىٰ من هذه الأمة، هذه شهادة الأرض تؤدّيها صامتة فيكون صمتها أبلغ في الدلالة من نطق جميع الناطقين ثم يشرحها الواقع ويفسّرها العيان الذي لم تحجبه بضعة عشر قرنًا)[2].

ومن فضائل السلف -رضوان الله عليهم- وكمال عقولهم أنهم كانوا أمة واحدةً مجتمعةً علىٰ الحق لا كما آل إليه حال الأمة اليوم من التفرّق والتمزّق، وفي بيان ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي . . . يصبح فيه المسلمون إخوانًا متناصرين أو أعوانًا متآزرين تجمعهم جامعة القرآن وإن فرّقت بينهم المناسب والأوطان . . . يوم يصبحون كما كان سلفهم ذاتًا واحدة تدبرها روح واحدة وتصرفها إرادة واحدة)[3].

يَقَظة السلف في أمر الدين ولزومهم للحق.

ويسرد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً أخرىٰ من فضائل السلف ومناقبهم ومميزّاتهم -رضوان الله عليهم- فمن ذلك يقظة شعورهم وضمائرهم، وشدة

---

(١) دَحَا اللهُ الأرضَ: بَسَطَها.

انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي (١٢٨٢)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٣٣٣).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٩٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٣٨).

حميّتهم لدينهم وحمايتهم له، وحرصهم عليه وعلىٰ تبليغه كما أنزله الله، وفي ذلك يقول عنهم: (وكان كل واحد منهم يرىٰ أنه مُسْتَحْفَظ علىٰ كتاب الله، ومؤتَمَن علىٰ سنّة رسوله في العمل بها وتبليغها كما هي، وحارسٌ لهما أن يحرّفهما الغالون أو يزيغ بهما عن حقيقتهما المبطلون، أو يعبث بهما المبتدعة، فكل واحد منهم حَذِرٌ أن يُؤتَىٰ الإسلام من قِبَلِه، فهو -لذلك- يَقِظ الضمير، متأجّج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبّع لما يأتي الناس وما يذرون من قول وعمل، سريع الاستجابة للحق، إذا دعا داعيه، وإلىٰ نجدته إذا ريع سِربُه أو طُرِق بالسر حِماه)[1]، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع دين الله الذي آمن به.

شجاعة السلف ومبادرتهم في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

ومن مناقبهم -رضوان الله عليهم- ومميزاتهم؛ أنهم لا يسكتون عن الباطل حتىٰ يدمغوه بما معهم من الحق، ذاكرين بذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وفي بيان ذلك يقول الإمام: (وكانوا يأخذون أنفسهم بالفزع لحرب الباطل لأول ما تنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خاطر حتىٰ يوسعوه إبطالًا ومحوًا، ولا يسكتون عليه حتىٰ يستشري شرّه، ويستفحل أمره فتستغلظ جذوره، ويتبوّأ من نفوس العامة مكانًا مطمئنًا. وكانوا يذكرون دائمًا عهد الله، وأنّه أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا علىٰ الله إلا الحق، وأن الحق هو ما جاء به محمد عن ربّه لهداية البشر وصلاح حالهم)[2].

وكان السلف -رضوان الله عليهم- يتميّزون بشجاعة في الحق، لا يخافون معها لومة لائم أيًّا كان، ولا يحابون معها أحدًا أبدا، فكانوا أمّارين بالمعروف نهّائين عن المنكر، وبذلك كانت لهم القيادة والسيادة، وفي تلك المنقبة يقول

---

(١) آثار الإمام (٤/ ١١٠-١١١).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١١).

عنهم الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (كانوا ملوكًا علىٰ الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرّونهم علىٰ باطل ولا منكر ولا يسكتون لهم علىٰ مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضّونهم فيما يسخط الله. بتلك الخلال التي دللنا القارئ عليها باللمحة المنبّهة قادوا الأمة المحمّدية إلىٰ سعادة الدنيا وسعادة الآخرة)[1].

ويؤكد الإمام رحمه الله تلك المنقبة التي امتاز بها السلف -رضوان الله عليهم- وهي شجاعتهم قولًا وفعلًا، وأنهم ارتفعوا بذلك إضافة إلىٰ علمهم وإخلاصهم، فيقول: (وما رفعهم إلىٰ تلك المنزلة بعد العلم والإخلاص إلا أنهم كانوا «حاضرين» غير «غائبين»، كانوا يحضرون مجالس الرأي مبشّرين شاهدين وميادين الحرب مغيرين مجاهدين، طبعهم الإسلام علىٰ الشجاعة بقسميها: شجاعة الرأي وشجاعة اللقاء، فكانوا يلقون الرأي شجاعًا فيقهر الآراء، ويخوضون الميادين شجعانًا فيقهرون الأعداء)[2] فرضي الله عنهم ورحمهم.

استحضار السلف للبُعد الأُخروي.

ومن مناقبهم -رضوان الله عليهم- وفضائلهم؛ إيثارهم للآخرة علىٰ الدنيا، ويقينهم بالجزاء علىٰ البلاء في الدنيا بالنعيم في الآخرة، يبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله ذلك فيقول: (وكانوا يزنون الشدائد التي تصيبهم في الطريق إلىٰ إقامة دين الله بأجرها عنده ومثوبتها في الدار الآخرة، لا بما يفوتهم من أعراض الدنيا وسلامة البدن وخفض العيش وراحة البال، فكل ما أصابهم من ذلك يعدّونه طريقًا إلىٰ الجنة ووسيلة إلىٰ رضىٰ الله)[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (١١٢/٤).

محاسن منهج السلف في الدعوة.

وقد حثّ الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ علىٰ اقتفاء طريقة الصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُم في الدعوة إلىٰ الله، إذ كانوا هداةً بطريقتهم النبوية التي هي أفضل الطرق وأكملها، وتتميّز هذه الطريقة بأمور عدّة منها:

١- إتباع هدي النبي ﷺ واقتفاء أثره.

٢- الاجتهاد في الدعوة إلىٰ الحق.

٣- حماية سنن الدين من دخول البدع.

٤- إظهار محاسن الدين.

٥- تصحيح عقائد الدين.

٦- الحفاظ علىٰ الأخلاق والتربية القويمة.

٧- البصيرة في العلم.

٨- الحكمة في الدعوة.

٩- الإخلاص في العمل.

١٠- تحكيم القرآن في كل ذلك[١].

فكان السلف -رضوان الله عليهم- علىٰ هدي النبي ﷺ في دعوته إلىٰ الحق والدين، وبهداهم يقتدي من بعدهم من أتباعهم.

الصحابة أهل للقدوة فهم أسعد الناس بحقائق الإسلام.

وكان من وصاياه لأهل العلم والدعوة الوصية بإحياء سير الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وتذكير الناس بها لعظيم نفعها، وأن يضربوا الأمثال بها، ويبيّنوا حدود القدوة فيها[٢]، فقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أسعد الناس بحقائق الإسلام، وبثّوا ذلك في

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٢٠١).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ٢٨٦).

العالمين، فكان من آثاره البعد عن الزيغ والضلال، وكانوا متّصلين بالسماء فتميزوا بآدابٍ عليا وتميّزت عقولهم ومقاصدهم واجتمعت علىٰ الحق قلوبهم، وفي بيان هذه المناقب يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (إذا حدّثتكم عن الإسلام، أو أجريته علىٰ لساني، فلست أعني هذه المظاهر الموجودة بين المسلمين، وإنما أعني تلك الحقائق التي سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها العالم، تلك الحقائق التي سارت الإنسانية علىٰ هداها قرونًا فما ضلّت عن سبيل الحق ولا زاغت، إنما أعني تلك الآداب التي صحّحت العقل والفكر، وصحّحت الاتجاه والقصد، ووحّدت القلوب والشواعر. فإن أردتم أن تستبدلوا السعادة بالشقاء فعودوا إلىٰ ذلك الطراز العالي المتّصل بالسماء)[1].

تميّز السلف بالفهم الصحيح للدين والتعبُّد.

ومن مناقبهم -رحمهم الله ورضي عنهم- فهمهم الصحيح للدين والعبادة فيه، ويدل علىٰ ذلك اقتصارهم علىٰ الوجه المشروع فيها، وما أثمره ذلك من عدم إحداثهم في الدين كما حصل فيمن بعدهم، فيقول الإمام في ذلك: (وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنىٰ: أن تعبد الله كما شرع علىٰ الوجه الذي شرع، فالكيفيات داخلة في معنىٰ التعبّد، لذلك لم يحدث السلف زوائد علىٰ العبادات من أذكار وغيرها بدعوىٰ أنها زيادة في الخير، كما عمل الخلف)[2].

السلف معاقِل الأمّة المنيعة.

ومما ذكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان منزلة السلف وفضائلهم ومناقبهم، أنهم كانوا مرجع الأمة وهداتها عند الفتن والمحن، فوصف العلماء الذين يستحقّون هذا اللقب بأوصاف شابهوا بها السلف في قيادتهم للأمة، ونفعهم للخلق، فيقول: (يُراع حمىٰ الدين فإذا هم ذادَة، وتُدعىٰ الأمّة إلىٰ العظائم فإذا

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٤٧٢).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

هم قادة، ويمثّلون للأمّة علماء سلفها الذين كانوا معاقلها المنيعة عند حلول النوائب، وأعلامها الهادية عند اشتباه المسالك، ومراجعها إذا ناب خطب أو حزب كرب بعد أن كان الظن بهم أنهم قرّاء فواتح وكتّاب «خواتم» وأحلاس[1] معابد)[2]، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فقد كان علماء السلف مرجع هداية للأمة، وحصنًا حصينًا لها في مختلف أحوالها العصيبة التي مرّت بها، وسدًّا منيعًا في وجه كل زيغ وباطل.

من آثار فضائل السلف في النفوس.

وبعد إفاضته رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر مناقب السلف وفضائلهم -رضوان الله عليهم- بيّن جانبًا من آثار تلك الفضائل، وما منحهم الله من قبول ونفوذ جزاء صدقهم وجهادهم، فيقول: (صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله علىٰ الإخلاص يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يَدع النفوس المدبرة عن الحق إلىٰ الإقبال عليه)[3]، وعن هذا النفوذ والقبول الذي يغلب سطوة الملك ويتبعه الأثر الحميد؛ يقول الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل، وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام[4]، وإن موقف هذين

---

(١) جمع حِلْس، ويُقال هو حِلْسُ بَيْتِهِ: إذا لزِمَه ولم يَبْرَحه.
انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي (٥٣٨)، والنهاية، لابن الأثير (١/ ٤٢٣).

(٢) آثار الإمام (١/ ٢٤٤).

(٣) آثار الإمام (٤/ ١١٢).

(٤) هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السّلام ابن أبي القاسم السّلميّ، الإمام العلّامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، برع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم، من التفسير، والحديث، والفقه، واختلاف أقوال الناس، ومآخذهم. وبلغ رتبة الاجتهاد، =

الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما الحميدة لآية من الله علىٰ تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره)[1].

ويوضح الإمام الإبراهيمي رحمه الله جانبًا آخر من أثر الأخذ بفضائل علماء السلف -رضوان الله عليهم- وما يورثه في نفوس العلماء من عزة في الحق، ومتانة في العلم، وقوة في الدين، وأثر بالغ في الإصلاح، فيقول رحمه الله: (وكان من وراء الجهاز الحكومي طوائف من الفقهاء الشعبيين المتضلعين في فقه الأحكام أصولًا وفروعًا، الآخذين من فضائل علماء السلف بالنصيب الأوفىٰ، فكان هؤلاء العلماء هم حرّاس الإسلام وأحكامه، يقوّمون بنفوذهم العلمي كل من زاغ عن سبيله من حاكم ومحكوم، وكانوا من استقامتهم بحيث لا يغضبون إلا لله ولا يرضون إلا لله، وكانوا من سعة السلطان علىٰ الجماهير بحيث يخشىٰ غضبهم ويرجىٰ رضاهم . . .)[2].

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان مناقب الصحابة والسلف -رضوان الله عليهم- يمكن أن نجمل ما قرره من مناقبهم في النقاط التالية:

- أن السلف كانوا أكمل الناس إيمانا وأعرفهم بحقيقة الإيمان.

- أن السلف انتفعوا بالقرآن فأصلحهم وأصلح بهم حين أخذوه بحقه فكانوا قادة وسادة.

- أن السلف كانوا يحكّمون القرآن ويقفون عند حدوده ويجعلونه ميزانا لجميع أمورهم.

= ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنّف التصانيف المفيدة، مع الزّهد، والورع، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والصّلابة في الدّين، توفي سنة ٦٦٠هـ رحمه الله.
انظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٧/ ٥٢١-٥٢٤)، وطبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (٢/ ١٠٩-١١١).

(١) آثار الإمام (٤/ ١١٢).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٧٤).

- أن السلف كانوا شديدي الحرص علىٰ اتباع النبي ﷺ والتأسي به في الأفعال والترك في كل شأن.

- أن السلف أقاموا الدين خير إقامة وتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بآدابه ونشروا عقائده وأحكامه وقيمه في الأمم، فاستقامت لهم الدنيا.

- أن السلف لهم فضل عظيم علىٰ من بعدهم بما بذلوا لهم من ثمار جهودهم في إحياء دين الإسلام وتثبيته في الأمصار.

- أن السلف هم الذين بلّغوا الدين، فهم حملته إلىٰ العالم بما امتازوا به من أمانة وهداية للعالمين.

- أن السلف قد تميزوا بصفات عظيمة كقوة الإيمان والإخلاص وصدق العزيمة وإيثار الحق، فكانت سببا لنصرهم وتمكينهم.

- تفضيل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتقرير أحقيته بالخلافة وتقديمه علىٰ سائر الصحابة رضي الله عنهم.

- تميز السلف بجملة من المناقب كقيامهم بالحق واهتدائهم به، وموافقة ظواهرهم لبواطنهم، وإقامتهم للعدل، وإحسانهم إلىٰ الناس، وكمال إنسانيتهم، وصحة توحيدهم، وكمال عقولهم، واجتماعهم علىٰ الخير والحق، ويقظة شعورهم وضمائرهم، وشدة حميّتهم لدينهم وحمايتهم له، وأنهم كانوا أفذاذا في العلم والتقوىٰ.

- أن من مميزات السلف أنهم كانوا لا يسكتون عن الباطل حتىٰ يدمغوه بالحق، موفين بعهد الله وميثاقه عليهم، وإيثارهم للآخرة علىٰ الدنيا، ويقينهم بالجزاء علىٰ البلاء في الدنيا بالنعيم في الآخرة.

- أن السلف تميزوا بالشجاعة في الحق قولًا وفعلًا وعدم المحاباة فيه، فكانوا أمّارين بالمعروف نهّائين عن المنكر.

- أن من مناقب السلف اقتفاء طريقة الصحابة الكرام في الدعوة إلىٰ الله، وهي الطريقة النبوية التي تميزت بالاجتهاد وحماية السنن وإظهار محاسن الدين وتصحيح العقائد والحفاظ علىٰ الأخلاق والبصيرة في العلم والحكمة في الدعوة والإخلاص في العمل وتحكيم القرآن.

- فهم السلف الصحيح للدين والعبادة واقتصارهم علىٰ الوجه المشروع فيها وعدم إحداثهم في الدين.

- أن علماء السلف كانوا مرجع الأمة وهداتها عند الفتن والمحن.

- أن من آثار مناقب السلف ما منحهم الله من قبول ونفوذ جزاء صدقهم وجهادهم، وما تركوه في نفوس العلماء من عزة في الحق، ومتانة في العلم، وقوة في الدين، وأثر بالغ في الإصلاح.

فرضي الله عن سلف هذه الأمة وأرضاهم، لنا فيهم أسوة حسنة وقدوة مباركة، وفي سيرهم ما يهذّب النفوس ويصقل القلوب، ويقوّم العقائد والأعمال.

ثانيًا: فضل علم السلف

بعد أن استعرضنا جهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في تقرير مناقب السلف وفضائلهم رضي الله عنهم، نفرد في هذا المبحث بيانه لفضل علمهم، وذلك تمييزًا له وإظهارًا لشرفه وفضله على علم الخلف، فأفهام الصحابة رضي الله عنهم -كما يقول ابن القيم رحمه الله- فوق أفهام جميع الأمة، وعلمهم بمقاصد نبيهم ﷺ وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم[1]، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب الرسالة القديمة بعد ذكر الصحابة رضي الله عنهم والثناء عليهم بما هم أهله: (وهم فوقنا في كلّ علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولىٰ بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا، ومن أدركنا . . . صاروا فيما لم يعلموا ﷺ فيه سنة إلىٰ قولهم إن أجمعوا، وقول بعضهم إن تفرقوا، فهكذا نقول إذا اجتمعوا أخذنا باجتماعهم، وإن قال واحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله، وإن اختلفوا أخذنا بقول بعضهم ولم نخرج من أقاويلهم كلهم)[2].

وإظهار هذا الأمر يورث اليقين في نفس المؤمن بعلم الصحابة رضي الله عنهم والقرون المفضلة، فالأخذ عنهم في العقائد وأصول الدين أوفق للصواب وأقرب للهداية وأبعد عن الغواية، وهو المعين العذب الذي نبع من بين يدي محمد ﷺ ونهل منه أصحابه، وكفىٰ به موردِا.

---

(١) انظر: الطرق الحكمية، لابن القيم (١/ ٣٢٤).

(٢) انظر: المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ، للبيهقي (١٠٩)، والبحر المحيط، للزركشي (٨/ ٥٧).

السلف هم ورَثَة النبي ﷺ في العلم والعمل.

يقرر الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن الصحابة رضي الله عنهم هم ورثة النبي ﷺ في العلم والعمل، فهم أعرف الناس بنبيهم ﷺ وأكثرهم فهمًا لأقواله وأفعاله وتطبيقًا لها، وقد وصلوا لمرحلة سامقة في الفقه بالدين، فيقول: (إن في الفقه فقهًا لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين، وروح القرآن، وعصارة سنة محمد ﷺ؛ وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه؛ وهو الذي ورثه عنه أصحابه وأتباعهم إلىٰ يوم الدين؛ وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به؛ وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والآخرة)[1].

إحياء فقه الصحابة رضي الله عنهم.

كما يبين حرصه رحمه الله علىٰ إحياء فقه الصحابة رضي الله عنهم وعلمهم في هذه الأمة، ولاسيما في تصحيح عقائدها علىٰ وفق ما جاء عن الصحابة والتابعين لهم، فيقول: (وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمّة فتحيا به، ونصحّح به عقائدها، ونقوّم به فهومها، فتصحّ عباداتها وأعمالها، فإن العبادات هي أثر العقائد، كما أن الأعمال هي أثر الإرادات، وما يبنىٰ منها علىٰ الصحيح يكون صحيحًا، وما يبنىٰ علىٰ الفاسد فهو فاسد)[2].

السلف أُمَناء علىٰ السُّنّة وفهومها.

ومما قرّره الإمام الإبراهيمي رحمه الله مبيّنًا به فضل علم السلف -رضوان الله عليهم- وسعة معارفهم؛ ما ذكره عنهم من كونهم أَمَنَة السُّنَّة الفاهمين لها والعاملين بها والحامين لها والمبلّغين لها، فيقول: (وأفلحت الجمعية في تبيين السنّة النبوية المحمدية معنىٰ ومفهومًا، وحمل الأمة علىٰ الرجوع إليها علمًا

---

(١) آثار الإمام (٣/ ١٩١).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٩١).

وعملًا، والتمسّك بالصحيح الثابت منها فعلًا وتركا، والاهتداء بهدي السلف الذين هم نقلتها وتراجمتها والمؤتمنون علىٰ فهمها، والعاملون بها والواقفون عند حدودها، والناشرون لدقائقها والناصرون لحقائقها)[١].

ثم يبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ جانبًا من سعة علمهم -رضوان الله عليهم- بحقائق السنة وارتباطها بالقرآن، فيقول عنهم: (والمبلّغوها سهلةً سمحةً إلىٰ الأمم علىٰ أنها بيان لكتاب الله توالفه ولا تخالفه، وشرح عملي لدين الله يؤيده ولا يعانده، وطريق إلىٰ سعادة الدارين لا يضلّ سالكه، ولا يفلح تاركه، وسلّم موصل إلىٰ الحياة العزيزة الكاملة المبنية علىٰ العمل المغذي للهمم والإقدام المغذي للعزائم والقوة التي هي عماد الحياة)[٢].

الفهم الصحيح للقرآن متوقف علىٰ فهم السلف له.

ويعد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاطلاع الواسع علىٰ فهم السلف للقرآن شرطًا لمن أراد تفسيره وفهمه، وذلك لعلو كعبهم في علوم التنزيل كافة، فيقول: (وفهم القرآن يتوقف -بعد القريحة الصافية والذهن النير- علىٰ التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والاطلاع الواسع علىٰ فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم علىٰ التأمل في سنن الله في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلومُ الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها)[٣]. فرضي الله عنهم ما أعظم فضلهم وأعمق علمهم وأدقّ فهمهم!

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٨٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (٢/ ٢٥٠).

نُبوغ السلف في علم الحديث والرجال.

ومما نبغ فيه السلف -رضوان الله عليهم- من العلوم؛ علم الحديث والرجال، فهم أقرب الناس عهدًا بمشكاة النبي ﷺ، وألصق الناس بسنّته، وفي بيان سبقهم وتقدّمهم في هذا الباب يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما أولئك السلف الأبرار فعنايتهم بالرواية والرجال راجعة كلها إلىٰ الجرح والتعديل[١] اللذين هما أساس الاطمئنان إلىٰ الرواية، وقد تعبوا في ذلك واسترحنا)[٢] فرضي الله عنهم ورحمهم.

نشر الصحابة للعلم والدعوة.

وقد كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مشاعل هداية ومصابيح علم تضيء عقول الناس وتنشر المعرفة في الأقطار، يبين ذلك الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بثنائه علىٰ علم الصحابة وسابقتهم في الدعوة إلىٰ دين الرحمة ونشر الإسلام في الأقطار، إذ يقول: (كأن الجزيرة العربية أم رؤوم لهذا الشمال، تعدّه فلذةً من كبدها، فهي تعطف عليه وتحن إليه، وتجعل منه مراوح لِقَيْظها، وضفافًا لفيضها . . . وحنت إليه بعد الإسلام، فأوفدت إليه الغُرَّ[٣] البهاليل[٤] من أصحاب محمد، يحملون الرحمة والسلام والبيان، ويفتحون الأذهان والعقول والأفكار)[٥].

---

(١) الجرح والتعديل: هو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث قبول رواياتهم أو ردّها. أصول الحديث، للخطيب (٢٧٢).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٥٤٧).

(٣) الغُرُّ: جَمْعُ الأَغَرِّ، مِنَ الغُرَّة وهي بياضِ الوجْه، وقد يكون بِنُورِ الوُضوء.
انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ٢٢٢)، والنهاية، لابن الأثير (٣/ ٣٥٣).

(٤) جمع بَهْلُول، وهو السَّيِّدُ الحَيِيُّ الكريمُ الجامِعُ لكُلِّ خَيرٍ.
انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ١٣٠)، والمعجم الوسيط (١/ ٧٤).

(٥) آثار الإمام (٣/ ٥٨).

قوّة أدوات علماء السلف وتمكّنهم في العلم.

ويوضح الإمام رحمه الله بعض ما امتاز به علماء سلف هذه الأمة من قوة أدواتهم وتمكنهم ورسوخهم، مما لم يكن لغيرهم، فيقول: (واستحكام الملكة، واستقلال الفكر، وقوّة الحافظة، مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة لم يبلغ علماء الأمم الأخرىٰ مُدَّ أحدهم فيها ولا نصيفه)[1]، وهي ميزات ظاهرة في مصنفاتهم -رضوان الله عليهم-، وما زالت بركتها تنهال علىٰ كل مستفيد منها وطالب لها.

ومما يجلي جودة أفهام علماء السلف -رضوان الله عليهم- ما ذكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله من طريقتهم في فهم دين الإسلام، وأنه دين متكامل مترابط الأجزاء، فيقول: (فَهِم علماء السلف الإسلام كاملًا بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الترابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير، وأنها -في حقيقتها- شيء واحد، هو الدين، وهو الإسلام، وأن ضياع بعضها مؤذن بضياع سائرها، أو هو ذريعة له، فلا يقوم دين الله في أرضه إلا بإقامة جميعها)[2].

هذه نبذة يسيرة تبيّن جوانب من فضل علم السلف علىٰ الخلف، وقد صنّف العلماء في ذلك وبسطوا القول، ومن أشهر ما كتب في ذلك كتاب: «بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» للحافظ ابن رجب رحمه الله، ومما قاله في بيان فضل علمهم -رضوان الله عليهم-: (فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعينَ وتابعيهم إلىٰ أن ينتهي إلىٰ زمن أئمة الإسلام المشهورين المقتدىٰ بهم)[3]، إلىٰ أن قال:

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٤١).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

(٣) بيان فضل علم السلف، لابن رجب (٦٤-٦٥).

(فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه إلا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق بكلامهم، وأما ما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدىٰ إليه من بعدهم ولا يلمّ به، فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله)[1].

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان فضل علم الصحابة والسلف -رضوان الله عليهم- يمكن أن نجمل ما قرره من فضائلهم في العلم في النقاط التالية:

- الصحابة رضي الله عنهم هم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم في العلم والعمل، فهم أفقه الناس بالدين وأعرفهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم وأكثرهم فهمًا لأقواله وأفعاله وتطبيقًا لها.

- الصحابة رضي الله عنهم أَمَنَة السُّنَّة الفاهمون لها والعالمون بحقائقها والعاملون بها، والحامون لها والمبلّغون لها.

- اشتراط الاطلاع الواسع علىٰ فهم السلف -رضوان الله عليهم- للقرآن؛ لمن أراد تفسيره وفهمه، وذلك لعلو كعبهم في العلم وفي علوم التنزيل خاصة.

- نبوغ السلف -رضوان الله عليهم- في علوم الشريعة ولاسيما علم الحديث والرجال، لكونهم أقرب عهدًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وألصق الناس بسنّته.

- الصحابة رضي الله عنهم مشاعل هداية ومصابيح علم تضيء عقول الناس وتنشر المعرفة في الأقطار.

---

(١) المرجع السابق.

- امتاز علماء السلف -رضوان الله عليهم- علىٰ غيرهم بقوة أدواتهم وتمكنهم ورسوخهم.

- جودة أفهام علماء السلف -رضوان الله عليهم- ويظهر ذلك في طريقة فهمهم لدين الإسلام.

ثالثًا: جوانب من منهج السلف

إكمالًا لبيان عناية الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بأحوال السلف ومناقبهم وفضائلهم؛ نتطرّق في هذا المبحث لجهوده في بيان جوانب من منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، ففي بيان المنهج إيضاحٌ للصراط المستقيم الذي ساروا عليه، وتقويمٌ لكل مسار منحرف عنه، وذلك في أصول الدين والعقائد، وسائر العبادات والشرائع، فخير منهج يُتخذ وخير طريق يُسلك هو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة وأهل القرون المفضلة -رضوان الله عليهم-.

عدد من القضايا المنهجية لدىٰ السلف.

ومما أوضح به الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ منهج السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بيانه لعدة أمور منهجية كانوا عليها، ومن ذلك:

١. إقامتهم للدين علىٰ الوجه الصحيح وتمام استقامتهم فيه.

٢. اتباعهم للدليل، وتحاكمهم إليه، وعدم مجاوزتهم للكتاب والسنة.

٣. تركهم التأويل الباطل لنصوص الوحيين.

٤. اكتمال أدواتهم في فهم القرآن.

٥. سلامة فطرتهم وسداد نظرهم وإخلاصهم.

٦. تأدبهم بآداب القرأن.

٧. اجتماع كلمتهم وبعدهم عن التفرق.

فيقول في بيان ذلك: (أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام، واستقاموا علىٰ طريقته أتم استقامة، وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنة، لا يتعدونها ولا يتناولونها بالتأويل، وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة، ومن وراء ذلك فطرة سليمة وذوق متمكن ونظر سديد وإخلاص غير مدخول واستبراء للدين قد بلغ من نفوسهم غايته وعزوف عن فتنة الرأي وفتنة التأويل. أدّبهم قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فكانوا أحرص الناس علىٰ وفاق، وكانوا كلما طاف بهم طائف الخلاف في مسألة دينية بادروه بالرد إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسوله فانحسم الداء وانجابت[١] الحيرة)[٢].

وسطيّة منهج السلف.

ومما قرره الإمام الإبراهيمي رحمه الله مبينًا منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أنهم كانوا وسطًا في عقائدهم بين الإفراط والتفريط، إضافة إلىٰ ما كانوا عليه من حرص علىٰ نشر الخير ورحمة الإسلام للعالمين، فيقول رحمه الله: (ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامة لوقفتم -كما وقفوا- بعقائدهم وسطًا بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكمًا بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سدًّا بين الآجر والأجير، وإذًا لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة، وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمّة. وإذًا لرفعتم عن العالم هذه الآصار والأغلال وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق

---

(١) انجاب الشيءُ ينجاب انجيابا، إذا انشقّ وانكشف.

انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/ ١٠١٧)، وتهذيب اللغة، للأزهري (٣/ ١٥٦).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٣-١٦٤).

نقطة الإشكال)[1]، ونِعمت الحال حال السلف في منهجهم واعتقادهم ودعوتهم، فمن كان مقتديًا فليقتد بهم.

أخْذ السلف للكتاب كلّه وتحكيمهم له.

ومما بيّنه الإمام رَحِمَهُ اللهُ من منهج السلف، أنهم كانوا يتناولون القرآن كله، ولا يبعّضونه فيأخذون ما يوافق الهوىٰ ويتركون ما لا يريدون؛ بل يأخذونه كله بأدوات الفهم الصحيح للقرآن؛ فيقول موضحًا ذلك: (إن السلف تذرّعوا لفهم القرآن ذريعتين: الذوق العربي الصحيح، والسنة النبوية الصحيحة. وقد كانوا يؤمنون بأنه كُلٌّ لا يتجزّأ، وأن بعضه يفسّر بعضه)[2].

ولاستقامة منهج السلف في فهم القرآن والتعامل معه كان له الأثر البالغ في صلاحهم، وفي ذلك يقول الإمام: (فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلّا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم)[3]، ويقول في ذات السياق مشيدًا بمنهج السلف المتمثّل في تحكيم القرآن تحكيمًا كاملًا: (ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا به، وحكمناه في نفوسنا كما حكموه وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له وموزونة بميزانه؛ لو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمة لغيرنا)[4].

ويؤكد الإمام رَحِمَهُ اللهُ سداد منهج السلف -رضوان الله عليهم- مع القرآن، فقد أخذوه بقوة، ففهموه وحكّموه ورجعوا إليه في كل أمر، فيقول: (وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أُنزل القرآن؟ ويعلمون أنه كتاب الدهر ودستور الحياة، وحجة الله الباقية إلىٰ قيام الساعة وأنه واف كل الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين،

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٦٤-٣٦٥).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٢٦).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٢٤٩).

(٤) آثار الإمام (٢/ ٢٥٠).

وأن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه كل ذلك تعطيل له. ففهموه أولًا وحكموه في أهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلىٰ معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)[1].

ويؤكد في موضع آخر عناية السلف -رضوان الله عليهم- بالقرآن، وتحاكمهم إليه في كل أمر دقّ أو جلّ، فيقول: (كان علماء السلف يرجعون في كل شأن من شؤون الدين إلىٰ القرآن، بل كان خلقهم القرآن كما كان النبي ﷺ، وكما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ يَرْضَىٰ لِرِضَاهُ وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ)[2]، وكانوا يحكمون القرآن في كل شيء، حتىٰ في الخطرات العارضة، والسرائر الخفية، حتىٰ تمكّن سلطانه من نفوسهم وأصبحت لا تتحرك ولا تسكن إلا بأمره ونهيه. وأصبحوا يقودون حتىٰ الخلفاء والأمراء بذلك السلطان. وذلك هو السر في علوّ كلمة الإسلام وسرعة انتشاره في المشارق والمغارب)[3]، وهذا الذي ميّز منهج السلف -رضوان الله عليهم- فبالقرآن صلحوا في أنفسهم وأصلحوا من حولهم.

جانب من منهج السلف في تفسير القرآن والعمل به.

ويبين رحمه الله طريقة تفسير السلف -رضوان الله عليهم- للقرآن، ومنهجهم السديد في ذلك، فيقول: (وقد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسير مستعينين علىٰ ذلك بما ذكرنا من القرائح والأذهان، وأسرار البيان، ومستعينين بإرشاده علىٰ فقه سنن الأكوان . . . كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن علىٰ أنه هداية عامة لجميع البشر يطالب كل مؤمن بفهمها والعمل

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٢٥).

(٢) أصله عند الإمام أحمدَ في مسنده برقم: (٢٤٦٤٥).

(٣) آثار الإمام (٥/ ٣١٥)، والعقائد الإسلامية، لابن باديس (١٩).

بها)[1]، ومن منهجهم في التعامل مع نصوص القرآن الغيبية عدم إعمال العقل فيها، فيبين ذلك بقوله: (وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنه مما لا يصل إليه عقل المكلف فلا يطالب بعلمه ولا يحاسب علىٰ التقصير فيه، وكانوا ينظرون إلىٰ الجانب الكوني منه نظرات مسددة لو صحبها بحث مسدد ممن أتىٰ بعدهم)[2]، ويجب التفريق بين ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه، وبين ما يعجز العقل عن تصوره ومعرفته، فالأول من محالات العقول، والثاني من محارات العقول، والرسل عليهم السلام يخبرون بالثاني[3].

ومما يبيّن منهج السلف -رضوان الله عليهم- في عملهم بالقرآن؛ أخْذُهم بأسس التمكين في الأرض التي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه من إقامة الصلوات وإيتاء الزكوات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمكّن الله لهم بذلك في الأرض، فنشروا التوحيد والعدل والخير والرحمة، وفي ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (وإن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، فتحقق معهم وعد الله في القرآن: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة ويطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم الله إلا حيث يرضيه أن يراهم. لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٢٥٠).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٢٥٠).

(٣) انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٤/ ٣٩١).

ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠])[١].

تحاكم السلف إلىٰ الكتاب والسنة.

ومما تميّز به منهج السلف -رضوان الله عليهم- اتخاذ الكتاب والسنة ميزانًا لتحكيم الأقوال والأفعال وسبيلًا لجمع الكلمة، وفي بيان ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله عنهم: (وكانوا يزنون أنفسهم دائمًا بميزان الكتاب والسنّة، فما وجدوا من زيغ أو عوج قوّموه في الحال بالرجوع والإنابة . . . يردّون كلّ ما اختلفوا فيه من كل شيء، إلىٰ كتاب الله وسنّة رسوله، لا إلىٰ قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متّفقون علىٰ الحق الذي لا يتعدد)[٢].

منهج السلف في التعامل مع العقل والنقل.

ويبين الإمام الإبراهيمي رحمه الله منهج السلف -رضوان الله عليهم- في منزلة العقل من الدين، والعلاقة التكاملية بين العقل والنقل، فيقول: (وكانوا يحكمون دينهم في عقولهم، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم . . . ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرّف، ومع المجملات ميزانًا للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميّز بين الخير والشر، وبين خير الخيرين، وشر الشرّين)[٣]، وهذه طريقة الخلفاء الراشدين وأتباعهم، فإنهم يقدمون خير الخيرين حصولا، وشر الشرين دفعا[٤].

ومن آثار هذا النهج القويم في استعمال العقل عند السلف، ما ذكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله بقوله: (لذلك غلب صوابهم علىٰ خطئهم في الفهم وفي

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٢٥).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١١).

(٣) آثار الإمام (٤/ ١١١-١١٢).

(٤) انظر: الاستقامة، لابن تيمية (٢/ ١٦٨).

الاجتهاد، ولذلك أصبحت فهومهم للدين وسائل للوصول إلىٰ الحق، وآراؤهم في الدنيا موازين للمصلحة، وما هم بالمعصومين ولكنهم لوقوفهم عند الحدود وارتياض نفوسهم علىٰ إيثار رضىٰ الله وشعورهم بثقل عهده، وفقهم الله لإصابة الصواب)[1].

وما أحرىٰ متبّع منهجهم بإصابة الحق والتوفيق للصواب، فرضي الله عن السلف أولي الألباب، وهدانا لسلوك سبيلهم واقتفاء أثرهم.

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان جوانب من منهج السلف -رضوان الله عليهم- يمكن أن نجمل ما قرره من منهجهم في النقاط التالية:

- إقامتهم للدين علىٰ الوجه الصحيح وتمام استقامتهم فيه.

- إتباعهم للدليل، وتحاكمهم إليه، وعدم مجاوزتهم للكتاب والسنة وتركهم التأويل الباطل لنصوصهما.

- اكتمال أدواتهم في فهم القرآن وتأدبهم بآدابه، وتناولهم له كلّه دون تبعيض.

- سلامة فطرتهم وسداد نظرهم، واجتماع كلمتهم وبعدهم عن التفرق.

- وسطيّتهم في عقائدهم بين الإفراط والتفريط.

- حرصهم علىٰ نشر الخير ورحمة الإسلام للعالمين.

- تحكيمهم القرآن تحكيمًا كاملًا في كل أمر، واتخاذه سبيلًا لجمع الكلمة.

- تعاملهم مع نصوص القرآن الغيبية بعدم إعمال العقل فيها.

---

(١) آثار الإمام (٤/ ١١٢).

- عملهم بالقرآن وأخْذُهم بأسس التمكين في الأرض من إقامة الصلوات وإيتاء الزكوات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- تقريرهم لمنزلة العقل من الدين، وأن العلاقة تكاملية بين العقل والنقل فالعقل أداة فهم للنص والنص يحكم العقل.

رابعًا: تَبَنِّي الإبراهيمي لمنهج السلف

مُقوِّمات السلفيّة وركائزها.

إن المطالع لتراث الإمام الإبراهيمي ﵀ وجهوده المبذولة في تقرير العقيدة وحمايتها؛ يتبيّن له بِجَلاء استقامة منهجه واطّراد طريقته وسلامة عقيدته، فهو يستقي ذلك من منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، ويحيد عن المناهج التي تتنكّب طريقهم وتخالف سبيلهم، وقد بيّن الإمام ﵀ مقوّمات السلفيّة وركائزها التي يستقيم بها بنيانها، فمن ذلك:

١. **الاعتصام بالكتاب والسنة** وعدم مجاوزتهما، فيقول في ذلك: (ولقد كان من مقتضىٰ كون الرجل محدِّثًا أن يكون سلفيّ العقيدة وقّافًا عند حدود الكتاب والسنَّة، يرىٰ ما سواهما من وسواس الشياطين)[١].

٢. **كون البيئة مهيّأةً لذلك**، ولذا قال عن أحد المبتدعة: (وهل يرجىٰ ممن نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه علىٰ ما فيها من مال وجاه وشهوات ميسّرة ومخايل من المُلك، أن يكون سلفيًّا ولو سلسل الدنيا كلها بمسلسلاته؟)[٢]، ويؤكد -رحمه الله- علىٰ أهمية البيئة المناسبة لنشأة السلفية فيقول: (إن السلفية

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٥٤٤).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٥٤٤).

نشأة وارتياض ودراسة، فالنشأة أن ينشأ في بيئة أو بيت كل ما فيها يجري علىٰ السنّة عملًا لا قولًا)[1].

٣. **الدراسة المنهجية المحكمة لأصول الاعتقاد** الصحيحة والهدي النبوي، ثم **التطبيق**، فيقول فيهما: (إن السلفية نشأة وارتياض ودراسة . . . والدراسة أن يدرس من القرآن والحديث الأصول الاعتقادية، ومن السيرة النبوية الجوانب الأخلاقية والنفسية، ثم يروّض نفسه بعد ذلك علىٰ الهدي المعتصر من تلك السيرة وممن جرىٰ علىٰ صراطها من السلف)[2].

الدعوة إلىٰ منهج السلف.

ومن وصايا الإمام الإبراهيمي رحمه الله التي تبيّن نهجه السلفي، ونهج جمعية العلماء السلفي، ما جاء في رسالته التذكيرية لمعلمي الجمعية والتي يندبهم فيها إلىٰ وعظ الناس وإرشادهم في شهر رمضان، فيقول فيها: (حثوا إخوانكم علىٰ إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضاعوها كالزكاة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والمرحمة والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ والتآلف والتحابب، مستندين في ذلك كله علىٰ كتاب الله وحديث نبيّه مستدلين بنصوصهما علىٰ النهج السلفي لجمعيتكم)[3].

ولقد كانت دعوة الإمام الإبراهيمي رحمه الله دعوة إلىٰ عقيدة السلف الصالح ومنهجهم، وكان يعلن ذلك بنفسه فيقول: (وليعلم من لم يكن علىٰ بصيرة من أمرنا أننا لا ندعو إلا إلىٰ الله ودينه ونبيّه وسنّة نبيّه وهدي السلف الصالح من أمّته)[4]، ولا ريب أن الدعوة إلىٰ غير هدي السلف الصالح تعود وبالًا علىٰ أصحابها.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٣/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٢٩٤).

(٤) آثار الإمام (١/ ٢١٠).

موافقة المنهج السلفي في الاعتقاد.

والعقيدة التي يتبنّاها الإمام الإبراهيمي رحمه الله ويقرّرها ويدعو إليها؛ هي عقيدة السلف -رضوان الله عليهم-، وقد ذكر في تقدمته لكتاب «العقائد الإسلامية» للإمام عبدالحميد بن باديس رحمه الله ما يبيّن ذلك، فمما قاله محتفيًا فيه بتقرير عقائد السلف: (هذه عدة دروس دينية، مما كان يلقيه أخونا الإمام المبرور الشيخ عبد الحميد بن باديس -إمام النهضة الدينية والعربية والسياسية في الجزائر غير مدافع- علىٰ تلامذته في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن، علىٰ الطريقة السلفية التي اتخذتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منهاجًا لها بعد ذلك. وبنت عليها جميع مبادئها ومناهجها في الإصلاح الديني)(١).

ويقول أيضًا عن منهج الإمام ابن باديس رحمه الله في تقرير عقيدة السلف لدىٰ طلابه: (كان الإمام المبرور يصرف تلامذته من جميع الطبقات علىٰ تلك الطريقة السلفية. ومعلوم أن الإصلاح الإسلامي الذي قامت به جمعية العلماء بعد ذلك لا تقوم أصوله إلا علىٰ ذلك، وأن هذا الإمام رفع قواعده وثبت أصوله وهيأ له جيشًا من تلامذته وحاضري دروسه)(٢)، فقد أشاد بطريقة ابن باديس رحمه الله في تنشئة الطلبة في دروسه علىٰ عقائد السلف ومجانبته لطريقة المتكلمين التي كان يسير عليها المعلمون في زمانه كعقيدة السنوسي(٣) وغيره(٤).

---

(١) آثار الإمام (٥/ ٣١٣).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي الحسني، كبير علماء تلمسان وزهادها في عصره، عالم في التفسير والحديث وعلم التوحيد، له مؤلفات كثيرة في تقرير العقيدة الأشعرية، منها «عقيدة أهل التوحيد» ويسمىٰ العقيدة الصغرىٰ و«أم البراهين»، و«العقيدة الوسطىٰ» و«مختصر في علم المنطق»، وغيرها. توفي سنة ٨٩٠هـ أو ٨٩٥هـ.
انظر: نيل الابتهاج، للتنبوكتي (٥٦٣-٥٧٢)، ومعجم أعلام الجزائر، لنويهض (١٨٠-١٨٢).

(٤) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٣-٣١٤).

ويبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ استنكار الإمام ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ لتقرير العقائد علىٰ طريقة المتكلمين، وكيف هيّأ الله له تنشئة أجيال علىٰ عقيدة السلف كما كان يتمنىٰ، فيقول: (والإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان منذ طلبه للعلم بتونس قبل ذلك -وهو في مقتبل الشباب- ينكر بذوقه ما كان يبني عليه مشائخه من تربية تلامذتهم علىٰ طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية، ويتمنىٰ أن يخرجهم علىٰ الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلمًا. وقد بلغه الله أمنيته فأخرج للأمة الجزائرية أجيالًا علىٰ هذه الطريقة السلفية، قاموا بحمل الأمانة من بعده، ووراءهم أجيال أخرىٰ من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية)(١).

ويحتفي الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بطريقة السلف في تقرير الاعتقاد والاستدلال عليه، برجوعهم إلىٰ مصادر التلقي الصحيحة من الكتاب والسنة، فيقول في سياق إشادته بدروس شيخه: (وهذا درس من دروسه ينشره اليوم في أصل العقيدة الإسلامية بدلائلها من الكتاب والسنة . . . فجاءت عقيدة مثلىٰ يتعلمها الطالب فيأتي منه مسلم سلفي، موحد لربه بدلائل القرآن كأحسن ما يكون المسلم السلفي، ويستدل علىٰ ما يعتقده في ربه بآية من كلام ربه، لا بقول السنوسي في عقيدته الصغرىٰ: «أما برهان وجوده تعالىٰ فحدوث العالم»!)(٢)، وهذا مما يبين احتفاء الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بمنهج السلف واعتماده له.

استنكار ما يخالف منهج وطريقة السلف.

وقد استنكر الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بعض ما يخالف منهج السلف -رضوان الله عليهم- ومن ذلك ما يتعلق بدعوات الوطنية المنافية للدين والمخالفة لهدي السلف الصالح، فيقول في ذلك: (ولو أوتينا رشدنا لأقمنا كلمتي المسلم العربي مقام هذا النسب المعروف إلىٰ البلدان والقبائل، فما هذا النسب إلا ثُغَر ومداخل

---

(١) آثار الإمام (٥/ ٣١٤).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٣١٥).

لشيطان الوطنيات الضيقة التي ليست من ديننا ولا من ميراث سلفنا)[1]، وهذا مما يبين حرصه رحمه الله علىٰ إتباع منهج السلف في كل أمر، وعدم الحيدة عنه.

الثناء علىٰ العلماء المعتنين بتقرير مذهب السلف.

ومما يبين حرص الإمام الإبراهيمي رحمه الله علىٰ منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم- وتبنّيه له؛ ثناؤه علىٰ الأئمة الذين اعتنوا بتقرير مذهب السلف كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فمما قاله عنه: (ولا علمنا فيهم [أي: علماء الإسلام] مثالًا في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية . . . فقد شنّها حربًا شعواء علىٰ البدع والضلالات، أقوىٰ ما كانت رسوخًا وشموخًا، وأكثر أتباعًا وشيوخًا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأوّلون)[2]، ومما أثنىٰ به عليه أيضًا وعلىٰ تلميذه ابن القيم وغيره -رحمهم الله- وأشاد فيه بكتبهم التي تقرر عقيدة السلف، وبيّن فيه أثر أولئك الأئمة في الدعوة الإصلاحية في زمانه قوله رحمه الله: (واطلاع بعض الناس علىٰ كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية وابن القيم والشوكاني[3]، فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية)[4]، وقد أثنىٰ مرة علىٰ أحد مشايخ الجزائر ووصفه بأنه «متين القلم في الدينيات، سديد الرأي فيها، قوي الحجّة في مباحثها»، وبيّن سبب هذا التميّز بقوله: (كسبه ذلك قيامُه علىٰ كتب الفحول من فقهاء السنّة أمثال

---

(١) آثار الإمام (٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١٣).

(٣) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، ولي قضاءها ومات حاكما بها، كان يرىٰ تحريم التقليد، له ١١٤ مؤلفا، منها «نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار» و«البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» و«فتح القدير» في التفسير، و«إرشاد الفحول» في أصول الفقه، و«إرشاد الثقات إلىٰ اتفاق الشرائع علىٰ التوحيد والمعاد والنبوات» و«التحف في مذهب السلف» و«الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» وغير ذلك. توفي سنة ١٢٥٠هـ رحمه الله.
انظر: الأعلام، للزركلي (٦/ ٢٩٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٨١).

ابن تيمية وابن القيم والشوكاني، وهي كتب تربّي ملكة البيان كما تربّي ملكة البرهان)[١]، وما زالت كتبهم -رحمهم الله- لها الأثر البالغ في هذه الأمة جيلًا بَعْد جيل.

الإشادة بالعلماء السلفيّين.

ومما يبيّن سلفية الإمام الإبراهيمي رحمه الله أيضًا إشادته بالعلماء السلفيين، وقد تميّز رحمه الله بإنصافه مع مخالفه كما تميّز بثنائه علىٰ موافقه، وقد قال عن نفسه في هذا الشأن: (ليس من عادتنا أن نثني علىٰ الأشخاص لذواتهم أو لمقاماتهم التي قرّرتها الأوضاع والمصطلحات، وإنما نثني -إذا أثنينا- علىٰ الأعمال الصالحة، فينصرف الثناء إلىٰ العاملين بالتبَع)[٢].

وممن أثنىٰ عليهم الإمام رحمه الله لسيره في ركاب السلف ودعمه لمذهبهم؛ الشيخ محمد نصيف رحمه الله[٣]، فقد وصفه بأنه محيي السنة في الحجاز، وأنه محيي آثار السلفية بما بذل من عمره وماله نصرة ونشرا لها، فيقول فيه: (فكلنا أَلسِنة شاهدة بأنّه مجموعة فضائل نعدّ منها ولا نعدّدها، وأنه مجمع يلتقي عنده علماء الإسلام وقادته وزعماؤه فيردون ظماء ويصدرون رواء، وإنني أقولها بصيحة صريحة وأؤدّيها شهادة للحق والتاريخ بأنّه محيي السنّة في الحجاز ... وأنه صنع للسلفية وإحياء آثارها ما تعجز عنه الجمعيات بل والحكومات، وأنه أنفق عمره وماله في نصرها ونشرها، في هدوء المخلصين وسكون الحكماء)[٤]، ويبيّن

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٦٧).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٥٨٥).

(٣) هو محمد بن حسين بن عمر نصيف، عالم جدة وصدرها في عصره. مات والده وهو صغير، فرباه جده عمر، وأولع بالكتب فجمع مكتبة عظيمة، ونشر كتبا سلفية وأعان علىٰ نشر كثير منها، وكتب في الردود، وكان مرجعا للباحثين، وكان بيته ملتقىٰ الفضلاء القادمين من مختلف البلاد، وكان حلو الحديث قوي الذاكرة، وخلف مكتبة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات، توفي عام ١٣٩١هـ رحمه الله.

انظر: الأعلام، للزركلي (٦/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) آثار الإمام (٤/ ١٢٥).

جوانب مما تركه الشيخ محمد نصيف رحمه الله من نفع للأمة في شتىٰ البلدان، حتىٰ وصل خيره إلىٰ الجزائر، فيقول: (سيسجّل التاريخ العادل آثاره في عقول المسلمين، وسيشكر له الله غزوه للبدع بجيوش السنن المتمثلة في كتبها وعلوم أئمتها، وجمعية العلماء نفسُها مَدِينة له، فإن الكتب السلفية لم تصلنا إلا عن يده، وسيسجّل أنه مفخرة من مفاخر الإسلام وأنه كفّارة عن تقصير العلماء، وأنه زهرة فوّاحة في أرض الحجاز)[1].

ومن ذلك ثناؤه علىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ[2] رحمه الله مفتي الديار السعودية في حينه، وذلك في رسالة بعث بها إليه يذكره فيها بأحوال الجزائريين الذين هم إخوة له في الإسلام وفي السلفية، فمما جاء فيها بعد أن لقّبه في صدر الرسالة بـ «الأخ الأستاذ الأكبر»: (أُذَكِّركم أن لكم بالجانب الغربي من وطن العروبة ومنابت الإسلام الأولىٰ ومجرىٰ سوابق المجاهدين الأولين لَإخوانًا في العروبة وهي رحم قوية، وفي الإسلام وهو سبب مرعي، وفي ذلك المعنىٰ الخاص من الإسلام وهو السلفية التي جاهدتم وجاهد أسلافكم الأبرار في سبيل تثبيتها في أرض الله . . .)[3].

وقد يثني الإمام رحمه الله علىٰ الشخص بكونه سلفيا لما يرىٰ في اتباع منهج السلف من منقبة، كقوله في محمد بن يوسف[4] ملك المغرب: (فالنتيجة التي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، من ذرية الإمام محمد بن عبد الوهاب. فقيه حنبلي، كان المفتي الأول للديار السعودية، نشأ في الرياض وتعلم بها وفقد بصره في الحادية عشرة من عمره، حفظ القرآن وكثيرا من الكتب والمتون، وتصدر للتدريس، وعين مفتيا للمملكة، ثم رئيسا للقضاة، ثم رئيسا للجامعة الإسلامية ورئيسا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ورئيسا لتعليم البنات في المملكة، أنشأ المكتبة السعودية العامة في الرياض، وأملىٰ من تأليفه كتبا، منها «الجواب المستقيم» و«تحكيم القوانين» وغيرها. توفي سنة ١٣٨٩هـ رحمه الله.
انظر: الأعلام، للزركلي (٥/ ٣٠٦).

(٣) آثار الإمام (٥/ ٢٢١).

(٤) هو أبو الحسن أو أبو عبدالله، محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن بن محمد الحسني العلوي،=

انتهتْ إليها الدراسة، واطمأن لها الوجدان والعيان في هذا الملك العظيم حقًّا، هي أنه ملك مسلمٌ صحيح الإسلام، مؤمن متين الإيمان، سلفي العقيدة والتعبّد، قديم في دينه، جديدٌ في دنياه، مجدّد مصلح في الدين والدنيا)[1]، فأثنىٰ عليه بسلفيّة عقيدته وتعبده.

وممن أثنىٰ عليهم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ لسلفيّتهم؛ محمد بن العربي العلوي[2]، فقد قال عنه: (والأستاذ الأكبر الشيخ محمد العربي العلوي، إمام سلفي وعالم مستقل واجتماعي جامع ... ونحن في أخص الصفات التي تربطنا به وهي السلفية والإصلاح نجاوز درجة الإعجاب به إلىٰ الفخر والتعاظم ... ولعل الأقدار تقيض من يكتب له ترجمة حافلة تكشف عن مواقع الأسوة بذلك الرجل خصوصًا في سلفيته وجراءته في تلك السلفية، وهي نقطة التلاقي الحقيقية بينه وبين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)[3].

سلفيّة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وقد اتخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائيين -التي رأسها الإمام فترةً من

= ملك المغرب، ورمز نهضته الحديثة. بويع له بعد وفاة والده سنة ١٣٤٦هـ. أخذ العلم عمن في قصره من العلماء فتعلم القرآن والعلوم الدينية، وكانت له مآثر عظيمة حين تولىٰ الحكم علىٰ المغرب، مشهود له بالصلاح والفضل وبذل الخير، قاوم الفرنسيين ونظم بلاده وربطها بعلاقات سياسية واقتصادية مع أكثر دول العالم. ومن صفاته الحلم واللين والإكثار من الاستشارة، ولقد غمر المغاربة حبه والوثوق به. توفي سنة ١٣٨٠هـ رَحِمَهُ اللهُ.

انظر: الأعلام، للزركلي (٧/١٥٨-١٥٩)، والدرر الفاخرة، لابن زيدان (١٣٩-٢٢٥).

(١) آثار الإمام (٣/ ٥٨٦).

(٢) هو محمد بن العربي العلوي المدغري الحسني، علامة سلفي، وعالم مستقل، واجتماعي جامع، كافح بماله وقوته وفكره ونافح عن الإسلام، ترك الطرق وأهلها بعد أن كان معتنقا لها، حارب الطرق وأهلها وبارزهم بالحق ونشره، تولىٰ قضاء فاس مدة، ومناصب رئاسية أخرىٰ، توفي سنة ١٣٨٤هـ رَحِمَهُ اللهُ.

انظر: موسوعة أعلام المغرب (٩/ ٣٣٨٣-٣٣٨٥)، وآثار الإمام (٢/ ١٩٣).

(٣) آثار الإمام (٢/ ١٩٣).

الزمن- من سيرة السلف طريقًا في سيرها ودعوتها الإصلاحيّة، ويذكر رحمه الله جانبًا من منهجها في تقرير العقيدة السلفية وما يصاحبها من عبادات وأخلاق، السائرة علىٰ هدي السلف -رضوان الله عليهم- فيقول في ذلك: (ومن عهود جمعية العلماء مع الله أن تنشئ مجتمعًا إسلاميًا يشارف السلف في عقائده وعباداته وأخلاقه وصلته بمحمد ﷺ وقربه من الله، وأن تسلك لذلك طريق التربية قبل طريق التعليم)[1]، (فالجمعية تريد أن ترجع بهذه الأمة -من طريق الإرشاد- إلىٰ هداية الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح لتكون ماشية في رقيّها الروحي علىٰ شعاع تلك الهداية)[2].

وقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحرص علىٰ إحياء سير الصحابة الكرام رضي الله عنهم وبث هديهم بين الناس من خلال دروس الوعظ والتذكير في المساجد، تأسّيًا بالسلف الصالح -رضوان الله عليهم- في ذلك، وقد بيّن الإمام رحمه الله جانبًا من جهود الجمعية في ذلك، إذ يقول رحمه الله: (أما في المساجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتذكير هي طريقة السلف، تذكر بكتاب الله، تشرحه وتستجدي عبره، وبالصحيح من سنّة رسول الله، تبينها وتنشرها، وبسيرته العملية، تجلوها وتدل الناس علىٰ مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة وهديهم، ثم سير حملة السنة النبوية، وحملة الهدي المحمدي في أقوالهم وأعمالهم كذلك)[3].

ويزفّ الإمام الإبراهيمي رحمه الله البشارة بنجاح الجمعية في تقرير مكانة السلف لدىٰ الأمة حتىٰ يحصل الاهتداء بهديهم، فمما ذكره حول ذلك قوله: (وأفلحت الجمعية في تبيين السنّة النبوية المحمدية معنىٰ ومفهومًا، وحمل الأمة علىٰ

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٣٢٩).

(٢) آثار الإمام (١/ ٨٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩١-١٩٢).

الرجوع إليها علمًا وعملًا، والتمسّك بالصحيح الثابت منها فعلًا وتركا، والاهتداء بهدي السلف)[1].

ويتبيّن مما مضىٰ أن الإمام الإبراهيمي رحمه الله يعتقد باعتقاد السلف، ويتبنّاه وينصره ويشيد بمن أشاعه وقرّره، وفي ما سيأتي من المباحث الأخرىٰ ما يؤكد ذلك ويزيده وضوحًا.

ويمكن أن نجمل ما مضىٰ في النقاط التالية:

- تحديده لمقوّمات السلفية وركائزها، وهي الاعتصام بالكتاب والسنة، والبيئة المناسبة لنشأتها، والدراسة المنهجية المحكمة لأصول الاعتقاد الصحيحة والهدي النبوي، ثم التطبيق لذلك.

- رسالته لمعلمي الجمعية والتي يندبهم فيها إلىٰ وعظ الناس وإرشادهم بالاستناد علىٰ الكتاب والسنة والاستدلال بنصوصهما علىٰ النهج السلفي.

- إعلانه الصريح بأن دعوته هي دعوة إلىٰ عقيدة السلف الصالح ومنهجهم.

- احتفاؤه بتقرير عقائد السلف وطريقتهم المخالفة لطريقة المتكلمين.

- استنكاره لبعض ما يخالف منهج السلف كبعض الدعوات الوطنية في زمانه.

- إشادته بالعلماء السلفيين واحتفاؤه بهم وبمناهجهم كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشوكاني ومحمد بن إبراهيم ومحمد نصيف وغيرهم رحمة الله عليهم.

- حرص جمعية العلماء علىٰ إنشاء مجتمع إسلامي يشارف السلف في عقائده وعباداته وأخلاقه.

- البشارة بنجاح الجمعية في تقرير مكانة السلف لدىٰ الأمة وحملها علىٰ الاهتداء بهديهم.

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٨٥).

المبحث الرابع: منابذة الافتراق

تمهيد.

أولًا: نشأة الفِرَق ودخولها علىٰ الأمة.

ثانيًا: الأصول التي انطلق منها في نبذ الافتراق.

ثالثًا: فضائل الاجتماع وعوامله وثمراته.

رابعًا: مساوئ الافتراق وأسبابه وآثاره.

تمهيد

لا ريب أن التفرق في الدين قد جَرَّ الوبال علىٰ المسلمين، وقد ذمّه الله تعالىٰ ونهانا عنه في مواضع عدّة من كتابه العزيز، منها قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، إلىٰ غيرها من الآيات.

وقد أخبرنا النبي ﷺ بوقوع هذا التفرق في الأمة، وقد حذّرنا منه أيضًا، فمن ذلك حديث الافتراق المشهور، وقد جاء بروايات متعددة وألفاظ متقاربة، منها أن النبي ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل افترقت علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق علىٰ ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة وهي: الجماعة**»(١)، ومنها حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًّا ثم قال: «**هذا سبيلُ الله**» ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: «**هذه سُبُل علىٰ كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(٢) [الأنعام: ١٥٣]، إلىٰ غيرها من الأحاديث.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: (٣٩٩٣).

(٢) أخرجه الدارمي برقم: (٢٠٨).

والبدعة مقرونة بالفُرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيُقال أهل السنة والجماعة كما يقال أهل البدعة والفُرقة[1]، وهذه الفرق إنما تصير فِرَقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنىٰ كلّي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات[2].

وقد تجرّعت الأمة مرارة التفرّق طيلة تلك القرون، ولا تزال تنشأ في الأمة فِرَقٌ وأحزابٌ وعداوات جديدة، تزيد المسلمين ضعفًا ووهنًا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقد تتابع عددٌ من علماء الإسلام منذ القرون الأولىٰ إلىٰ يومنا هذا علىٰ بذل الوسع في جمع كلمة المسلمين ونبذ التفرق الذي عصف بهم، ووقفوا في ذلك المواقف المشهودة، وألفوا المؤلفات وصنفوا التصانيف.

وكان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن عُني بهذا الأمر عناية كبيرة، واجتهد فيه اجتهادًا ظاهرًا، فكان شديد الحرص علىٰ جمع كلمة المسلمين، وبذل الوسع في إبعادهم عن التفرق الذي يُفسد العقائد والأعمال، وقد ذكر عن نفسه أنه معتنٍ بجانب الفِرق ودراستها، فيقول: (وأنا قديم العهد بدراسة الملل والنحل والفرق، فغير بعيد عنّي أن أدرس الأحزاب والجمعيات)[3]، ولذا كان جهده في هذا المجال واضحًا مشكورًا، وتقريراته في هذا الباب مليئة بالنفع والفائدة وحُسن العائدة، وقد ضرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأرض يحث المسلمين علىٰ جمع الكلمة ووحدة الصف، ويحذرهم من الاختلاف والتفرق، فسافر إلىٰ باكستان والعراق ومصر وغيرها حاملًا هذا الهم وتلك الرسالة السامية، وسعىٰ بما يستطيع لجمع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب.

---

(١) الاستقامة، لابن تيمية (١/ ٤٢).

(٢) الاعتصام، للشاطبي (٣/ ١٣٩).

(٣) آثار الإمام: (٢/ ٢٦٢).

ومما يبين عِظَم هذا الباب لديه؛ أنه عَدَّ تهاون العلماء فيه خيانةً للدين والأمانة، فيقول في ذلك: (إن أول من يجب عليه أن يؤذن بهذا الصوت جهيرًا مدويًّا هم علماء الإسلام، فكل عالم مسلم لا يدعو إلىٰ اتحاد المسلمين، وإلىٰ إحياء حقائق الإسلام العالية، وإلىٰ إسعاد الشرق بها فهو خائن لدينه، ولأمانة الله عنده)[1]، وقد انتظمت جهوده في منابذة الافتراق في عدة مطالب:

- **أولًا: نشأة الفِرَق ودخولها علىٰ الأمة**
- **ثانيًا: الأصول التي انطلق منها في نبذ الافتراق**
- **ثالثًا: فضائل الاجتماع وعوامله وثمراته**
- **رابعًا: مساوئ الافتراق وأسبابه وآثاره**

وفيما يلي تفصيل هذه المطالب.

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٤٧٢).

أولًا: نشأة الفِرَق ودخولها على الأمة

يتناول الإمام الإبراهيمي ﵀ أسباب نشأة التفرّق في الأمة، ويُرجع ذلك إلىٰ ثلاث مسائل كان الخوض فيها بدايةً لتعدّد السُبُل المفرّقة عن سبيل الله، وهي: القدر، والصفات، والخلافة، وتفصيلها في قوله: (وأول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جراثيم التفرق في الدين الكلام في القدر والخوض في الصفات، وقارن ذلك حدوث الخلاف في الخلافة هل هي شعبة من الدين تفتقر إلىٰ تنصيص من الشارع، أو هي مصلحة دنيوية ترجع إلىٰ اختيار أهل الرأي من الأمة)[1].

ويبيّن ﵀ أن امتزاج المسلمين بالثقافات الأخرىٰ وبحديثي العهد بالإسلام ممّن لديهم بقايا من الديانات والعقائد الأخرىٰ؛ كان له أثرٌ في حدوث التفرّق، فيقول: (ثم توسعت الفتوحات وبسط الإسلام ظلّه علىٰ كثير من الممالك التي كانت لها أثارةٌ[2] من عمران وشيء من سلطان، ودانت له كثير من الأمم، وفي كل أمة طوائف دخلت في الإسلام وهي تحمل أوزارًا من بقايا ماضيها، وما كادت هذه المجموعات البشرية تمتزج ويفعل الإسلام فيها فعله، حتىٰ ظهرت

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٢) بَقِيَّةٌ من شيء أو شيءٌ مأثور.

انظر: لسان العرب (٤/ ٧)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٥٥).

عليها أعراض التفرق. فظهر أصحاب المقالات في العقائد، وأحدثوا بدعة التأويل الذي هو في الحقيقة تحريفٌ مسمّىٰ بغير اسمه)[1].

ومما تبع ذلك؛ ظهور المذاهب البدعية التي ساهمت في إثارة التفرّق بين المسلمين، ومما مكّن لرواج تلك المذاهب ترجمة الفلسفات التي جرّت علىٰ المسلمين أنواعًا من البدع والإحداث في الدين، والافتتان بالتأويل، وقد عدّها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ المبدأ الحقيقي للتفرّق في الدين، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتوفرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية والمذاهب الصوفية في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثرٌ قوي في تعدد المذاهب الكلامية والصوفية، بما أتت به الأولىٰ من بحث في الإلهيات علىٰ الطريقة العقلية الصِّرفة، وبما غذّت به المتكلمين من الأنظار المختلفة وأمدتهم به من طرائق الجدل وقوانينه، وهذا، هو مبدأ التفرق الحقيقي في الدين)[2].

ويقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن علماء السلف كانوا يرجعون إلىٰ القرآن في كل شأن من شؤون الدين، وكانوا يحكّمونه في كل شيء حتىٰ تمكّن سلطانه من نفوسهم فقادوا العالم بسلطانه، وذلك هو السر في علوّ كلمة الإسلام وسرعة انتشاره، وأنه لما ضعف سلطان القرآن في النفوس؛ نشأ علم الكلام وتفرقت منازعه بين الأشاعرة والمعتزلة، وكثُر علم الجدل، وصار علماء الكلام يستدلون بالعقل لا بالقرآن، وتفرّق المسلمون شيعًا حتىٰ أصبح كل رأي يتحزب له جماعة، فيصبح مذهبًا يلتف حوله جماعة ويجادلون، ومن هنا نشأ علم الكلام[3]، وزاد تفرّق الأمة.

ويرىٰ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تلك الفرق قد انقرضت وانقرض بانقراضها سبب جوهري من أسباب التفرق، ولم تبق إلّا أخبارٌ معاركها الجدلية في كتب التاريخ،

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٣) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٥).

وآراؤها المدوّنة في كتبها فتنة للضعفاء وتبصرة للحُصَفاء[1]، وأنه لم يبق من تلك الأسماء إلّا اسمان يدوران في أفواه العامة وأشباههم يستعملونهما في أغراضهم وهما «أهل السنة والمعتزلة»[2].

ونُجمل ما ذكره الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ من أسباب نشأة الفِرَق ودخولها علىٰ الأمة في النقاط التالية:

- الكلام حول مسائل القدر، والصفات، والخلافة، كان بدايةً لتعدّد السُبُل المفرّقة.

- امتزاج المسلمين بالثقافات الأخرىٰ وبحديثي العهد بالإسلام ممن لديهم بقايا من الديانات والعقائد الأخرىٰ.

- ظهور المذاهب البدعية وترجمة الفلسفات التي جرّت المسلمين إلىٰ التفرّق.

- ضعف سلطان القرآن في النفوس، ونشوء علم الكلام والجدل.

---

(١) جمع حصيف، وهو المُحْكَم العقل.
انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي (٨٠٠)، والنهاية، لابن الأثير (١/٣٩٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/١٦٦).

ثانيًا: الأصول التي انطلق منها في نبذ الافتراق

إن المطالع لجهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ الله وتقريراته؛ يتبيّن له اطّراد منهجه وانتظام أصوله التي يبني عليها، وأنه يستند في كل ذلك إلىٰ الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم-.

ومن ذلك الأصول التي انطلق منها في تقرير الاجتماع ونبذ التفرّق، علىٰ النحو الآتي:

١. **أصل التوحيد** الذي هو أصل الأصول، فيقرن الإمام رَحِمَهُ الله بين التوحيد واجتماع الكلمة ويقرر أن التوحيد عاصمٌ من التفرّق في الدين، فيقول: (وإن القلوب التي انطوتْ سُوَيْداؤُها[١] علىٰ معنىٰ التوحيد تأبىٰ أن تحمل معنىٰ من معاني التفريق، ويشهد الله أنكم كل أولئك، علىٰ إقبال الأيام وإدبارها، وإحلائها وإمرارها، فما عَنت وجوهكم لغير الله، ولا خضعتْ أعناقكم لظالم، ولا لويتْ ألسنتكم بكلمة باطل، ولا نزعتم إلىٰ تفرق، ولا تهوّرتم في تأويل، ولا دِنْتُم بتعطيل)[٢]، وصدق رَحِمَهُ الله فإن أعظم ما يعصم الناس من التفرّق في الدين هو توحيد كلمتهم علىٰ كلمة التوحيد.

---

(١) عَلَقةٌ سَوْداءُ، إذا شُقَّ القَلْبُ بَدَتْ كقِطْعة كَبِدٍ. لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ١٢٦)، وسُوَيْدَاء الْقلب وسَواده: دَمه الَّذِي فِيه. جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/ ٦٥٠).

(٢) آثار الإمام: (٢/ ١٢٠).

٢. ما استوحاه من هدي النبي ﷺ وسيرته في جمع قوىٰ المسلمين، وإبعادهم عن التعصب المفرّق للشمل والمضعف للقوىٰ؛ فيقول عن ذلك: (ما زلت منذ درست السيرة بعقلي، أقف في بعض مقاماتها علىٰ ساحل بحر لجّيٍّ من العِبَر والمثُلات، ومن بين تلك المقامات حادثة الهجرة . . . أتلمَّح العوامل الإلهية فيها فأستجلي من بعض أسرارها التمهيد للجمع بين أصلي العرب اللذين كانا في الجاهلية يتنازعان مَلاءَة[١] الفخر، ويُؤَرّث الرؤساءُ والشعراءُ بينهما نار العصبيّة . . .)[٢].

ويبيّن رَحِمَهُ اللهُ كيف أحال النبي ﷺ تلك الفُرقة إلىٰ اجتماع، فآخىٰ بين المهاجرين والأنصار وألّف بين قلوبهم، فيقول: (جاءت النبوّة من مكة إلىٰ المدينة تعمل عملها في جمع القوّتين اللتين أحالهما التفرّق ضعفًا، فجمعت المهاجرين والأنصار، وكأنما جمعت عدنان وقحطان في دار، يتصافحان علىٰ العروبة، ويتآخيان علىٰ الإسلام، ويُحيِيان من الأواصر والشوابك ما أماتته عِبِّيَّةُ الجاهلية[٣]، ويُميتان من النعرات المفرّقة ما كانت تحييه المنافرات والمفاخرات، وفي عقد التآخي بين المهاجرين والأنصار عنوان ذلك ودليله)[٤].

٣. الفهم الصحيح لدين الإسلام، إذ يعصم ذلك الفهم من الوقوع في الافتراق، وذلك لدلائل الإسلام المتوافرة وسننه المتظافرة في هذا الباب؛ فيقول رَحِمَهُ اللهُ: (ويمينًا بَرَّة لا حنث فيها ولا تأوُّل، لو أن الإسلام فهم علىٰ حقيقته، وطبّق علىٰ وجهه الذي جاء به من عند الله محمد بن عبد الله لكان هو الدواء النافع الذي يحل العقد ويرفع الإشكال، ولكان هو الحكم في معترك الخلاف،

---

(١) يُقال: مَلُؤَ الرَّجُلُ يَمْلُؤُ مَلاءَةً، فَهُوَ مَلِيءٌ: صَارَ مَلِيئًا أَي ثِقَةً، فَهُوَ غَنِيٌّ مَلِيء.
انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٥٩)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي (٥٣).

(٢) آثار الإمام: (٣/ ٤٧٣).

(٣) يَعْنِي الكِبر.
انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (١/ ٨٧)، والنهاية، لابن الأثير (٣/ ١٦٩).

(٤) آثار الإمام: (٣/ ٤٧٣).

والجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم. ولكن الإسلام جَمُد فذهبت خواصُّه، وتفرّقت مذاهبه فزهقت روحه وذهبت ريحه)[١]. وقد كان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتّخذ من الإسلام سبيلًا للدعوة إلىٰ الاجتماع ونبذ الفرقة، ويقول في ذلك: (واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورًا للدعوة إلىٰ الاتحاد، وموئلًا[٢] نسوق إليه المتفرقين من أهله، لا تحريكًا للعصبية الدينية أو الجنسية، ولكن لأنها الجوامع الطبيعية لرجالنا العاملين، والصفات التي تربطهم بالأمة، والأصول التي ائتمنتهم الأمة علىٰ المطالبة بحقوقها فيها، ولأن الاستعمار إنما يسومنا الخسف والظلم لأجل هذه الثلاثة ويغالبنا عليها منذ قرن ونيّف)[٣].

٤. **الاجتماع علىٰ المتفق عليه** وهو القرآن، والاعتصام به وتحكيمه في كل أمر، إذ بذلك تتلاشىٰ الفوارق وتزول العوائق، فيقول مبيّنا ذلك: (وأما دواء هذه العِلَّة فهو معروف من العلة نفسها ومبدؤها من علماء الدين، فالواجب المتعيّن عليهم أن يتداعوا إلىٰ نبذ الخلاف في الدين واللياذ بالمتفق عليه وهو القرآن، ثم يحملوا الحاكمين علىٰ إقامته والاهتداء بما أرشد إليه ويحملوا المحكومين علىٰ التخلّق بآدابه والوقوف عند حدوده والإذعان لأحكامه)[٤].

فتحصّل لدينا بذلك أربعة أصول كانت منطلقًا للإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جمع الكلمة ونبذ الفُرقة، وهي:

١. أصل الأصول (التوحيد).

٢. هدي النبي ﷺ وسيرته في ذلك.

٣. الفهم الصحيح لدين الإسلام.

٤. الاجتماع علىٰ المتفق عليه وهو (القرآن).

---

(١) آثار الإمام: (٤/٧٨).

(٢) الموئل: الملجأ. لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٧١٥)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٦/ ٧٩).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٣٠٤).

(٤) آثار الإمام: (٤/ ٢١٤).

وإذا صَحَّ توحيد الناس، واتبعوا هدي نبيهم ﷺ وسيرته، وفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، واجتمعوا علىٰ القرآن فحكّموه في كل أمر؛ زالت فُرقتهم واجتمعت كلمتهم علىٰ الحق، وفي المطلب التالي بيان لجملة من فضائل اجتماع الكلمة وعوامل ذلك وآثاره علىٰ الأمة.

ثالثًا: فضائل الاجتماع وعوامله وثمراته

الاجتماع أساسٌ من أُسُس الخير والفضيلة.

تعددت عبارات الإمام الإبراهيمي ﷺ وجهوده في تقرير أهمية الاجتماع وبيان فضائله وعوامله وآثاره، فمما ذكره في بيان فضيلة الاجتماع، كونه من أسس الخير والفضيلة والأدب؛ فيقول: (ولا يخفىٰ أن هذه البلدة -ولا نكران للحق- تنقصها فضيلة من أمهات الفضائل وهي الاجتماع المثمر للتعارف، وقد فاتتها بفوات هذه الفضيلة مجموعة من مجاميع الأدب الغالية وهي آداب الاجتماع، وفَاتَها بفوات ذلك كله خير عظيم وهو ما يتمتع به المجتمعون من ثمرات الاجتماع)[1]، وكم من خيراتٍ فقدها أرباب التفرّق لتركهم الاجتماع المنطوي علىٰ كل خير.

وقد بيّن ﷺ فيما بيّن من فضائل الاجتماع أنه نتاج العقل الراجح والإخلاص الرابح، وأنه الخير كله؛ فيقول: (لو رزق الله إخواننا هؤلاء عقولًا تزن الأمورَ بعواقبها، وإخلاصًا يذيب الحسد، ويذهب بالأنانية، لعلموا أن الخير كل الخير في الاجتماع، وأنّ القوة كلّ القوة في الاتحاد، وأن الخروج علىٰ الجماعة أهلكَ من قبلنا وهم في نهاية القوة. فكيف لا يهلكنا ونحن في نهاية

---

(١) آثار الإمام: (١/ ٩٢).

الضعف؟ وأن الثمرات التي نرجوها من المدرسة للجيل الجديد لا تأتي مع هذا التفرّق والتشتيت)[1].

الإسلام دين الاجتماع.

ويقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن دين الإسلام دين اجتماع، ومن أدلّ الأمور علىٰ ذلك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي جاء بها الإسلام، فيقول: (ولهذا نرىٰ الإسلام يأخذ في شرطه علىٰ أبنائه أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ويبدئ في هذا المعنىٰ ويعيد، ويضرب الأمثال ويبيّن الآثار، ويلفت النفوس إلىٰ الاعتبار بمن مضوا وإلىٰ سنن الله الخالية فيهم. لو لم يكن من أصول دينكم، أيها الإخوة، وتعاليمه إلّا هذا الأصل -وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لكفاه دلالة علىٰ أنه دين اجتماع وعمران وحياة وبقاء)[2]، وفي ترك هذه الفريضة ما فيه من إذكاء لنار التفرق ونقض لعرىٰ الاجتماع.

الاجتماع من المقاصد المتفق عليها بين الأديان.

ومما يدلّ علىٰ عِظَم مكانة الاجتماع؛ ما قرّره الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من توافق الأديان السماوية علىٰ ذلك، وأن الاجتماع علىٰ الحق مقصُد من مقاصدها التي جاءت بها ونزلت بها كتبها، فيقول: (تلتقي الأديان السماوية في كلمة سواء ومقصد أعلىٰ وهو جمع أهلها علىٰ الهدىٰ والحق، ليسعدوا في الدنيا ويستعدوا لسعادة الأخرىٰ. بهذا جاءت الأديان المعروفة، وبهذا نزلت كتبها)[3]، وقد قُرّر ذلك في القرآن العظيم، ففيه بيان لبعض ما قرّرته تلك الكتب علىٰ تلك الأمم في الحث علىٰ الاجتماع ونبذ التفرق، وفي ذلك يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقرآن الذي هو المهيمن عليها يخبرنا بأن كتاب موسىٰ إمام ورحمة، وأن الله تعالىٰ أنزل التوراة

---

(١) آثار الإمام: (٣/ ٢٧٦).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٣٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦١).

والإنجيل هدىٰ للناس، وأنهما جاءا بما جاء به القرآن من الدعوة إلىٰ عبادة إله واحد والرجوع إليه وحده فيما يعلو كسب البشر، ومن بث التآخي بين الناس وعدم استعباد بعضهم للبعض . . . ويخبرنا أن من وصايا الله الجامعة لتلك الأمم علىٰ ألسنة رسلها هي أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه)[1]، يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فشرع الله لنا ولِمَن قبلنا إقامة الدِّين وترك الفُرقة، وشرع الاجتماع علىٰ اتِّباع الرُّسل[2].

الاجتماع أساس القوّة.

ويقرّر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاجتماع والتقارب أساس القوة، وأن المسلمين أولىٰ بهذا الاجتماع علىٰ الإسلام من أمم الكفر التي تداعت للاجتماع علىٰ باطلها، فيقول: (إنك لترىٰ للمسلمين وجودًا في كل قطر، وتسمع عنهم نبأ في كل ناحية، ولكنهم متفرقون في زمن أصبح فيه التكتّل شرطًا للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساسًا للقوّة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوىٰ وسائل التعاون. ومنصرفون عن الجامعة الإسلامية الواسعة إلىٰ جوامع أخرىٰ ضيقة الآفاق من جنسية وإقليمية في هذا الزمن الذي يتداعىٰ فيه أتباع الأديان القديمة، ومعتنقو النحل الحديثة، إلىٰ التجمع حول المبادئ الروحية أو الفكرية)[3]، وقد كان أحرىٰ بالمسلمين أن يتحدّوا بالحق الذي معهم علىٰ الباطل المتربص بهم.

ويؤكد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوة المسلمين في اتحادهم واجتماعهم، فيقول: (لا تستيئسوا. إن لم يكن لكم بعض ما لديهم من القوة المادية، فعندكم من القوة

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦١-١٦٢).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٤/ ٦١).

(٣) آثار الإمام: (٢/ ٣٨٦).

المعنوية ما لو أحسنتم تصريفه واستغلاله لغلب ضعفكم قوّتهم. إن قوّتكم في الاتحاد فاتّحدوا. إن الأمة من ورائكم، وهي مختلفة باختلافكم، فإذا اتحدتم اتحدتْ . . . فأنعشوا آمال أمّتكم باتحادكم وقوُّوا معنوياتها بجمع كلمتكم)[١].

الوصيّة للقادة بجمع الكلمة.

ومن جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير أهمية الاجتماع ونبذ التفرق؛ حضّه علىٰ ذلك في مناسباتٍ كثيرة ومتفرّقة، ومن ذلك وصيته لقادة زمانه بتوحيد الصف والعمل وجمع القوىٰ المتفرقة، وكون أهل الحق أولىٰ بذلك من أهل الباطل؛ فيقول: (فعلىٰ قادة هذه الحركات أن يوحّدوا الأعمال والوسائل، وأن يجمعوا هذه القوىٰ المتفرقة لتكون أقوىٰ، ويوحّدوا القيادة العامة ليكون ذلك أدعىٰ لرهبة الخصوم المتألِّبين[٢]، وأجمع لشمل الأتباع والجنود، وإذا كنّا نرىٰ أصحاب الباطل يجتمعون علىٰ باطلهم ليدحضوا به الحق، فكيف لا يجتمع أهل الحق علىٰ حقّهم؟ ومن طبيعة الحق أن يجمع الناس علىٰ أنفسهم)[٣].

ويؤكد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانه لضرورة الاجتماع فيقرّر أنه أمر لا يختلف فيه عاقلان، وأنه أمنية كل مسلم مخلص لدينه وجنسه ووطنه، وأنه لا يماري في لزومه إلا قصير النظر في العواقب، أو خادم لرِكاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مغطىٰ البصر في العصبية الحزبية، أو مدخول العقيدة في الإسلام، ويُلِحُّ في رجائه من رجال الأمة أن يتّحدوا علىٰ الأصول المُسَلَّمة، لأن الغاية واحدة، والخلاف إنما هو في الوسائل الموصلة إلىٰ تلك الغاية، ولذا كان الاتحاد والاجتماع من أيسر الأمور، زيادة علىٰ كونه من ألزم الأمور[٤].

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) أي: المتجمّعين.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٢١٥)، والمعجم الوسيط (١/ ٢٣).

(٣) آثار الإمام: (٤/ ٢٠٢).

(٤) انظر: آثار الإمام (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).

ويتحدث رَحِمَهُ الله عن حالةٍ من الانسجام الذي كانوا يعيشونه مع شيخهم ابن باديس رَحِمَهُ الله ومجموعة طلابه، وكيف كانوا علىٰ قلب رجلٍ واحد ونفسٍ واحدة، ويُرجع ذلك إلىٰ سبب عظيم وهو الاجتماع لله وفي الله ولنصرة دين الله، فيقول: (إن لهذه الحالة فينا علّة وثمرة: أما العلة فهي أن اجتماعنا كان لله ولنصر دين الله ولتأدية حق الله في عباده، دأبنا في ذلك التعاون علىٰ الخير، والاستباق إلىٰ الخير، فلا مجال للمنافسة وحظ النفس)[1].

من ثمرات الاجتماع التمكين في الأرض.

ويقرِن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ الله بين الإيمان الحق والاجتماع علىٰ الحق، وأن من ثمرات ذلك التمكين والخلافة في الأرض، فيقول في بيان ذلك: (فلو أنكم آمنتم بالله حق الإيمان، وعملتم الصالحات التي جاء بها القرآن، ومنها جمع الكلمة، وإعداد القوّة، ومحو التنازع من بينكم، لأنجز الله لكم وعده، وجعلكم خلائف الأرض؛ ولكنكم تنازعتم ففشلتم وذهبتْ ريحكم، وما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم)[2].

من ثمرات الاجتماع المشاهدة والملموسة.

ويقرر رَحِمَهُ الله آثار ذلك الاجتماع المجانب للتفرق، وبعض ثماره اليانعة كالنجاح في مختلف الأعمال، فيقول: (وأما الثمرة فهي هذا النجاح الباهر الذي نلقاه في كل أعمالنا للأمّة، في تطهير العقول، وفي تصحيح العقائد، وفي استجابة داعي القرآن، وفي تمكين سلطان السنّة، وفي صدق التوجه إلىٰ العلم، وفي تشييد المدارس، وفي كثرة الإقبال عليها والبذل لها، وفي كل معالجة بيننا وبين الأمّة. إن هذا من صنع الله لا مما تصوغه الأهواء النفسية الخبيثة، وما

(١) آثار الإمام: (٣/ ٥٥٣).

(٢) آثار الإمام: (٣/ ٤٧٠).

جمعته يد الله لا تفرّقه يد الشيطان)[1]، ولا غرابة أن تكون هذه ثمار الاجتماع الذي أمر الله به وحضّ عليه وأثاب عليه.

تنوُّع الجهود الإصلاحية في سبيل جمع الكلمة.

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله بعض جهوده الإصلاحية التي قام بها في هذا الباب من تقرير لأهمية الاجتماع، ونبذ التفرق المفسد للعقائد والأعمال، فيذكر عن نفسه أنه لم يأْلُ جهدًا في سبيل ذلك، مع اتخاذه أساليب متنوعة في أوقات متعددة بعبارات مختلفة مع مراعاته للأحوال، فيقول: (دعوْنا بالقلم مرّات أحزابنا السياسية الجزائرية إلىٰ الاتحاد؛ وبيّنّا لهم ما يجهلونه من ثمراته وفوائده. ودعونا إليه باللسان في مجالس لا تحصىٰ، نوّعنا فيها العبارات، وشرحنا الأسباب الداعية إليه من واقعة ومتوقعة؛ وخاطبنا بذلك جماعة من المسؤولين وذوي الرأي من أحزابنا، وتلطفنا في التحيّل، فاخترنا للدعوة كثيرًا من المناسبات التي يسهل معها الدخول إلىٰ النفوس النافرة، والتأثير علىٰ العواطف الفائرة، والتغلّب علىٰ النزعات الحادة)[2].

من عوامل جمع الكلمة.

ويقرر الإمام رحمه الله أن من مسبّبات اجتماع الأمة وعدم تفرّقها: دين الإسلام ولغته العربية، فإذا اجتمعت عليهما الأمة كانت أبعد شيء عن التفرق، فيقول في بيان أهمية وحدة الدين واللسان: (فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبىٰ لها الله أن تتفرّق وإن كثرت فيها دواعي التفرّق)[3].

وقد عدّد رحمه الله مجموعةً من العوامل التي كانت سببًا في اجتماع الأمة في أوّل أمرها وعدم تفرّقها؛ فقد كان سلفها نموذجًا أعلىٰ في ذلك، ومن تلك المقومات:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٣/ ٣٠٤).

(٣) آثار الإمام: (١/ ١٠٧).

١- إقامة الدين والاستقامة عليه أتمّ استقامة.

٢- والتسليم لنصوص الوحيين.

٣- والفطرة السليمة.

٤- والإخلاص التام.

٥- والبصيرة في العلم والنظر السديد.

٦- والحرص علىٰ الاستبراء للدين.

٧- والعزوف عن فتنة الرأي.

٨- والبعد عن فتنة التأويل(١).

القرآن من أعظم عوامل جمع الكلمة.

وقد قرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أن القرآن من أعظم عوامل الاجتماع وعدم التفرّق، وذلك بوجوه عدة:

الوجه الأول: بيانه أن الالتزام بحدود القرآن يهذّب النفس ويحملها علىٰ الاجتماع وترك الفرقة؛ فيقول: (أدّبهم قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فكانوا أحرص الناس علىٰ وفاق، وكانوا كلما طاف بهم طائف الخلاف في مسألة دينية بادروه بالرد إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسوله فانحسم الداء وانجابت الحيرة)(٢).

الوجه الثاني: التأكيد علىٰ كون القرآن العظيم أهم العوامل في إصلاح الأمة وجمعها بعد الشتات والتفرّق إذا أخذه المسلمون بحقّه؛ فيقول: (ما دام هذا القرآن موجودًا بين المسلمين، يقرؤونه ويجلّونه ويضعونه في مكانه من

---

(١) انظر: آثار الإمام: (١/ ١٦٣).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٦٤).

التقديس، فإن الأمل في إصلاح المسلمين لا ينقطع، لأن أوائلهم ما صلحوا إلّا به، فلا يصلح آخرهم إلّا به، وما هي إلّا هبة من هباته ونفحة من نفحاته تهب علىٰ نفوس هذا القطيع المبدّد وإذا قلوبهم مجتمعة، ونوافرهم متآلفة، وأمرهم جميع، وإذا بالمعجزة القرآنية التي جمعت العرب بعد ما كانوا عليه من تشتّت وتدابر، تعود ثانية فتنقل هذه الأمم من حال إلىٰ حال)[1].

الوجه الثالث: تقريره أن الاستمساك بالقرآن والرجوع إليه، والاستقامة علىٰ دين الإسلام العظيم؛ من أهم عوامل جمع الكلمة ونبذ الفُرقة، فيقول: (وقد كان للمسلمين -من بين الأمم القديمة والحديثة- معتصَم باذِخ[2] لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق فَوَقىٰ حضارتهم من الانهيار؛ وهو القرآن ودينه الإسلام -نعمة خُصّوا بها دون الأمم-. كانت تعصف بهم من عواصف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه ما أقله كافٍ في تدمير الممالك وتتبير[3] الحضارات، فيرجعون إلىٰ القرآن ويعتصمون بالإسلام فيجدون فيهما الْوَزَر[4] الواقي)[5].

دور علماء الأمة في جمع الكلمة.

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله دور العلماء الفعّال في اجتماع الأمة وائتلافها وحمايتهم لها من افتراقها؛ فيقول: (وكان العلماء هم المرجع الأعلىٰ للعامة في كل ما يحزبُها من شؤون دينها يرجعون إليهم بلا عصبية ويصدرون عن رأيهم

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٧٩).

(٢) الباذِخ: العالي.

انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٢١٨)، والنهاية، لابن الأثير (١/ ١١٠).

(٣) التتبير: التدمير والهلاك.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٨٨)، وجمهرة اللغة، لابن دريد (١/ ٢٥٣).

(٤) الوَزَر: الملجأ.

انظر: المصباح المنير، للفيومي (٢/ ٦٥٧)، والنهاية، لابن الأثير (٥/ ١٨٠).

(٥) آثار الإمام: (١/ ٣٢٤-٣٢٥).

بلا عصبية، وكان العلماء يمثلون الاستخلاف الديني والوراثة النبوية تمام التمثيل، يقودون الأمة بالحق إلىٰ الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا تأخذهم في الله لومة لائم)[1]، وما يزال العلماء الربّانيّون يسعون في جمع كلمة الأمة كلما سنحت لهم فرصة وتهيّأ لهم سبيل في ذلك.

أثر روحانيات الإسلام في جمع الكلمة.

ومما يُعَدّ عاملًا في اجتماع أبناء الأمة وائتلاف قلوبهم؛ روح الإسلام الأخوية التي تسري فيهم فتجمعهم ولا تفرقهم، وفي ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (ما زال الإسلام . . . يشعّ بالروحانيات التي تقهر المادة وتغلبها علىٰ سلطانها، حتىٰ في أيام صولتها وحوْلها، وما زال يجمع قلوب أبنائه علىٰ نوع غريب من الأخوة تُنسيهم إياه الأحداث، ثم يتنبّه في نفوسهم بأيسر منبّه. أمعنت عوامل الشر في تشتيت المسلمين والتبعيد بين قلوبهم باختلاف المذاهب والمنازع في الدين والدنيا . . . ولكن قوة الروحانية في الإسلام تغلّبت علىٰ تلك العوامل كلها)[2].

تحويل الخلاف من الغايات إلىٰ الوسائل، والتدرّج في إزالة أسبابه.

ومن وسائل جمع كلمة الأمة وعلاج فُرقتها وتقليل خلافها؛ تحويل الخلاف من الغايات إلىٰ الوسائل، ويوضح الإمام الإبراهيمي رحمه الله ذلك فيقول: (إذا هيّأ الله أمّةً للسعادة جرّ إليها الخير بأسباب من الشرّ، وساق إليها النفع بوسائل الضرّ، ومرّ بها إلىٰ الحق علىٰ قنطرة من الباطل، وجعل الخلاف فيها ممكّنًا للوفاق، والتضاد في أعمالها مثبّتًا للائتلاف، وذلك بتوفيق المتخالفين، إلىٰ أن يكون الخلاف خلافًا في الوسائل لا في الغايات، والاتجاه إلىٰ هدف واحد)[3]،

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٢) آثار الإمام: (٢/ ٣٧٥).

(٣) آثار الإمام: (٤/ ٧٩).

كما أن من وسائل تقليل الخلاف والفُرقة وتمكين الوِفاق والاجتماع إشاعة المحبة، فهي الرباط الجامع للأمم، وإذا خَلَصت المحبّة بين أفراد الأمّة تمحَّض الخلاف إلىٰ أحسن ثمراته، واختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية[1].

ويبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن العمل المتضافر علىٰ إزالة الخلاف وأسبابه مع التدرّج في ذلك؛ يعالج علىٰ نبذ الفُرقةِ والخلاف؛ فيقول: (كل ما هو موجود بين المسلمين من خلاف وفتن وشرور هو مرحلة طبيعية للأمم في الأطوار الأولىٰ من نهضاتها، فلا يَهُولَنَّنا أن هذا الشيء خصصنا به، ولا يثبطننا هذا عن الاستماتة في علاجه والعمل متضافرين علىٰ إزالته بالتدرّج، لأن أول مراحل النهضة هو آخر مراحل الانحطاط)[2].

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في تقرير أهمية الاجتماع وفضائله وعوامله وثمراته؛ نُجمل ما قرره من ذلك فيما يلي:

- الاجتماع أساس عظيم من أسس الخير والفضيلة والأدب.

- دين الإسلام دين اجتماع، ومن أدلّة ذلك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- في القرآن بيان لبعض ما قرّرته الكتب السماوية في الحث علىٰ الاجتماع ونبذ التفرق.

- الاجتماع أساس قوة المسلمين.

- الاجتماع نتاج لرجاحة العقل والإخلاص.

- أهل الحق أولىٰ -بتوحيد الصف وجمع القوىٰ المتفرقة- من أهل الباطل.

- الاجتماع أمر لا يختلف فيه عاقلان ويتمناه كل مسلم مخلص.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

- لا يماري في لزوم الاجتماع إلا عديم البصيرة أو خادم للاستعمار أو مدخول العقيدة.

- أهمية الاتحاد علىٰ الأصول المُسَلَّمة لأن الغاية واحدة، والخلاف إنما هو في الوسائل.

- الاتحاد والاجتماع من أيسر الأمور ومن ألزم الأمور.

- اقتران الاجتماع بالإيمان الحق ومن ثمراته التمكين والخلافة في الأرض.

- من ثمرات الاجتماع النجاح الباهر في العمل للأمّة وتصحيح العقائد.

- من عوامل اجتماع الأمة وعدم تفرّقها: دين الإسلام ولغته العربية.

- من عوامل الاجتماع الاستمساك بالقرآن والتزام حدوده.

- من عوامل الاجتماع إقامة الدين والاستقامة عليه، والتسليم لنصوص الوحيين.

- من عوامل الاجتماع سلامة الفطرة، والبصيرة، والاستبراء للدين، والبعد عن فتنتي الرأي والتأويل.

- من عوامل الاجتماع دور العلماء الفعّال في جمع كلمة الأمة.

- من عوامل الاجتماع روح الإسلام الأخوية التي تسري في المسلمين.

- من عوامل الاجتماع تحويل الخلاف من الغايات إلىٰ الوسائل.

- من عوامل الاجتماع إشاعة المحبة بين المسلمين.

- من عوامل الاجتماع العمل المتضافر علىٰ إزالة الخلاف وأسبابه بالتدرّج.

تحذير القرآن من الافتراق الذي أضَرَّ بالأمم السابقة.

كل أمرٍ نهىٰ الله عنه فإنه يضر فاعله ولا ينفعه، وإن للتفرق آثارًا خطيرةً وأضرارًا كبيرةً، وقد ذكر الله جل وعلا أن عاقبة التفرق هو الفشل وفساد الأمر؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقد حذّرنا القرآن من سلوك طريق الأمم السابقة التي ضلّت بتفرّقها وتعدّد سبلها، ويبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله ذلك بقوله: (تلك الأمم لم تحفظ وصية الله فتفرقت في الدين شيعًا، وجعلت السبيل الواحد سبلًا، واختلفت في الحق من بعد ما جاءها من العلم والبينات فقامت عليها الحجة وحقت عليها كلمة الله وكان عاقبة أمرها خسرًا. والقرآن يبدئ ويعيد في هذا الباب ويقص علينا من مبادئ بني إسرائيل ومصائرهم ومواردهم ومصادرهم ما فيه مزدجر، كل ذلك لنعتبر بأحوالهم، ولا نسلك الطريق الذي سلكوا فنهلك كما هلكوا)[١].

ويرىٰ الإمام رحمه الله أن المذاهب العصرية المفرّقة هي مما نهانا الله عن سلوك سُبُلِه، فيقول: (هل آن لهم أن يعلموا أن هذه المذاهب التي صيّرتهم أوزاعًا[٢]

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٢).

(٢) الأَوزاعُ: الفِرَقُ والجماعات مِنَ النَّاسِ، يُقَالُ أَتَيْتُهم وَهُمْ أَوْزاعٌ أَي مُتَفَرِّقُون.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٣٩١)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٦/ ١٠٦).

في الدين والدنيا هي السبيل المفرّقة عن سبيل الله الواحد، وهي التي نهىٰ الله عن اتّباعها؟)[1]، يشير إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

تحذير النبي ﷺ لأمّته من الافتراق وضرره.

ومما يبيّن ضرر التفرّق، حرص النبي ﷺ علىٰ أمته وخوفه عليها من التفرّق، وقد تفرّقت أمّته من بعده، فلم تنتفع بعِظات القرآن وزواجره، وفي ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (ولم يَأْلُ[2] نبينا ﷺ أمته نصحًا وابلاغًا في هذا الباب، وكيف لا وقد أنزل عليه ربه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فكان أخشىٰ ما يخشاه علىٰ أمته أن يَدِبّ فيها داء الأمم قبلها فتختلف كما اختلفت، وتتفرق في الدين كما تفرقت. وقد وقع ما كان يخشاه ﷺ، فتفرقت أمته في الدين)[3]، ومن آثار ذلك التفرّق الذي عصف بالأمة أن: (لعنَ بعضها بعضًا باسم الدين، وأكل بعضها مال بعض باسم الدين، وانتهكت الأعراض والحرمات باسم الدين، واتبعت سَنَنَ من قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع. ولم تنتفع بتلك العظات البالغة والنذر الصادعة من كلام الله وكلام رسوله، حتىٰ حقّت عليها الكلمة وصارت إلىٰ أَسْوَإِ حال من الخزي والنكال)[4].

من مساوئ الافتراق والتحزُّب علىٰ الدين وأهله.

ومما ذكره الإمام رحمه الله أيضًا من مساوئ التفرق وشنائعه وآثاره؛ بيانه أنه

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٤٧٤).

(٢) أي: لم يفتُر ولم يُقصّر.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٤٠).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٢).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٦٢).

لا خير في التفرق فهو شر كله، وأن من آثاره اختلاف القلوب، وتشويه صورة الدين الحنيف وأتباعه لدىٰ غيرهم، وتعريض الدين للاحتقار، فيقول: (إن التفرّق شرّ كله، وشرّ أنواع التفرّق ما كان في الدين، وأشنع أنواع التفرّق في الدين ما كان منشؤه الهوىٰ والغرض، ونتيجته التعادي والتباغض وأثره في نفوس الأجانب السخرية من الدين والتنقّص له واتخاذ أعمال أهله حجة عليه، وما أعظم جناية المسلم الذي يقيم من أعماله الفاسدة حجة علىٰ دينه الصحيح، وما أشنع جريمة المسلم الذي يعرض -بسوء عمله- دينه الطاهر النقي للزراية والاحتقار)[1].

ويذمّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التفرّق والتحزّب، ويبيّن بعض آثاره السيئة كالضعف واستيلاء العدو وغير ذلك، وكيف تناول القرآن هذه القضية؛ فيقول: (لم نرَ من تعدد الأحزاب إلا نقصًا في القوة، ونقضًا للوحدة، وتنفيسًا علىٰ الخصم، واشتغالًا من بعضهم ببعضهم؛ وتعالتْ كلمة القرآن، فإنه لا يكاد يذكر الأحزابَ بلفظ الجمع إلا في مقام الخلاف والهزيمة ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مَرْيَم: ٣٧]، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [سُورَةُ صٓ: ١١]، ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ المفرد إلا في مقام الخير والفلاح ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجَادلة: ٢٢])[2].

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من مساوئ التفرّق وآثاره السيئة علىٰ المسلمين؛ ما يجرّه عليهم من الضعف وتسلط الأعداء فيقول: (إن ضعف الضعيف لا يكون -في سنّة الله- إلا زيادة في قوة القوي، وإن اختلافكم ضعف، فهو لا يكون إلا زيادة في قوة خصومكم وخصوم قضيتكم)[3]، ويزيد هذا المعنىٰ تأكيدا بقوله: (إن المسلمين كثير، ولكن التفرّق صيّرهم قليلًا مستضعفين في

---

(١) آثار الإمام: (٢/ ١٦٢).

(٢) آثار الإمام: (٣/ ٦٦).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٣٠١).

الأرض، يشقون لإسعاد غيرهم، ويموتون في سبيل إحياء عدوّهم، وإنها لخطة من الهوان يأباها أكثر الحيوانات العجماء[١]، فكيف الخلائق العقلاء)[٢]، ويذكر رَحِمَهُ اللهُ أن هذا معتقد كل مسلم في شأن التفرّق وخطره، فيقول: (كلّ مسلم عربي جزائري مخلص يُؤيّدنا في الدعوة إلىٰ هذا الاتحاد. ويود منه ما نود، ويعتقد فيه ما نعتقده من أنّه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية والوسيلة الوحيدة لنجاحها، ويرىٰ ما نرىٰ من آثار هذا التفرّق الشنيع الذي شتّت شمل هذه الأمة الضعيفة فزادها ضعفًا علىٰ ضعف في وقت تطلعتْ فيه إلىٰ المطالبة بحقّها، فهي فيه أحوج ما تكون إلىٰ جمع القوىٰ والتئام الشمل واتحاد الكلمة)[٣].

فالتفرّق من أعظم مواطن الضعف التي يتخلل منها العدو، وقد لاحظ الاستعمار الغاشم ذلك: (وقد جَسَّ[٤] مواقع الضعف منكم فوجدها في التفرق والتخاذل والبخل، فاتخذ منها دلائل علىٰ موت مشاريعكم)[٥]، فمن آثار التفرق الظاهرة استعلاء المستعمر واستقواؤه علىٰ المسلمين عند تفرقهم، فيقول في بيان هذا الأثر: (وإذا كان الاستعمار قويًا كما نتخيّل فإننا نزيده قوة بتخاذلنا وتفرّقنا وتطاحن هيئاتنا وإضاعة أوقاتنا الثمينة في الجهل الفارغ والانسياق مع الأهواء المضلّلة . . . إن عدوّنا واحد فلنلقه في ميدان واحد برأي واحد وصف واحد، ولو فعلنا وأخلصنا لسعت إلينا الحرية ركضًا، ولكن عدوّنا أعلم بهذه النقائص

---

(١) العَجْمَاء: البهيمة، سُمِّيَتْ عَجْمَاءَ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ وَكُلُّ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْكَلَامِ أَصْلًا فَهُوَ (أَعْجَمُ) وَ (مُسْتَعْجِمٌ).

انظر: مختار الصحاح، للرازي (١/ ٢٠١)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي (١١٣٥).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٦٠).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٣٠٥).

(٤) أي: بحَث وفَحَص.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٣٨)، وتاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٤٩٩).

(٥) آثار الإمام: (٢/ ٤٣٣).

فينا منا فهو نائم ملء عينيه ما دام يرانا علىٰ هذه الحالة)[١]، وكم استغل أعداء الإسلام تفرق المسلمين فنفذوا إليهم من خلال هذه الثغرة.

التفرّق أصل داء الأمة.

بل يعدّ الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصل داء الأمة في التفرق، فيقول: (من كتم داءه قتله، وقد آن أن نعلن داءنا، ونعترف بنقائصنا . . . وداء إخواننا الليبيين هو داؤنا جميعً . . . هو الداء الذي ترك جزيرة العرب تضمّ ملاءتها[٢] علىٰ بضع دول وإمارات، وعلىٰ عدة ملوك وأمراء؛ ولولا ذلك الداء لكان للعرب دولة واحدة، لأنهم أمة واحدة في رقعة واحدة، ولكان ذلك أرهب لعدوّهم، وأحفظ لحقيقتهم، ولولا ذلك الداء لما ضاعت فلسطين، ولما بؤنا بسبة الدهر وعار الأبد. أصل دائنا التفرق والخلاف، بدأ صغيرًا في الدين، ثم بدأ كبيرًا في الدنيا)[٣].

الافتراق واختلال العقائد.

ثم يعدّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ آثارًا كثيرةً وخطيرةً تنشأ عن التفرق والاختلاف، ومن أبرزها اختلال العقيدة التي هي رأس المال؛ فيقول: (ومن الخلاف تشعبت شعب تلتقي معه في الأثر والنتيجة والشر والضر، والطعم المر؛ كما يحمل الفرع خصائص أصله، فاذكر الخلاف تذكر التخاذل والأنانية ووهن العزائم، واذكر الخلاف تذكر عدم الاعتداد بالنفس وعدم الثقة بين الإخوان؛ واذكر الخلاف تذكر تعدد الزعماء والأحزاب في الوطن الواحد، واذكر الخلاف تذكر ضعف العقيدة وخَطَل[٤]

(١) آثار الإمام: (٤/ ٣٠٢).
(٢) يُقال: مَلُؤَ الرَّجُلُ يَمْلُؤُ مَلاءَةً، فَهُوَ مَلِيءٌ: صَارَ مَلِيئًا، فَهُوَ غَنِيٌّ مَلِيء.
انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٥٩)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي (٥٣).
(٣) آثار الإمام: (٣/ ٤٠٧).
(٤) الخَطَل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب. لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٢٠٩).

الرأي، واذكر الخلاف تذكر بيع الذمم والضمائر، والتفريط في المصالح الوطنية، واذكره تذكر كل مرض عقلي نعانيه، وكل حقيقة في الحياة نغلط فيها)[1].

وينعىٰ الإمام رحمه الله علىٰ المسلمين تفرقّهم الذي مزّقهم وشتّت شملهم فيقول: (وأفكّر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورًا بلا لباب، وألفاظًا بلا معان؛ ثم عمدوا إلىٰ روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلىٰ زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلىٰ هدايته الخالصة فموّهوها بالتضليل، وإلىٰ وحدته الجامعة فمزّقوها بالمذاهب والطُّرُق والنِّحَل والشِّيَع)[2]، وما زالت الأمة تعاني من تفرّقها وتشرذمها وكثرة مذاهبها ونِحَلِها.

من آثار التفرّق الشنيعة.

ومما ذكره الإمام رحمه الله في بيان آثار التفرق، أنه الآفة التي قضت علىٰ حضارة المسلمين؛ فيقول: (إن الآفة الكبرىٰ التي قضت علىٰ الحضارات وجعلت عاليها سافلها، هي التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها، وقد كان للمسلمين -من بين الأمم القديمة والحديثة- معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق فوقىٰ حضارتهم من الانهيار؛ وهو القرآن ودينه الإسلام -نعمة خُصّوا بها دون الأمم-)[3]، ويبيّن رحمه الله سبب وقوع المسلمين في تلك الحال السيئة من التفرق الذي كان له أثر السوء عليهم؛ فيقول: (إلىٰ أن داخلتهم الأعراق المدسوسة، ومازجتهم الجراثيم الغريبة وابتلوا بلقاح سوء مما أفسد من قبلهم وكان من تأثير ذلك أنهم انتقلوا من التفرق الذي يعصم منه الدين إلىٰ التفرق في الدين نفسه وفي القرآن نفسه . . . حتىٰ كانت عاقبة أمرها خسرًا، وذاقت السوء بما صدّت عن سبيل الله)[4].

---

(١) آثار الإمام: (٣/ ٤٠٧).

(٢) آثار الإمام: (٣/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٣) آثار الإمام: (١/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٤) آثار الإمام: (١/ ٣٢٥).

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله آثارًا أخرىٰ للتفرّق، وهي من الشنائع والعظائم التي تعقب الخلاف، كضعف التديّن وجفاء الكتاب والسنة، والتجرد من الأخلاق الفاضلة؛ فيقول: (إن شيوع ضلالات العقائد وبدع العبادات والخلاف في الدين هو الذي جرّ علىٰ المسلمين هذا التحلّل من الدين، وهذا البعد عن أصليه الأصليين، وهو الذي جرّدهم من مزاياه وأخلاقه حتىٰ وصلوا إلىٰ ما نراه)[1].

الطرُق الصوفية والتعصّب للآراء من أسباب التفرّق في الأمة.

وقد عدّد الإمام الإبراهيمي رحمه الله مجموعةً من الأسباب الجالبة للتفرّق والمُوْقعة فيه، فمن ذلك كثرة الطرق الصوفية ودعاتها، وفساد شيوخها؛ فيقول موضحًا ذلك: (وليت شعري، متىٰ كانت هذه الأمة مجتمعة حتىٰ يقول قائل إن الجمعية فرّقتها؟ وأنّىٰ لها أن تجتمع، وإن أمامها في كل طريق ناعقًا ينعق باسم طريق وداعيًا يدعو إلىٰ التفريق؟ بل كيف تجتمع وللشيوخ فيها ما للذئاب الضارية في قطيع الغنم؟ أم كيف تجتمع والشيوخ قد قسموها إلىٰ مناطق نفوذ، وأحاط كل شيخ رعيته بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب؟)[2].

كما يعدّ التعصب للآراء والمعتقدات في كل طريقة سببًا من أسباب التفرّق الذي عانت منه الأمة وما زالت تعاني، فيقول: (كيف تجتمع وأتباع كل طريقة يعتقدون أنهم أهدىٰ سبيلًا من أتباع بقية الطرق، وأن طريقتهم تضمن لسالكها الغنىٰ في الدنيا وحسن الخاتمة عند الموت، وإن قتل النفس التي حرّم الله بغير حق؟ أم كيف تجتمع وفيهم من يرىٰ من واجبات طريقته ومن شروط المحافظة عليها أن لا يصلي خلف طرقي آخر يخالفه في الطريقة -وإن اشتركا في لقب الإسلام- لا لشيء سوىٰ ذلك؟)[3].

ويضع الإمام الإبراهيمي رحمه الله تَبِعَة تفرّق الأمة في أعناق بعض علمائها الذين

---

(١) آثار الإمام: (٤/ ٢٠٢).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٣٩).

(٣) المرجع السابق.

تعصبوا للمذاهب وابتعدوا عن الوحيين، وأساؤوا فهم الدين، وأضاعوا المسلمين؛ فيقول: (والذنب في ذلك كله في عنق علمائه: تعصّبوا للمذاهب المفرقة فبعدوا عن المذهب الجامع وهو كتاب الله وهدي محمد ﷺ، وفهموا الدين قشورًا وصدفوا عن اللباب، وتركوا قيادة الأمّة فأضاعوا الأمانة، وصرفوا الأمة بتعليمهم عن معاني الدين الجليلة، فأصاروها إلىٰ الألفاظ، فهي تسبح منذ قرون في بحر من الألفاظ لا ساحل له)[1].

أثر الاستعمار في تفرّق المسلمين.

ويبين الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن للاستعمار الغاشم يدًا آثمةً في إيقاع الفُرقة بين المسلمين في أمور دينهم ودنياهم، ويحذّر الأمة من الوقوع في مصائده الخبيثة، فيقول: (إن آثار الاستعمار فينا هي التي جعلتنا سريعي التأثر بدواعي الفرقة، وقد نجح في تفريقنا في الدنيويات لأنه يملك أسبابه، فرجع إلىٰ الدينيات يزيدنا فيها تفريقًا علىٰ تفريق، فعلىٰ الأمة أن تحذر هذه الفِخاخ المنصوبة . . . وأن ترفع الخلاف بالرجوع إلىٰ الحق)[2].

ويؤكد رحمه الله دور الاستعمار في مضاعفة الخلاف بين المسلمين، فيقول: (وكذَب وفجر من ادّعىٰ أننا مختلفون في أصل ديننا، فإن كان بيننا خلاف فهو من آثار الاستعمار، لا من آثار الإسلام، والحكومة الاستعمارية هي زارعة الخلاف بيننا، وهي التي تسقيه كلما ذبل، وتغذّيه كلما ضعف)[3]، ولا غرابة في كون الاستعمار أحد أسباب التفرق فشروره وأضراره لا تقف عند حد.

التنافس غير الشريف سببٌ في التفرّق.

ويبيّن الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن من أسباب التفرّق وتمزّق وحدة الصف؛

---

(١) آثار الإمام: (٤/ ٧٨).

(٢) آثار الإمام (٣/ ١٦٨).

(٣) آثار الإمام (٣/ ١٨٤)، وانظر أيضًا: آثار الإمام (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

التنافس علىٰ الوظائف الدينية والدنيوية، فيقول: (ولَحَا[١] الله هذه الوظائف، فكم كانت سببًا في إفساد الدين، وفي تخريب الدنيا، وكم جرّ التكالب عليها إلىٰ تفريق شمل، وتمزيق وحدة، وإذا كان هذا في الوظائف الدنيوية سيئًا، فهو في الوظائف الدينية أسوأ)[٢].

الخلاف في الدين والابتداع فيه من أظهر أسباب التفرق.

كما يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخلاف في الدين من أعظم أسباب افتراق الأمة وتشتّت شملها، فيقول: (من أطوار هده الأمة في التاريخ أن اختلف ملوكها وقادتها وساستها، وذاقت من خلافهم الشر والبلاء، واختلف علماؤها في الدين فكان خلافهم وبالًا علىٰ الأمة، وتشتيتًا لشملها، وصدعًا لجدار وحدتها، وقطعًا لما أمر الله به أن يوصل من أرحامها)[٣]، وإذا كان الخلاف في الدين سببا للتفرق فإن الابتداع في الدين وشيوع الضلالات فيه أشنع أثرا، وهو الذي جرّ علىٰ الأمّة ويلات التفرّق والاختلاف والتشرذم، ويقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: (ولو بقي الإسلام علىٰ روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال، لطبق الخافقين[٤]، ولجمع أبناءه علىٰ القوّة والعزّة والسيادة حتىٰ يملكوا به الكون كله، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرّقوه شيعًا ومذاهب، فضعف تأثّرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلىٰ ما نرىٰ ونسمع)[٥].

---

(١) قولهم: لحا الله فلانًا، معناه: قَشَرَهُ الله وأهلكه.
انظر: الزاهر، للأنباري (٢/ ١٦).

(٢) آثار الإمام: (٣/ ١٩٥).

(٣) آثار الإمام: (٢/ ٣٥١).

(٤) الخافقان: طَرَفَا السَّمَاءِ والأَرض، وَقِيلَ: الْمَغْرِبُ وَالْمَشْرِق.
انظر: الزاهر، للأنباري (١/ ٥٠٤)، ولسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٨٣).

(٥) آثار الإمام: (٢/ ٣٨٥).

أثر المذاهب الكلامية في حدوث التفرّق.

ويبين الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن للمذاهب الكلامية أثرًا غير يسير في تفرق المسلمين، وإن كان الخائضون فيها خواص الأمة لا عامتها، ولكن العامة تقلد وتتعصب فتتفرّق الأمة بذلك، ويقول في إيضاح ذلك: (وأما المذاهب الكلامية فلم يكن أثرها بالقليل في تفرق المسلمين وتمزق شملهم، ولكنها لما كان موضوعها البحث في وجود الله وإثبات صفاته، وما يجب له من كمال وما يستحيل عليه من نقص -كل ذلك من طريق العقل- كانت دائرتها محدودة وكان التعمق فيها من شأن الخواص)[1]، وأما مكان العامّة منها فيبيّنه الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وقعد بالعامة عن الدخول في معتركها إحساسها بالتقصير في أدواته من جدل وعقليات يحتاج إليها في مقامات المناظرة والحجاج . . . لذلك لم يكن لها من حظ في هذا العلم إلّا معرفة أسماء بعض الفرق والانتصار لها انتصارًا تقليديًا)[2].

ولأن المتكلمين يزعمون أن علومهم هي أساس الإسلام، والصوفية يقولون إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها، فقد أحدث ذلك عصبيّة مقيتة للآراء والمذاهب البدعية كانت سببًا في حصول التفرّق بين المسلمين، وفي ذلك يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما الذي نعده في أسباب تفرق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم للمذاهب، والتي نعتقد أنهم لو بعثوا من جديد إلىٰ هذا العالم لأنكروها علىٰ أتباعهم ومقلديهم، وتبرأوا إلىٰ الله منهم ومنها، لأنها ليست من الدين الذي اؤتمنوا عليه، ولا من العلم الذي وسّعوا دائرته)[3].

ويأسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ بقاء رواسب تلك الفِرق الكلامية، وتدريس طرائقها في بعض جامعات المسلمين العريقة، فيقول: (ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٥).

حتىٰ في كلياتنا الراقية كالأزهر والزيتونة لا تزال جارية علىٰ تلك الطرائق، وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود)[١] وهو مما أبقىٰ نار الفرقة متّقدة في الأمة.

جهود جمعية العلماء في جمع الكلمة ونبذ التفرّق.

مما ينضم إلىٰ جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب جهود جمعيته المباركة؛ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جمع الكلمة وتوحيد الصف ونبذ الخلاف والتفرّق، وقد كان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ له يدٌ طولىٰ في نشاط الجمعية لتصحيح العقيدة، وتقرير الاجتماع ونبذ الافتراق، فهي تعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا، وتعمل لتمكين أخوّة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم[٢]، فهي عامل جمع وليست عامل تفريق، وأداة إصلاح وليست أداة هدم[٣]، وفيما يلي نماذج من تلك الجهود العظيمة لتلك الجمعية المباركة.

جاء في المادة [٦٥] من قانون الجمعية، نصٌ يبيّن كون الاجتماع ونبذ التفرّق أساسًا في نظام الجمعية، فقد جاء فيه: (أول مقاصد الجمعية طائفة العلماء والطلبة باستعمال كل الوسائل لحملهم علىٰ التخلق بالأخلاق الإسلامية، وتذكيرهم بما غفلوا عنه وأهملوه من الأخوة الدينية والأخوة العلمية وما تقتضيانه من واجبات وحقوق، وحملهم علىٰ الاتحاد والتعاضد ونبذ الشقاق والتقاطع حتىٰ يكونوا مظهرًا للفضائل الإسلامية . . .)[٤].

وقد كان من أهم وأكبر غايات الجمعية وأهدافها هو حمل المسلمين علىٰ الاجتماع والتآلف، وإبعادهم عن الخلاف والتفرّق، وفي بيان ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية . . . هو

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ٦٢).

(٣) انظر: آثار الإمام (٣/ ٣٠٦).

(٤) آثار الإمام: (١/ ٨٤).

اليوم الذي يصبح فيه المسلمون إخوانًا متناصرين أو أعوانًا متآزرين تجمعهم جامعة القرآن وإن فرّقت بينهم المناسب والأوطان . . . يوم يصبحون كما كان سلفهم ذاتًا واحدة تدبرها روح واحدة وتصرفها إرادة واحدة)[1]، ولو اقتدىٰ المسلمون بسلفهم الصالح واهتدوا بهديه لاجتمعت كلمتهم علىٰ الحق، ولكانوا أبعد ما يكونون عن مواضع التفرق ومواطن الخلاف.

ويُفنّد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ الفِرية التي رُميت بها الجمعية والتي تتهمها بتفريق الأمة، فيقول رَحِمَهُ اللهُ: (ولئن قالوا: إن هذه الجمعية فرّقت الأمة؛ لنقولن: ومتىٰ كانت هذه الأمة مجتمعة حتىٰ يقال إن الجمعية فرّقتها؟ إن الأمة كانت فِرَقًا شتّىٰ كلها علىٰ الباطل والضلال، فجاءت جمعية العلماء فردّت تلك الفرق إلىٰ فرقتين، إحداهما علىٰ الحق والهدىٰ، هذه هي الحقيقة لا ما يهذي بها قصار النظر صغار العقول)[2].

ويبيّن رَحِمَهُ اللهُ جوانب أخرىٰ من جهود الجمعية في جمع كلمة الأحزاب، وحملها علىٰ وحدة الصف، وإنكارها للفُرقة بالاعتقاد والقول والعمل، فيقول: (إن اختلاف الأحزاب، وما جرّه الخلاف من سباب، وما جرّه السباب من أحقاد، وما جرّته الأحقاد من تضييع للمصلحة، كل ذلك استنكرته الجمعية بالاعتقاد، وأنكرته بالقول الصريح، وسعت في إزالته بالعمل الجدّي، لأنها تعلم أن عواقبه وخيمة، وأن أدنىٰ عواقبه تمزيق الشمل وإضعاف القوّة: وأنه -أولًا وأخيرًا- ليس من مصلحة الوطن والأمّة، وإنما هو من مصلحة خصوم الوطن وأعداء الأمّة)[3]، ويُبرِز الإمام رَحِمَهُ اللهُ جوانب من عمل الجمعية في ذلك فيقول: (وقد قامت الجمعية في أوقات ومناسبات شتّىٰ بمساع جدّية صريحة

---

(١) آثار الإمام: (١/ ١٣٨).

(٢) آثار الإمام: (١/ ١٩٩).

(٣) آثار الإمام: (٢/ ١٩١).

للتقريب بين الأحزاب وإقرار روح الأخوّة والتسامح في النفوس لتصل من ذلك إلىٰ اتحاد متين يوجّه الجهود والكفاءات إلىٰ خدمة المصالح الحقيقية للوطن)(١).

ويبيّن رحمه الله سعي الجمعية الدؤوب في جمع الكلمة وعزمها الأكيد وحرصها الشديد، وعدم يأسها من تحقق الاجتماع فيقول: (وهي -وإن لم تصل إلىٰ غايتها من جمع الكلمة- لم تيأس من ذلك ولم تفشل وما زالت تفترص الفرص لتجديد السعي في جمع الكلمة علىٰ الحق وتوحيد الأحزاب علىٰ المصلحة العامة للوطن، وهي تعتقد أن الاتحاد الذي تنْشُدُه الأمّة وتعلّق آمالها علىٰ جمعية العلماء في تحقيقه إذا لم يتم اليوم فسيتمّ غدًا)(٢).

ويتوّج الإمام الإبراهيمي رحمه الله تلك الجهود التي بذلتها الجمعية في سبيل توحيد الصف وجمع الكلمة ونبذ التفرق والاختلاف؛ بالفخر بنجاحها الكبير في هذا الباب العظيم، والذي يصُب في إصلاح العقائد وصيانتها، فيقول: (أيها الإخوان: إن جمعيتكم تفخر بأنها نجحت في جمع طوائف عظيمة من الأمّة الجزائرية علىٰ الحق بعد أن كانت كلها متفرقة علىٰ الباطل، واستطاعت أن تعلمهم معنىٰ الاجتماع علىٰ الحق والخير وكيفية الاجتماع علىٰ الحق والخير، وتحبّب إلىٰ نفوسهم كلمة الاجتماع وحضور المجتمعات بعد أن كانت لا تجتمع إلا علىٰ شر أو مأثم)(٣)، وهو نجاح يستحق أن يُفخر به؛ لما فيه من تحقيق مطالب الشريعة، ولما له من آثارٍ مشرقةٍ في حياة الأمة.

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في بيان مساوئ الافتراق وأسبابه وآثاره؛ نُجمِل ما ذكره من ذلك فيما يلي:

- من مساوئ التفرق هلاك الأمة بعدم حفظ وصية الله فهو أصل داء الأمة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام: (١/ ٢٨٦).

- التفرّق شرّ كله، وشرّ أنواع التفرّق ما كان في الدين.

- من آثار التفرّق اختلاف القلوب، وتشويه صورة الدين وأتباعه وتعريضه للاحتقار.

- من آثار التفرق الضعف واستيلاء العدو.

- لا يكاد القرآن يذكر الأحزابَ بلفظ الجمع إلا في مقام الخلاف والهزيمة.

- لاحظ الاستعمار أن ضعف المسلمين كامنٌ في التفرق.

- من آثار التفرق اختلال العقيدة التي هي رأس المال.

- من آثار التفرق التخاذل والأنانية ووهن العزائم وانعدام الثقة بين الإخوان.

- التفرّق هو الآفة التي قضت علىٰ حضارة المسلمين.

- من آثار التفرق ضعف التديّن وجفاء الكتاب والسنة والتجرد من الأخلاق.

- من أسباب التفرق كثرة الطرق الصوفية ودعاتها وفساد شيوخها.

- من أسباب التفرّق التعصب للآراء والمعتقدات في كل طريقة.

- للاستعمار دور كبير في إيقاع الفُرقة ومضاعفة الخلاف بين المسلمين في أمور دينهم ودنياهم.

- من أسباب التفرّق التنافس علىٰ الوظائف الدينية والدنيوية.

- من أسباب التفرّق الابتداع في الدين وشيوع الضلالات فيه.

- من أسباب التفرق المذاهب الكلامية والعصبية العمياء لها.

- من أسباب التفرق تعصب بعض العلماء للمذاهب والبعد عن الوحيين.

- أنها عملت لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا.

- أنها عملت لتمكين أخوّة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم.

- أن قانونها ينص علىٰ كون الاجتماع ونبذ التفرّق أساسًا في نظام الجمعية.

- من أهم غايات الجمعية هو حمل المسلمين علىٰ الاجتماع وإبعادهم عن التفرّق.

- اجتهاد الجمعية في جمع كلمة الأحزاب بالاعتقاد والقول والعمل في مناسبات عدة.

- لم تيأس الجمعية في الوصول إلىٰ هدف جمع الكلمة فواصلت مسيرها.

- نجحت الجمعية في جمع طوائف عظيمة من الأمّة الجزائرية علىٰ الحق.

- نجحت الجمعية في تعليم معنىٰ الاجتماع علىٰ الحق والخير وكيفيته.

هذه بعض جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ الإصلاحية في منابذة الافتراق، وليست هي كل ما في الباب من جهود الإمام، فقد كان له في أرض الواقع أثرٌ بالغ وسعي حثيثٌ مبارك في هذا المضمار، غفر الله له ورحمه.

المبحث الخامس: مواجهة البدع والخرافات

- تمهيد.
- أولًا: توصيف البدعة.
- ثانيًا: أهميّة الاتّباع وترك الابتداع.
- ثالثًا: الأسباب المؤدية إلىٰ البدع والخرافات.
- رابعًا: آثار البدع والخرافات.
- خامسًا: إنكار بعض البدع المنتشرة.

تمهيد

البدعة في اللغة: مأخوذة من مادة (بدع) وتعني الشيء المخترع علىٰ غير مثال سابق[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، والبدعة في الشرع هي: ما أُحدث في الدين من غير دليل[2]، ويُعرّفها الإمام الشاطبي رحمه الله بأنها: (طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية)[3]، وقد عرّف الإمام الإبراهيمي رحمه الله البدعة فقال: (كل ما أُلصِق بالدين من المُحدَثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين، وإن تراءت في صورة ما يقتضيه الدين)[4].

وقد نهانا الله تعالىٰ عن سلوك طريق أهل البدع والأهواء والضلالات، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] وغيرها من الآيات.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٢٠٩)، والنهاية، لابن الأثير (١/ ١٠٦).

(٢) انظر: معارج القبول، للحكمي (٣/ ١٢٢٨).

(٣) انظر: الاعتصام، للشاطبي (١/ ٤٧).

(٤) آثار الإمام (١/ ٥١).

كما نهانا نبيه ﷺ عن الابتداع في الدين، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[١]، وفي رواية: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[٣]، وغيرها من الأحاديث.

وقد حذّر من البدع ونهىٰ عنها أئمة الدين من الصحابة والسلف الصالح -رضوان الله عليهم-، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: (لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، إِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا من أمره أن أزيغ)[٤]، وابن مسعود رضي الله عنه يقول: (اتَّبِعُوا آثَارَنَا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ)[٥]، والحسن رحمه الله يقول: (لَا تُجَالِسْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَإِنَّهُ يُمْرِضُ قَلْبَكَ)[٦]، ويحيىٰ بن أبي كثير[٧] رحمه الله يقول: (إِذَا لَقِيتَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فِي طَرِيقٍ فَخُذْ فِي طَرِيقٍ آخَرَ)[٨]، وغير ذلك كثير مما روي عنهم رضي الله عنهم.

وما زال علماء الإسلام من أهل السنة في مختلف العصور وشتىٰ الأمصار يولون هذا الأمر اهتمامًا بالغًا، ويقفون في وجوه البدع بكافة أنواعها، ويذودون

---

(١) رواه البخاري برقم: (٢٦٩٧)، ومسلم برقم: (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم برقم: (١٧١٨).

(٣) رواه مسلم برقم: (٨٦٧).

(٤) رواه البخاري برقم: (٣٠٩٣).

(٥) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (١٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٨٦)، والمروزي في السنة (٢٨)، وغيرهم.

(٦) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٥٤)، وابن بطة في الإبانة الكبرىٰ بلفظ مقارب (٢/ ٤٣٨).

(٧) هو أبو نصر، يحيىٰ بن أبي كثير الطائي مولاهم، إمام، حافظ، وأحد الأعلام، كان طلّابة للعلم. توفي سنة ١٢٩هـ رحمه الله.
انظر: السير، للذهبي (٦/ ٢٧-٣١).

(٨) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٥٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٥٥)، والآجري في الشريعة (١/ ٤٥٨).

عن دين الله وشرعه أن تعبث به المخرّبة من أهل البدع والأهواء، وكان للإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جهدٌ إصلاحيٌّ ظاهرٌ في مواجهة البدع والخرافات، وقد أبرزنا جانبًا منه فيما يلي، ولم نحدد نوعًا معينًا من البدع، فكل ما شمله وصف البدعة فهو داخل فيما قصدناه، وقد اعتنىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنايةً كبيرةً بموضوع البدع، وبذل في سبيل درئها ودحضها كثيرًا من جهوده، وقد انتظمت جهوده علىٰ النحو التالي:

❊ **أولًا: توصيف البدعة**

❊ **ثانيًا: أهميّة الاتّباع وترك الابتداع**

❊ **ثالثًا: الأسباب المؤدية إلىٰ البدع والخرافات**

❊ **رابعًا: آثار البدع والخرافات**

❊ **خامسًا: إنكار بعض البدع المنتشرة**

وفيما يلي تفصيل لهذه المطالب.

أولًا: توصيف البدعة

يعرّف الإمام الإبراهيمي ﵀ البدعة بأنها الأمور التي تلبس لباس الدين، وتُنسب إليه وليست منه، فكل أمر مُحدَث أُلحق بالدين فهو بدعة، يقول ﵀: (كل ما أُلصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين، وإن تراءت في صورة ما يقتضيه الدين)[١]، وتقريره لمفهوم البدعة هنا مُستمد من نصوص الشرع، ومقرر في كلام أهل العلم[٢].

ومما قرره الإمام ﵀ في توصيف البدعة أن العبادات توقيفية لا مدخل فيها لغير النص المعصوم -كتابًا وسنةً-، فيقول: (لا مدخل لغير المعصوم في إثبات ما هو عقيدة أو ما هو عبادة)[٣]، ويقول موضحًا تعليق قبول العبادات علىٰ موافقة هدي النبي ﷺ: (وصححوا عباداتكم بمعرفة أحكامها وشروطها ومعرفة ما هو مشروع وما هو غير مشروع، فإن الله تعالىٰ لا يقبل منكم إلا ما شرعه لكم علىٰ لسان نبيه ﷺ)[٤].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٥١).

(٢) انظر مثلًا: الاعتصام، للشاطبي (١/ ٤٧)، وفتح الباري، لابن حجر (١٣/ ٢٥٤)، ومعارج القبول، للحكمي (٣/ ١٢٢٨).

(٣) آثار الإمام (١/ ٥٢).

(٤) آثار الإمام (١/ ٤٠٦).

ويبين رحمه الله أن كل أمر يخالف ما جاء عن النبي ﷺ فإنه يُعَد بدعةً، فيقول: (وإياكم والبدعَ في الدين فإنها مفسدة له، وكل ما خالف السنة الثابتة عن نبينا ﷺ فهو بدعة)[1]، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه ليس لأحد من الخلق أن يُحدث عبادةً -أيا كانت- لم يأت بها الشرع؛ فيقع بذلك في صريح البدعة.

ولذلك يذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم فهموا هذا المعنىٰ جيدًا، فقد كان أمر العبادة وعدم الابتداع فيها واضحًا لديهم، فيقول عنهم: (وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنىٰ: أن تعبد الله كما شرع علىٰ الوجه الذي شرع)[2].

ويقرر الإمام رحمه الله أن السلف -رضوان الله عليهم- لفهمهم أصول الدين وأوجه العبادة الصحيحة؛ لم يُحدثوا في ذلك أمورًا تَعَبدِيةً زائدةً غير مشروعة كما أحدث من بعدهم ممن ظن أو اعتقد أن ذلك الإحداث من زيادة الخير، فيقول رحمه الله في بيان هذا المعنىٰ: (لذلك لم يُحدث السلف زوائد علىٰ العبادات من أذكار وغيرها بدعوىٰ أنها زيادة في الخير، كما عمل الخلف . . . فهم علماء السلف الإسلام كاملًا بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الترابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير)[3]، فليس في الأذهان فهمٌ أوعىٰ ولا أعلىٰ من فهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم- لدين الله تعالىٰ.

ويمكن إجمال ما مضىٰ من توصيف الإمام الإبراهيمي رحمه الله للبدعة فيما يلي:

- أن كل ما ألحق بالدين من غير دليل فهو بدعة ولو كان في صورة ما يقتضيه الدين.

- أن العبادات والعقائد توقيفية لا مجال في إثباتها لغير المعصوم.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

(٣) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

- أن قبول العبادات متوقف علىٰ متابعة هدي النبي ﷺ.

- أن كل ما خالف السنة الثابتة فهو بدعة.

- أن الفهم الصحيح للعبادة هو فهم الصحابة رضي الله عنهم بأن يُعبد الله علىٰ الوجه الذي شرع.

- أن السلف -رضوان الله عليهم- اعتصموا بالسنة ولم يحدثوا زوائد علىٰ العبادات.

الاهتمام بالإصلاح العقدي لنبذ البدع.

للإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عباراتٌ رفيعة القدر، يتبيّن بها جانبٌ من حرصه الشديد علىٰ إحياء السنة ونشرها، ونبذ البدع والخرافات التي استشرت في أهل زمانه، ويتعهّد في بعضها علىٰ تطهير الدين مما ألحق به من أوهام وخرافات، ويذكر شيئًا من أثر ذلك الجهد الإصلاحي المبارك، فمما قال في ذلك: (عاهدنا الله أن نطهر دينه، من الداخل ومن الخارج، وأن ننصره علىٰ أنفسنا حتىٰ يكون له عليها سلطان . . . لذاك حملنا حملتنا المشهورة علىٰ البدع والضلالات حتىٰ قوضنا أركانها، وأتينا بنيانها من القواعد؛ فتلك بيوتها خاويةً بما أقر أهلها من منكر، وما هجروا من معروف)[1]، وهذا من توفيق الله للعبد أن يسخره في إعلاء كلمة الحق وإخماد صوت الباطل.

ومن تلك العبارات التي توضح حرص الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ مواجهة البدع ودفعها، قوله: (إنني لم أكن مجاهدًا، وإذا كنتُه ففي شيء واحد هو محاربة البدع والضلالات ومحو الأمية، وتعليم الأمة، وهذه الأمور عادية لا ترفع القائم بها إلىٰ مستوىٰ الجهاد)[2]، فمن تواضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه نفىٰ عن نفسه وصف «المجاهد»

---

(١) آثار الإمام (٣/١٥٨-١٥٩).

(٢) آثار الإمام (٤/١٢٤).

إلا أن يطلق علىٰ جهده في دحر البدع والضلالات، ثم يتواضع ثانيةً فينفي أن ترقىٰ أعماله تلك إلىٰ مستوىٰ الجهاد.

ومما ذكره ﷺ عن نفسه في هذا الباب، وصيته للمعلمين أن يراعوا مشاعر الأمة في غير معصية الله، وأن يسيروا بها إلىٰ الغاية في رفق وأناة، ثم يوضح مقصوده بقوله: (لا أقول لكم: سايروها علىٰ الباطل، وجاروها في البدع، وواطئوها علىٰ الضلال، فذلك ميدان وقفنا فيه قبلكم موقف المنكر المتشدد، ونازلنا أبطال الباطل حتىٰ زلزلنا أقدامهم، ونكسنا أعلامهم، وقد أرحناكم ومهدنا لكم السبيل)، ففي هذا النص من الإمام ﷺ بيان لبعض جهوده في مواجهة البدع والضلالات وأهلها[1].

الحث علىٰ اتِّباع السنة وإحيائها وترك البدع وإماتتها.

وقد تعددت كذلك عبارات الإمام الإبراهيمي ﷺ التي يحث فيها علىٰ اتّباع السنة، ويحذر فيها من الابتداع في الدين، فمن ذلك تسميته لاتّباع السنة ونبذ البدعة «رأس المال في الدين»، فيقول: (أما رأس المال في الدين فهو تصحيح العقائد، وتصحيح العبادات، وتصحيح الأخلاق الصالحة، واتباع سنة نبينا ﷺ في كل ما فعل وترك، والمحافظة عليها والانتصار لها، ونبذ البدع المخالفة لها)[2]، ويواصل تحذيره للناس من الوقوع في أدران البدعة، ويبين أنها مفسدة لدينهم، فيقول: (وطهروا أنفسكم وعقولكم من هذه العقائد الباطلة الرائجة بين المسلمين اليوم، فإنها أهلكتهم وأضلتهم عن سواء السبيل، وإياكم والبدعَ في الدين فإنها مفسدة له)[3]، كما يحثهم علىٰ تصحيح عباداتهم ومعرفة المشروع منها والمبتدع، فيقول: (وصححوا عباداتكم بمعرفة أحكامها وشروطها ومعرفة ما

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٢٧٠).

(٢) آثار الإمام (١/ ٤٠٦).

(٣) المرجع السابق.

هو مشروع وما هو غير مشروع، فإن الله تعالىٰ لا يقبل منكم إلا ما شرعه لكم علىٰ لسان نبيه ﷺ)[١].

وفي حديث له رحمه الله عن مصر، يحث فيه أهلها بأسلوبه البديع، وكأنه يخاطب مصر؛ أن يظهروا صورة الإسلام الصحيحة في عقائده وأحكامه، وأن يحيوا السنن ويميتوا البدع، ويبين مآل ذلك وأثره لو فعلوه، فيقول: (كيف بك -مع هذا- لو كنت مظهرًا للإسلام الصحيح، ولمُثُله العليا في العقائد والأعمال والأحكام، إذن لكنت قدوةً في إحياء سننه التي أماتتها البدع، وفي إقامة أعلامه التي طمستها الجهالات . . . وفي نشر هدايته التي طوتها الضلالات؛ وإذن لحييت وأحييت)[٢].

ويحث الإمام الإبراهيمي رحمه الله أهل الحق من أتباع النبي ﷺ ووَرَثَته علىٰ حماية السنن ومحاسن الدين حتىٰ لا تطغىٰ عليها البدع والشوائب، فيقول في ذلك: (فإذا قصر أهل الحق في الدعوة إليه ضاع الدين، وإذا لم يحموا سننه غمرتها البدع، وإذا لم يجلوا محاسنه علتها الشوائب فغطتها، وإذا لم يتعاهدوا عقائده بالتصحيح داخلها الشك، ثم دخلها الشرك)[٣].

من وسائل إحياء السنة ونبذ البدعة.

ثم يبين رحمه الله الوسائل التي يتحقق بها ذلك، فيقول: (وكل ذلك لا يقوم ولا يستقيم إلا بقيام الدعوة واستمرارها واستقامتها علىٰ الطريقة التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه الهداة من العلم، والبصيرة في العلم، والبينة من العلم والحكمة في الدعوة، والإخلاص في العمل، وتحكيم القرآن في ذلك كله)[٤]، وحقيق أن تنتشر السنة وتدحر البدعة بمثل ما ذكره.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٣/ ٤٩٦).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٠١).

(٤) المرجع البسابق.

حرص الصحابة علىٰ اتّباع السنة.

ومما أوضحه الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير أهمية اتباع السنة وترك الابتداع، ما ذكره عن حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم علىٰ اتباع النبي ﷺ والتأسي به في جميع أحواله الدينية والدنيوية، فيقول: (كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمل الإسلام بقوة يحرصون علىٰ أخذ همات العبادات من فعله ﷺ، كما يحرصون علىٰ التمثل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله ومعاملته لخلقه، وعلىٰ التأسي به في الأفعال والترك في شؤون الدين والدنيا، لعلمهم أن الفعل هو المقصد والثمرة)[1]، ومما يؤكد ذلك من شدة حرصهم رضي الله عنهم علىٰ اتباع النبي ﷺ، قوله: (وإن في قول قائلهم: «أنا أشبهكم صلاة برسول الله» لدليلًا علىٰ تغلغل هذه النظرة في مستقر اليقين من بصائرهم، وأنهم كانوا يتشددون في أخذ الصور العملية من أفعاله ﷺ كما هي، ويتحرجون من التقصير فيها)[2] فرضي الله عنهم وأرضاهم.

حضّ العلماء علىٰ التصدّي للبدع.

ويُقْسِم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لن ترجع للعلماء هيبتهم ومكانتهم وتأثيرهم؛ إلا بمحاربتهم للبدع والضلالات والخرافات، وفي هذا حض لهم علىٰ الوقوف في وجه البدع وعدم الاستكانة لأهلها فيغلبوا أهل الحق بباطلهم؛ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما والله -أَلِيَّة[3] المسلم البر، وسريرة الضمير الحر- لا ترجع هيبة العلماء إلىٰ مستقرها من نفوس الأمة حتىٰ يقوموا بعهد الله في بيان الحق، ويتضافروا علىٰ حرب البدع والضلالات التي لابست الإسلام، ولبست عقائده

---

(١) آثار الإمام (٤/ ١١٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الأَلِيَّة: اليَمين.

انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد (١/ ٢٤٦)، ولسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٤٠).

ففسدت، وآدابه فكسدت، ولبست على المسلمين دينهم فأصبحت حقائقه في واد، وعقولهم في واد)[1].

ويؤكد رحمه الله حضه للعلماء المسلمين على مواجهة البدع والخرافات والتصدي لها، ويبين دورهم الكبير في ذلك وما يعقبه من أثر صالح في قوة الإسلام والمسلمين؛ فيقول: (أما والله، لو أنهم اجتمعوا وتذامروا[2]، وشنوها -كما شنناها- غارةً شعواء على البدع والضلالات التي مهدت للانحلال وفساد الأخلاق بين المسلمين . . . لو فعلوا ذلك لأعادوا للإسلام قوته وكماله، ونضرته وجماله، وللمسلمين مكانهم في البشر ومكانتهم في التاريخ)[3]، وصدق رحمه الله فإن من أعظم ما يُنصر به الإسلام ويُعلى به شأن المسلمين؛ السير على هدي نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وترك كل بدعة محدثة.

نماذج من كِفاح علماء الإسلام للبدع.

ومن وفاء الإمام الإبراهيمي رحمه الله لإخوانه العلماء إشادته بجهودهم الإصلاحية في مواجهة البدع والخرافات، وفي ذلك تدعيم لتقريراته في أهمية الاتّباع وترك الابتداع، فمن ذلك ما ذكره عن علماء الأمة الأولين من تصديهم للبدع في قوله: (وكانوا كلما رأوا شبحَ بدعة خفّوا إلى إزالتها، وكلما أحسوا بضلالة ومنكر في الدين بادروا إلى تغييره بالفعل والقول . . . لا يتساهلون ولا يترخصون، سدا لذرائع الفتنة والضلال)[4].

ويشيد رحمه الله بما كانوا عليه من اتخاذ الكتاب والسنة مرجعيةً لهم، فلذلك كانت لهم قوة الحجة وغلبة الدليل في إنكار البدع، فيقول: (وكانوا يصدُرون في أعمالهم وأحكامهم عن الكِتاب والسنة، فيصدرون عن الدليل الذي لا يضل،

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٣/ ٣١١).

(٢) الذَّمْرُ: اللَّوْمُ والحَضُّ مَعًا. لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٣١١).

(٣) آثار الإمام (٣/ ٣/ ٣٠٩).

(٤) آثار الإمام (٣/ ٣٠٩).

ويستندون إلىٰ الحجة التي لا تدحض؛ وكانت الأمة ترجع إليهم، فترجع إلىٰ وحدة متماسكة في الدين لا تتفرق بها السبل، ولا تتشعب الآراء)[١].

وقد تحدث الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن العلماء المصلحين الذين نابذوا البدع وأهلها، ومنهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله ووقوفه المواقف المشهودة في وجه المروّجين لبدعة خلق القرآن وما احتفّ بها، وبُعد نظره فيها، فيقول عنه: (والعلماء المصلحون متفاوتون في الاستعداد بالميادين التي جلوا فيها بمقتضيات الضرورة والزمان والمكان، فأحمد بن حنبل رأىٰ أن العقيدة التي يريد الخليفة أن يغرسها بالقوة هي عبث بعقائد الحق كلها، وأنها ستسري -إن سكت عنها- لبقية العقائد، لا سيما والذي يرعاها خليفة، وتربتها التي نبتت فيها بغداد، وبغداد عاصمة الإسلام إذ ذاك، فالآراء التي تؤمر منها تنتشر في العالم الإسلامي كله، فوقف أحمد فيها المواقف المشهورة)[٢]، فرضي الله عن علماء السنة كم حفظوا لنا من سنن وكم جاهدوا في دفع البدع حتىٰ يظهر دين الله بجلاله وكماله.

وممن أشاد بهم الإمام رحمه الله في جهادهم ضد البدع وأهلها، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال عنه: (وأحمد بن تيمية رأىٰ أن ضلال العقائد واستفحال البدع وتسلط المبتدعين علىٰ عقول العامة قد طغت بحارها، فوقف منهم طول عمره موقف الخصم اللدود حتىٰ خضد شوكتهم وفل شبهاتهم)[٣] [٤]، ولا ريب أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لا يُشق له غبار في هذا الباب، فهو الإمام المجاهد الذي نصر الله به كثيرًا من السنن ودحر به كثيرًا من البدع.

وممن أشاد بهم الإمام في منابذته للبدع والخرافات ووقوفه في وجهها،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٥/ ١٩٥).

(٣) في الأصل: (خضد شكوتهم وفل شباتهم)، ولعله خطأ طباعي، والخَضْد: نَزَعُ الشَّوْكِ عَنِ الشَّجَرِ. لسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٦٣)، وفَلَّ القومَ يفُلُّهم فَلًّا: هَزَمَهُمْ فانفَلُّوا وتَفَلَّلُوا. لسان العرب (١١/ ٥٣٠).

(٤) آثار الإمام (٥/ ١٩٥).

الشيخ أبو القاسم بن حلوش[1]، فقد نعاه الإمام حين بلغه خبر وفاته ﷺ وكان مما قال عنه: (والشيخ أبو القاسم -رحمه الله- مصلح بطبعه وتربيته، خُلق في منبع من منابع البدع، وفتح عينيه عليها، فأنكرتها فطرته السليمة، وتربيته القويمة من أول أمره، ونشأ علىٰ نفور منها وازدراء لأهلها، ولقي منهم تجريحًا وأذًى، ولقوا منه تسفيهًا وإنكارًا، وكان كل ذلك مزيدًا في رفعة شأنه)[2] وذكر أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنىٰ مسجدًا بماله الخاص وفيه بدأ عمله بنشر الإصلاح ونبذ البدع المُحدَثة[3].

وفي حديثه عن معهد الإمام عبدالحميد بن باديس[4] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يذكر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جانبًا من فضل هذا المعهد ويشيد به، ولاسيما في باب محو البدع التي كانت محيطة بالأمة الجزائرية، فيقول عنه: (وهذا المعهد -باعتبار آخر- هو إحدىٰ الكفارات التي تقدمها الأمة الجزائرية عما اجترحته من مآثم الجهل والأمية، وسيئات الغفلة والتفريط وأسباب التأخر والجمود، وجنايات الابتداع في الدين والاتباع في الدنيا ... ثم تمسح بهما ما تراكم علىٰ دينها من محدثات)[5].

وممن أشاد الإمام بجهودهم في مواجهة البدع وأهلها الشيخ مبارك

---

(١) أبو القاسم بن أحمد بن حلوش، العالم العامل المصلح، كان عضوا إداريا بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وله جهود إصلاحية كبيرة، توفي سنة ١٣٦٨هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
انظر: آثار الإمام (٢/ ٢٨٢).

(٢) آثار الإمام (٢/ ٢٨٢).

(٣) انظر: آثار الإمام (٢/ ٢٨٢).

(٤) هو عبدالحميد بن محمد المصطفىٰ بن باديس، الإمام الداعية العالم، مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورائد النهضة الجزائرية وقائد الحركة الإصلاحية فيها، له عدة مؤلفات شرعية في التفسير والعقيدة وغيرها، وله جهود عظيمة في التعليم والدعوة والإصلاح بالقطر الجزائري، كان علىٰ مذهب السلف في الاعتقاد، توفي سنة ١٣٥٩هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
انظر: الإمام عبدالحميد بن باديس، للطالبي (١/ ٧٦-٩٨)، وانظر: الأعلام، للزركلي (٣/ ٢٨٩).

(٥) آثار الإمام (٢/ ٢٩٠).

الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] فقد قال عنه: (وإن لأخينا مبارك الميلي علىٰ الأمة الجزائرية حقوقًا بما علم وكتب، وبما نصح وأرشد، وبما رد علىٰ الدين من عوادي المبتدعين، وبما وقف من مواقف في الإصلاح الديني والدنيوي)[2].

وممن فخّم الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ شأنه وأثنىٰ عليه بجملة من الأمور ومنها نشره للسنة ودحضه للبدعة، محمد بن يوسف[3] ملك المغرب، إذ يقول عنه: (فإذا أثنينا اليوم علىٰ محمد بن يوسف ملك المغرب، فإنما نثني علىٰ أعماله الجليلة ودينه المتين، ومواقفه المشرفة المجيدة في نصر الحق علىٰ الباطل، ودحض البدعة بالسنة، وفي الدفاع عن حقوق وطنه، وفي سيرته النبيلة التي هي مضرب المثل في ملوك الإسلام)[4].

ومن العلماء الذين أشاد بهم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بنصره للسنة ونشره لها ودحره للبدع، الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ اللَّهُ[5] فقد أثنىٰ عليه ثناءً عطرًا، ومما قال فيه: (وإنني أقولها بصيحة صريحة وأؤديها شهادة للحق والتاريخ بأنه محيي السنة في الحجاز من يوم كان علماؤه -ومنهم أشياخنا- متهورين في الضلالة، وأنه صنع للسلفية وإحياء آثارها ما تعجز عنه الجمعيات بل والحكومات، وأنه أنفق عمره وماله في نصرها ونشرها، في هدوء المخلصين وسكون الحكماء)[6]، ويواصل رَحِمَهُ اللَّهُ ثناءه علىٰ الشيخ نصيف واعترافه له بالفضل في إحياء السنن مقابل البدع، فيقول: (وسيسجل التاريخ العادل آثاره في عقول المسلمين، وسيشكر

---

(١) مبارك الميلي الهلالي، مؤرخ الجزائر وأحد علمائها المصلحين، شارك في تأسيس جمعية العلماء وأصبح من هيئتها الإدارية وذاع اسمه في الجزائر، توفي سنة ١٩٤٣م رَحِمَهُ اللَّهُ.
انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، لسعد الله (٧/ ٤٠٩-٤١٧)، وانظر: آثار الإمام (٢/ ١٨٣).
(٢) آثار الإمام (٣/ ٥٧٦).
(٣) سبقت ترجمته صفحة (١٩١).
(٤) آثار الإمام (٣/ ٥٨٥).
(٥) سبقت ترجمته صفحة (١٩٠).
(٦) آثار الإمام (٤/ ١٢٥).

له الله غزوه للبدع بجيوش السنن المتمثلة في كتبها وعلوم أئمتها، وجمعية العلماء نفسُها مَدينة له، فإن الكتب السلفية لم تصلنا إلا عن يده، وسيسجل أنه مفخرة من مفاخر الإسلام وأنه كفارة عن تقصير العلماء)[1].

وفي مقابل إشادات الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بعلماء أجلاّء نشروا السنة وأحيوها، ودحروا البدعة وأماتوها؛ يشتدّ نكيره علىٰ علماء جارَوا البدع وأهلها، ولم يتحركوا في إنكارها بشيء، فيقول عن الواحد منهم واصفًا حاله مع البدع: (وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يهتز لها هزة الغضب، ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة علىٰ الدين لا حجة له)[2]، فالعالم الديني في نظر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ لا يكون عالمًا حقًا حتىٰ يكون محييا للسنة قامعًا للبدعة.

جهود جمعية العلماء في مواجهة البدع والخرافات.

لقد وقفت الجمعية من البدع العامة والشعائر المستحدثة كبدع المساجد، وبدع الجنائز، وبدع المقابر، وبدع الحج، وبدع الاستسقاء، وبدع النذور، وبدع الطرق وضلالاتها وقفة المنكر المشتد الذي لا يخشىٰ في الحق لومة لائم، في وقت استحكمت فيه هذه البدع حتىٰ أصبحت دينًا مستقرًا وعقيدة راسخة، فغيرّت الجمعية بالقول وأغارت بالفعل، وبينت بالدليل وقارعت بالحجة، وطبقت بالعمل، وكان في أعمال أعضائها أسوة حسنة للناس. وشعارها في هذا الباب أن كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة. وقد أقر الله عينها بإماتة بدع كثيرة، وإحياء سنن كثيرة[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (٥/ ١٩٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩٤).

وما زال الإسلام مبتلىٰ بالبدع والشبهات كما يعبّر الإمام الإبراهيمي رحمه الله[1]، ومن تهيئة الله تعالىٰ أن سخر لدينه من يعتني به من علماء تميزوا بقوة العلم وقوة الروح، فكان هذا النوع من علماء الجمعية (ليقوم بما قام به المصلحون المصطفون من علماء الإسلام في جميع العصور كلما طاف بالدين طائف بدعة من الداخل، أو عارض شبهة من الخارج. فيقمعون البدعة لئلا تندثر السنن، ويردون الشبهة لئلا تلتبس الحقائق)[2].

وقد بيّن الإمام رحمه الله أن عمل جمعية العلماء قامت به مقومات ومميزات لا تكون إلا للصفوة من العلماء، فيقول في ذلك: (وعمل جمعية العلماء -في جملته- إرث مذخور، ونصيب مفروض، لا يستحقه إلا العلماء أولوا الأيدي والأبصار، الذين أخذوا الكتاب بقوة، ودرسوا ما فيه بتدبر، ولا يضطلع بحمله قليل العلم، ولا كليل الفهم، ولا ضعيف المنة، ولا منزور الحظ من البيان والإلهام)[3]، ولذلك أثمرت جهود الجمعية في الأمة الجزائرية ثمارًا عظيمة سيأتي ذكرها.

فيذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله قانون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومما جاء فيه في المادة (٦٧) ذكر مجموعة من الوسائل التي تستعملها الجمعية في نبذ البدع والخرافات وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالدعوة اللسانية، والتواصي بالحق والصبر، والكتابة في الصحف، ومن خلال التدريس والتفسير والشعر، وطباعة الكراريس ونشرها بين الناس، ومن خلال الخطب في المساجد، والرحلات الدعوية في نواحي الأقطار عبر دعاة الجمعية الذين يسيرون علىٰ بصيرة ومنهج قويم في الوعظ والتذكير[4]، ويعقب عليها رحمه الله

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٢٤٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: آثار الإمام (١/ ٨٥).

بقوله: (بهذه الوسائل نفسها تتوسل الجمعية لإماتة البدع والخرافات المخالفة للدين، ولإحياء السنن الصحيحة الثابتة)[1].

كما يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من قانون الجمعية في مادته (٦٩) أن تدرس الجمعية أحوال المجتمع الجزائري من جميع النواحي، وتوكل لأكفائها مهمة وضع برنامج متكامل مفصل يبين أصول العلل وطرق معالجتها بما تألفه النفوس وتكون مستعدة لقبوله، فلابد من معرفة حقيقة الداء حتىٰ ينفع الدواء، وبإزالة الأسباب يتم العلاج، ثم يقترح الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نموذجًا لذلك لتصحيح عقائد المجتمع[2]، وفي المادة (٧٠) و(٧١) من قانون الجمعية بعض الوسائل التي تتخذها الجمعية لمواجهة البدع وإحلال السنة محلها، فمن ذلك معرفة أسباب بعد المجتمع عن الكتاب والسنة، وبيان كيفية إعادتهم لهدايتهما، ووضع خارطة لمناطق العمل تدرس أحوال أهلها وقابليتهم، وأسباب ذلك كله، ومعرفة البدع المنتشرة في كل منطقة، وذلك لتمهيد الطريق لإزالتها[3]، وهذا جهد عظيم تقدمه الجمعية في هذا الباب المهم لتصحيح العقائد ونبذ البدع.

ويبين الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أحد أهم غايات الجمعية الكبرىٰ هو: (اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنة رسوله . . . هو اليوم الذي يصبحون، وقد حطموا القيود والأغلال التي أثقلتهم فذهبت بدينهم ودنياهم من أهواء اتبعوها، وبدع في الدين ابتدعوها، وسفاسف ما أنزل الله بها من سلطان افتجروها واخترعوها)[4]، فنبذ البدع من أبرز الجهود التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائر، وأثمرت ثمارًا عظيمةً في ذلك القطر.

---

(١) آثار الإمام (١/ ٨٥).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ٨٦).

(٣) المرجع السابق، وانظر: آثار الإمام (٢/ ١٣٣).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٣٨).

ويتحدث الإمام رحمه الله عن علماء الجمعية المصلحين، وما تميزوا به من سعة العلم بالشريعة، ويذكر أن مما يجمع بينهم أيضًا إخلاصهم في الذود عن حقائق الإسلام وتطهيره من العوالق التي علقت به من ضلال العقائد وبدع العبادات[1]، وهذا هو الذي أسست من أجله الجمعية، وكانت أثقل شيء علىٰ الاستعمار الفرنسي فدبر لها مكائده خوفًا علىٰ سلطانه، لأنه لم تثبت أقدامه في الجزائر إلا بتخدير العقول عن طريق المبتدعة والدجالين باسم الدين، وقد كان لهم سلطانهم علىٰ الناس، فإذا حوربوا من قبل جمعية العلماء؛ زال سلطانهم وسلطان الاستعمار الغاشم[2].

كما يتحدث رحمه الله عن همة المصلحين من أعضاء الجمعية في المُضي بالجمعية لمواجهة ودحر البدع والخرافات، فيقول: (أما المصلحون فقد صرحوا من أول يوم بأنهم سائرون بهذه الجمعية علىٰ المبدأ الذي كانوا سائرين عليه من قبلها، ومنه محاربة البدع والخرافات والأباطيل والضلالات ومقاومة الشر من أي ناحية جاء)[3].

وبيّن رحمه الله أن جمعية العلماء تدعو مشايخها في كل عام إلىٰ إقامة دروس الوعظ والتذكير في شهر رمضان، وتوكد عليهم أن يشددوا النكير علىٰ البدع التي تفشو في رمضان، فكانوا يقومون بذلك الواجب خير قيام[4].

ثم يبشر الإمام الإبراهيمي رحمه الله بنجاح الجهود التي بذلتها الجمعية في محاربة البدع والخرافات، ونشر الاعتقاد الصحيح، فيقول: (نجحت الجمعية -كذلك- نجاحًا جليًا مشهودًا ظهرت آثاره للعيان وَلَمَسَهُ الموافق والمخالف والمعتدل والمتجانف، في تصحيح عقائد الأمة الجزائرية وتطهيرها من شوائب

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ٩٧).

(٢) انظر: آثار الإمام (٥/ ١٥٢-١٥٣).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٨٨).

(٤) انظر: آثار الإمام (٢/ ٣٤٧).

الشرك القولي والعملي التي شابتها)[١]، ويبين شيئًا من آثار ذلك علىٰ الناس، وكيف أدىٰ بهم إلىٰ نبذ كل بدعة وباطل، وأصبحوا يفرقون بين السنة والبدعة والمشروع والممنوع، فيقول: (ونبذوا كل ما كانوا عليه من عقد فاسد أو قول مُفتَرىٰ أو عمل مبتدع في هذه الأبواب كلها، وأصبحوا يفرقون بين السنة والبدعة والمشروع وغير المشروع ويعتقدون أن الإنسان مجزي بعمله رهين بكسبه)[٢]، ثم يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الذي وصلوا إليه لم يكن يسيرًا لولا عون الله وتوفيقه، فيقول: (وليست هذه النتيجة بالأمر اليسير وما كنا -لولا عون الله- لنبلغ هذا الحد من النجاح فيها)[٣].

ويذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الجمعية تفخر بنجاحها في جمع عدد كبير من الناس علىٰ الحق والخير بعد أن كانوا متفرقين علىٰ الباطل والشر، وأنها حققت انتصارًا في حملتها علىٰ الخرافات والأوهام والدجل[٤].

ومن فقه الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أوصىٰ دعاة الجمعية -بعد أن انقضت كثير من البدع علىٰ يديها- أن لا يعيدوا فتح تلك المواضيع المتعلقة بالبدع التي قد انقضت لئلا تنشط من جديد، فيقول موصيًا لهم بذلك: (وعليهم أن يجتنبوا الحديث في مثارات الفتن، وفي البدع التي فرغت جمعية العلماء منها، فقد ضعف شأنها، وفي إعادة الحديث عليها تقوية لها وإحياء)[٥].

ويمكن إجمال ما مضىٰ من جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في تقرير أهمية إتباع السنة وترك الابتداع؛ فيما يلي:

- معاهدته لربه أن يطهّر دينه ولذلك جاهد في حرب البدع والضلالات واشتد نكيره لها.

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٨٣).
(٢) آثار الإمام (١/ ٢٨٤).
(٣) آثار الإمام (١/ ٢٨٤).
(٤) انظر: آثار الإمام (١/ ٢٨٦)، (٣/ ٥٦).
(٥) آثار الإمام (٣/ ٢٨٧).

- حثّه المتكرر علىٰ إتباع السنة ونصرها ونبذ البدعة والتطهر منها.

- أن رأس المال من الدين في اتبّاع سنة النبي ﷺ والمحافظة عليها، ونبذ البدع المخالفة لها.

- أن البدع مهلكة للأمة ومفسدة للدين.

- أن العبادات وقبولها متوقف علىٰ ما شرعه الله علىٰ لسان نبيه ﷺ.

- أن أهل الحق إذا لم يحموا السنن غمرتها البدع.

- أن حرب البدع والضلالات يورث الهيبة والمكانة للعلماء.

- أن من وسائل نبذ البدع استقامة الدعوة علىٰ هدي النبي ﷺ وأصحابه، مع البصيرة والبينة والحكمة والإخلاص، وتحكيم القرآن.

- أن الصحابة ﷺ كانوا حريصين علىٰ اتباع النبي ﷺ والتأسي به في جميع أحواله.

- أن قوة الحجة في إنكار البدع يكون باتخاذ الكتاب والسنة مرجعية.

- ثناؤه علىٰ عدد من العلماء الذين عُرفوا بإتباع السنة ومنابذة البدعة.

- وقوف الجمعية في وجه كثير من البدع المنتشرة وإنكارها إنكارا شديدا.

- تعدد وسائل مواجهة البدع لدىٰ الجمعية بين القول والفعل والمحاجّة والأسوة الحسنة.

- شعار الجمعية في هذا الباب أن كل محدثة في الدين بدعة وكل بدعة ضلالة.

- من الوسائل المنصوص عليها في قانون الجمعية لنبذ البدع: الدعوة اللسانية، والتواصي بِالحق والصبر، والكتابة والتدريس والمنشورات والخطب والرحلات الدعوية.

- درست الجمعية أحوال المجتمع الجزائري ووضعت برنامجا متكاملا لدفع البدع.

- نبذ البدع هو أحد أهم غايات الجمعية الكبرىٰ.

- تميز علماء الجمعية بسعة العلم بالشريعة وإخلاصهم في مواجهة البدع والضلالات.

- قيام مشايخ الجمعية في كل عام بالنكير علىٰ البدع الموسمية.

- نجاح جهود الجمعية في محاربة البدع والخرافات ونشر الاعتقاد الصحيح.

ثالثًا: الأسباب المؤدية إلى البدع والخرافات

١. نَزْعة التسليم وترك الاستدلال.

يشيد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بميزة ظهرت في طور من أطوار الجزائر العلمية، وهي «الاستدلال» وترك التسليم المطلق للشيوخ دون طلب الدليل كما كان الحال كذلك قبل النهضة الجزائرية -كما يسميها-[١]، كما يؤكد رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذلك التسليم المذموم كان منفذًا من منافذ البدع والخرافات، فيقول: (ولقد كان التسليم أصلًا من أصول الأدب في جميع ما يعمر مجالسنا العلمية من الأحاديث، وإن هذا لهو المنفذ الواقع الذي دخلت علينا منه الخرافات والأحاديث الموضوعة والمبالغات السخيفة والآراء المضطربة وكبائر الغلو وموبقاته)[٢]، فكانت نزعة التسليم تلك سببًا من الأسباب الكبرىٰ التي أدّت إلىٰ وقوع البدع والخرافات.

٢. إِلْف المنكرات.

ويقرر رَحِمَهُ اللَّهُ أن لنشأة البدع وانتشارها خطواتٌ تكمن في إلف المنكر حتىٰ يغدو معروفًا، ثم السكوت عليه حتىٰ يصبح عادة، ثم تصير العادة سنة، وهكذا

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٤٧).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٤٧).

حتىٰ تضمحل السنن ويضيع الدين القويم، فيقول في بيان ذلك: (وهذا أصل بلائنا في الدين، وشقائنا في الدنيا؛ . . . تعود المنكر حتىٰ يصير معروفًا، والإلف له حتىٰ تسكن إليه النفوس، وهذه هي علتنا فيما فشا بيننا من بدع ومنكرات وضلالات: يسكت عليها الأول فتصير عادة، وتستحكم فتصير سنة، وتتكاثر أنواعها فتغطي علىٰ الدين الصحيح، وعلىٰ السنن المأثورة فيه، وعلىٰ المناهج القويمة في شؤون الدنيا)[١]، وكم من بدعة راجت بمثل هذه الخطوات حتىٰ تمكنت في النفوس.

٣. وهن بعض العلماء.

ومما يعدّه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ سببًا في شيوع البدع والخرافات وذيوعها، وهن بعض العلماء وضعفهم عن أداء الواجب في تقرير الحق والسنة وإنكار الباطل والبدعة، حتىٰ ضعف سلطانهم وأضاعوا إرثهم النبوي؛ مما أدىٰ إلىٰ تسلط المبتدعة ووقوع الأمة في شراكهم، فيقول في ذلك: (ولنا مع هذه الطائفة حساب، ولنا عليها عتاب، فهم -بحكم الله- حراس هذا الدين، والمؤتمنون علىٰ حرماته، وقد أوتوا سلطانًا إلهيا مبينًا ففرطوا فيه، واستحقوا إرثًا نبويا ثمينًا فأضاعوه، حتىٰ خرج الأمر من أيديهم، وتعاوَرته أيد سفيهة لا تحسن تصريفًا ولا قيادة، فوقعت الأمة فريسةً للمبتدعين في الدين، والمتسلطين في الدنيا، والمتبعين لأهوائهم في الدين والدنيا)[٢].

ويوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما آل إليه حال بعض علماء عصره حتىٰ صاروا مهانين يذلهم أهل البدع والدجل والضلال ويستغلونهم في أهوائهم، فيقول: (وشعر أولئك المبتدعة بتهور العلماء للمطامع الخسيسة، وسقوطهم علىٰ المطامع الخبيثة، فقادوهم بزمامها، ثم شعروا بإقرارهم للمهانة والذل في نفوسهم، فأمعنوا في

---

(١) آثار الإمام (٣/ ١٥٢).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٤١٩).

تحقيرهم وإغراء العامة بهم، وأهان العلماء أنفسهم، فسهل الهوان عليهم . . . وصاروا عبيدًا وخولًا لهؤلاء المبتدعة الضُلال، يعيشون عالة عليهم، ويتساقطون علىٰ فتات موائدهم، ويتطوعون لهم حتىٰ بأخس شهواتهم، ويشهدون لهم الزور علىٰ الله ودينه، ويحلون لهم من اللذائذ ما حرم الله)[1]، فكان ذلك سببًا ظاهرًا في تمكن سلطان المبتدعة وضعف سلطان أهل السنة، ولذا يقول الإمام الإبراهيمي ﵀ عن أثر بعد العلماء عن التأثير في الأمة، وكيف كان سببًا في شيوع البدعة وأهلها: (وكان لخلو ميدان السلطة والأمر منهم أثر فاتك في عقائد المسلمين وأخلاقهم؛ وكان من نتائجه إلقاء الأمة بالمقادة إلىٰ مَن يُضل ولا يهدي من المشعوذين الدجالين. فأضلوها عن سواء السبيل، ومكنوا فيها للداء الوبيل)[2].

ويؤكد ﵀ أن من أسباب تَفَشي البدع تقصير أهل الحق في الدعوة إلىٰ الله وحماية السنن، فيقول: (الدعوة إلىٰ الله وظيفة أهل الحق من أتباع محمد ﷺ، وهي أثمن ميراث ورثوه عنه، وهي أدق ميزان يوزن به هؤلاء الورثة ليتبين الأصيل من الدخيل، فإذا قصر أهل الحق في الدعوة إليه ضاع الدين، وإذا لم يحموا سننه غمرتها البدع)[3].

٤. تسلُّط الاستعمار.

ومما روّج للبدعة والخرافة تسلّط الاستعمار وتشويهه للإسلام وتمكينه للخرافات المفسدة للعقائد، ويقول الإمام الإبراهيمي ﵀ عن سياسة الاستعمار في ذلك: (فكان من أسلحة هذه السياسة، بعد الحديد والنار وتشويه الإسلام وتقبيحه في نفوس أبنائه الجاهلين به، وتشجيع الخرافات لإفساد عقائده، وإلقاء

---

(١) آثار الإمام (٣/ ٣١٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٠١).

الشبهات في كثير من حقائقه)[1]، ويؤكد ذلك في موضع آخر فيقول عن الاستعمار وحربه علىٰ المسلمين وتفانيه في إفساد دين المسلمين وعقيدتهم بترويج البدعة والضلالة: (ومن مكائده الخفية لمحو الإسلام تشجيعه للخرافات والبدع والضلالات الشائعة بين مسلمي الجزائر . . . خبّ الاستعمار وأولع في هذا المضمار وجمع علىٰ حرب الإسلام كل ضال من أبنائه وكل دجال وكل مبتدع وكل متجر بالدين، يشجعهم ويرعاهم ويكرمهم ليحاربوا الدين الحق بالدين الباطل)[2].

٥. الانحطاط العام لدىٰ المسلمين.

ويؤكد الإمام الإبراهيمي رحمه الله دور الاستعمار في بث البدع والضلالات، وتخطيطه الكبير لإفساد دين المسلمين بالخرافة والبدعة، وما صحب ذلك من انحطاط في المسلمين ساعدهم علىٰ بلوغ مآربهم، فيقول: (إن القوم درسونا وفهمونا، وتيقنوا أننا لن نضيع ولن نفنىٰ ما دمنا متمسكين بالعرىٰ القوية من الإسلام والعربية والشرق، فرمونا بالوهن في مقوماتنا حتىٰ تضعضعت وبدأوا بالدين فسخّروا علماءه بوسائل شتىٰ حتىٰ أضعفوا سلطانهم وأزالوا هيبتهم من نفوس المسلمين، ووجدوا ثغرًا قديمة من ضلالاتنا فيه فوسعوها وأدخلوا فيه ما ليس منه، وشجعوا البدع المحدثة في الدين بتشجيع أهلها، وأعانهم علىٰ ذلك كله الانحطاط العام الذي ابتليت به العلوم الإسلامية من المائة الثامنة إلىٰ الآن)[3].

ويمكن إجمال ما بيّنه الإمام الإبراهيمي رحمه الله من الأسباب المؤدية إلىٰ البدع والخرافات فيما يلي:

- التسليم المطلق للشيوخ دون العناية بالاستدلال.

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٣٥٥).

(٢) آثار الإمام (٥/ ٧٤).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٤٧٠).

- السكوت على المنكر حتى يصير معتادًا، ثم يصير معروفًا وسنة.

- وهن بعض العلماء وضعفهم عن واجبهم في تقرير الحق ودفع الباطل والبدع.

- تسلط الاستعمار وتشويهه للإسلام وإلقاؤه للشبهات وتمكينه للخرافات والبدع وأهلها.

- انحطاط الأمة العام في علوم الإسلام في مرحلة عريضة من الزمن.

رابعًا: آثار البدع والخرافات

يذكر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من آثار البدع والخرافات إضعاف الثقة بالله في النفوس ودفعها إلىٰ الوثوق بما سواه، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به)[1]، ويبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البدع لا تُقرب الناس من ربهم -جل وعلا- بل تبعدهم عنه[2].

ويبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إفساد الإسلام بالبدع والضلالات أثّر في انتشاره فأضعفه وأضعف أهله ومزقهم وفرقهم، فيقول في ذلك: (ولو بقي الإسلام علىٰ روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال، لطبق الخافقين، ولجمع أبناءه علىٰ القوة والعزة والسيادة حتىٰ يملكوا به الكون كله، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرقوه شيعًا ومذاهب، فضعف تأثرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلىٰ ما نرىٰ ونسمع)[3].

ويبدي الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسفه علىٰ ما أورثته البدع من ضياع دين الناس ودنياهم، فيقول: (طاف الإمام أبو إسحاق الأسفرائيني في بدء

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٣٣).

(٢) انظر: آثار الإمام (٣/ ٣١٠).

(٣) آثار الإمام (٢/ ٣٨٥).

انحطاط الإسلام جبل لبنان وكان عامرًا بالعباد المنقطعين عن الدنيا، فقال يخاطبهم: يا أكلة الحشيش تهربون ها هنا وتتركون أمة محمد تعبث بدينها المبتدعة، وإن اقتصاره علىٰ ذكر الدين يدل علىٰ أن دنيا الأمة كانت محفوظة، ولو بعث في مثل زماننا لَأضَافَ الدنيا إلىٰ الدين فقد ضاع كلاهما بخمول المثقفين)[1].

ويبين الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ جانبًا آخر من آثار البدع والخرافات، وهو التحللَ من الدين، والبعد عن الكتاب والسنة، والتجرد من الأخلاق، فيقول في بيان ذلك: (إن شيوع ضلالات العقائد وبدع العبادات والخلاف في الدين هو الذي جر علىٰ المسلمين هذا التحلل من الدين، وهذا البعد عن أصليه الأصليين، وهو الذي جردهم من مزاياه وأخلاقه حتىٰ وصلوا إلىٰ ما نراه)[2].

بل يذكر من آثار إقرار البدع ما هو أشنع من ذلك كإيهان النفوس حتىٰ تكون قابلة لدخول الإلحاد عليها، فيقول: (وتلك الخلال من إقرار البدع والضلالات هي التي مهدت السبيل لدخول الإلحاد علىٰ النفوس، وهيأت النفوس لقبول الإلحاد، ومحال أن ينفذ الإلحاد إلىٰ النفوس المؤمنة، فإن الإيمان حصن حصين للنفوس التي تحمله، ولكن الضلالات والبدع ترمي الجد بالهوينا، وترمي الحصانة بالوهن، وترمي الحقيقة بالوهم، فإذا هذه النفوس كالثغور المفتوحة لكل مهاجم)[3].

ويذكر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أن من آثار شيوع الخرافات وزيغ العقائد: ذهاب سلطان الدين من نفوس أتباعه، وأن هذه هي بغية الاستعمار الآثم، فيقول في بيان ذلك: (وإذا زاغت العقائد وهجرت الأحكام وسادت الخرافات فأي سلطان مادي أو معنوي يبقىٰ للدين علىٰ نفوس معتنقيه؟ وهذا هو الذي

---

(١) آثار الإمام (٢/ ١٢٥).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

(٣) آثار الإمام (٤/ ٢٠٢).

يرمي إليه الاستعمار في كل ما يكتب عن الإسلام وفي كل ما يعامل به المسلمين)[1].

وعن مكائد الاستعمار لإضلال المسلمين وتشجيعه للبدع والخرافات؛ يوضح الإمام الإبراهيمي رحمه الله ذلك، وما يعقبه من آثار يرمي إليها الاستعمار من إفساد عقائد الإسلام وإبطال عباداته وآثارها، وضرب الموازين، وتلبيس الحق بالباطل والسنة بالبدعة، وغير ذلك، فيقول: (ومن مكائده الخفية لمحو الإسلام تشجيعه للخرافات والبدع والضلالات الشائعة بين مسلمي الجزائر لعلمه أنها تفسد عقائد الإسلام الصحيحة، وتحبط عباداته، وتبطل آثارها، وتخلط الموازين، فتلتبس السنة بالبدعة والفضيلة بالرذيلة والحق بالباطل، وعقيدة الحق إذا شابها ثوب الباطل أبطل أثرها في صفاء الأرواح، وعبادة الحق إذا لبسها الضلال بطل تأثيرها في تصفية النفوس)[2].

ويذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله بعض آثار الخرافات التي غطت علىٰ عقائد الأمة، فيقول: (ويومَ قُفي علىٰ عقائده بالخرافات، ونسخت أحكامه بالعادات . . . هانوا علىٰ الله وهانوا علىٰ أنفسهم فهانوا علىٰ الناس، فأصبحوا بهذه المنزلة لا يحمدون عليها ولا يُحسدون، وأصبح دينهم هدفًا لكل رام، ونهزة لكل عاد، وفريسة لكل مفترس)[3]، وصدق رحمه الله فكم للخرافة من أثر في خواء النفوس والعقول وقبولها لكل شاذ من الآراء والاعتقادات.

ومما قرره الإمام الإبراهيمي رحمه الله من بيان آثار البدع والضلالات علىٰ المسلمين أنها: (مهدت للانحلال وفساد الأخلاق بين المسلمين، ومكنت للضعف والخور في نفوسهم، وللوهن والفشل في عزائمهم، وللزيغ والاعوجاج

---

(١) آثار الإمام (٤/ ٣٥٥).
(٢) آثار الإمام (٥/ ٧٤).
(٣) آثار الإمام (٣/ ١٣٧).

في فطرتهم، وللرثاثة[1] والنكث في روابطهم، ثم صيرتهم -لذلك- حمًى مستباحًا، ونهبًا مقسمًا)[2].

وهذا شأن البدع والخرافات في كل زمان؛ فإن آثارها علىٰ الأمة شنيعة ومودية إلىٰ الهلاك.

ويمكن إجمال ما ذكره الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ من آثار البدع والخرافات فيما يلي:

- إبعاد الناس عن ربهم -جل وعلا- وإضعاف ثقتهم به.
- ضعف انتشار الإسلام وضعف أهله وتمزقهم وتفرقهم.
- ضياع دين الناس ودنياهم معًا.
- التحلل من الدين والبعد عن أصليه (الكتاب والسنة) والتجرد من الأخلاق.
- إيهان النفوس وتهيئتها لقبول الإلحاد ودخوله.
- ذهاب سلطان الدين المادي والمعنوي من نفوس أتباعه.
- فساد عقائد الإسلام الصحيحة، وبطلان عباداته وآثارها.
- خلط الموازين وتلبيس الحق بالباطل والسنة بالبدعة.
- هوان أهلها علىٰ الله وعلىٰ الناس.
- ضعف العزائم واعوجاج الفِطَر وتقطع الأواصر بين المسلمين.

---

(١) الرَّاءُ وَالثَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَىٰ إِخْلَاقٍ وَسُقُوطٍ. فَالرَّثُّ: الْخَلَقُ الْبَالِي. مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٣٨٤).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٣٠٩).

خامسًا: إنكار عدد من البدع المنتشرة

بعد بيان جهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في توصيف البدعة وتقرير أهمية الاتباع وترك الابتداع وبيان أسبابها وآثارها، نستعرض فيما يأتي عددًا من البدع التي راجت فواجهها الإمام بالإنكار والتحذير والتفنيد، وهي:

- بدعة رفع الصوت بالذكر وغيره عند تشييع الجنائز.
- بدعة إقامة احتفالات مولدية لبعض الرموز.
- بدعة احتفالات يوم عاشوراء لدىٰ الشيعة.
- بدعة التشبه بالغرب في إقامة احتفالاتهم الدينية.
- بدعة شد الرحال إلىٰ القبور.
- بدعة علم الكلام وطريقة المتكلمين في الاستدلال بالعقل.
- بدعة المدّعين للكرامات بغير الطريقة المشروعة.
- المولد النبوي وما يقع فيه من شركيات وبدع ومنكرات.

وسنتناول كل بدعة منها علىٰ حِدة مع بيان وجوه إنكار الإمام لها وتفنيده إياها.

١. بدعة رفع الصوت بالذكر وغيره عند تشييع الجنائز.

من البدع التي أنكرها الإمام الإبراهيمي رحمه الله بدعة رفع الصوت بالذكر وغيره عند تشييع الجنائز، وقد فنّدها من عدة أوجه:

الوجه الأول: بيانه أن المسألة لا تخلو من أحد أمرين إما موافقتها للسنة -ولابد لها حينئذ من دليل- أو بدعيّتها، فكان مما استهلّ به مقالته في الرد عليها قوله عمن أساء إلىٰ منكري هذه البدعة وتعدىٰ عليهم بالافتراء والبهتان: (المسألة بيننا لا تتجاوز أحد أمرين: إما سنة نحن وهم سواء في امتثالها والإذعان لها. أو بدعة نحن وهم سواء في تجنبها وقتلها. هذا باعتبار الإسلام الجامع بيننا)(١).

الوجه الثاني: تقريره للطريقة الشرعية في تشييع الجنائز والتي توافق هدي رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، فقال في بيانها: (من باب ما هو معلوم من الدين بالضرورة إذا قلنا إن تشييع الجنائز علىٰ عهد الرسول ﷺ كان بما يناسب جلال الموت ورهبته، والذي يتناسب وينسجم مع التشييع هو الخشوع والتذكر والاعتبار بمن حملوا علىٰ الأعواد. والخشوع معروف هو غير الصراخ والعويل والضجيج والتهويل وقد شيّع الرسول ﷺ أصحابه وبناته، وشيّعه أصحابه من بعده وشيّع الصحابة -رضوان الله عليهم- بعضهم بعضًا كذلك علىٰ هيئة واجمة رهيبة)(٢).

الوجه الثالث: مناقشته لاحتجاجهم بأن الذكر عند التشييع يلهي عن لهو الحديث، وبيانه أن تلك البدعة منكر من عمل الشيطان، وأنه ليس لأحد أن يُحدث في الدين، فقال: (أما ما هم عليه من رفع أصواتهم في التشييع بلا إله إلا الله وبما سولت لهم أنفسهم وزين لهم شياطينهم فهو منكر أنكره الله ورسوله وأصحابه والأئمة المرتضون. إن لا إله إلا الله لا توضع في غير مواضعها يا قوم! فما لكم إذا قيل لكم لا تضعوها في غير محلها، ومنه الجهر بها في التشييع قلتم متجرئين إننا نحارب لا إله إلا الله؟ كبرت كلمة تخرج من أفواهكم ... ثم هل لمخلوق - أيا كان- أن يزيد في دين الله ما ليس منه؟ كلا!)(٣).

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٨٩).

(٢) آثار الإمام (١/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) آثار الإمام (١/ ٢٩٠).

الوجه الرابع: بيانه لمخالفة أصحاب هذه البدعة للأئمة والفقهاء واتّباعهم لآبائهم بغير سلطان، فيقول: (ولو كانوا ممن يبتغي إلىٰ الله سبيلًا كما يزعمون لكفاهم أن ينظروا كتاب الجنائز من موطأ مالك رضي الله عنه أو من البخاري أو مسلم أو غير هذه من كتب الحديث الصحيحة ولكنهم أشربوا حب البدعة حتىٰ الثمالة. فما لنا نجادلهم بالحديث وبالكتاب المنير؛ وهم لم ينقادوا حتىٰ للفقهاء الذين يدعون أنهم لهم مقلدون؟! أما علمت أن القوم يحاجونك في مشروعية البردة بما لا يليق إلا بهم كأنهم بذلك يكشفون عن منتهىٰ عهدهم بالدين وبالسنة وكأنهم بذلك يقولون إنما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون)[1].

وإنكار الإمام الإبراهيمي رحمه الله لهذه البدعة موافق لمن سبقه ولحقه من علماء السنة، وممن بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقد قرّر أن المشروع في هذا المقام هو السكينة مع امتلاء القلوب بذكر الله وإجلاله وإكرامه، وأن رفع الصوت في مثل هذه المواطن من عادة أهل الكتاب والأعاجم، وقد ابتلي بها كثير من هذه الأمة[2].

٢. بدعة إقامة احتفالات مولدية لبعض الرموز.

ومما أنكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله من البدع والخرافات الشائعة في زمانه: إقامة احتفالات مولدية لبعض الرموز، فبيّن إفسادها للدين والأخلاق وعدم جدواها ونفعها، وكونها بابًا للخرافات والدجل؛ فيقول: (لا نريد للمسلمين أن يعكفوا علىٰ تلك الاحتفالات المولدية الشائعة ... ولا أن نعكف علىٰ ذلك النوع الشائع في مصر كمولدي البدوي والرفاعي وغيرهما، فإن ذلك النوع -زيادة علىٰ إفساده للدين والأخلاق- لا يثير في النفوس ذكريات ماجدة ولا معاني شريفة وإنما يمكن فيها للتخريف والدجل)[3].

---

(١) آثار الإمام (١/ ٢٩٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١/ ٣٥٨).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٣١-٣٣٢).

٣. بدعة احتفالات يوم عاشوراء لدىٰ الشيعة.

ومما أنكره الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ من البدع والضلالات؛ احتفالات الشيعة وخرافاتهم في يوم عاشوراء، فقد تعجّب من غلوّهم وفساد فعلهم في مثل الاحتفال بذكرىٰ مقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيقول: (ولا ذلك النوع الشائع في الأوساط الشيعية من احتفالهم يوم عاشوراء بذكرىٰ مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه فضلًا عما يقع فيه من المنكرات المخجلة، لا يثير إلا الحفائظ والإحن ولا يثمر إلا توسيع شقّة الخلاف، ولقد حضرت احتفالهم مرة واحدة بدمشق في تربة تُعرف بأرسلان، فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم، وعلمت لأول مرة: إلىٰ أي حد ينتهي التعصب والغلو)[١].

وإنكار الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه البدع جارٍ علىٰ سنن علماء السنة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقد فنّد تلك البدع التي جاء بها الرافضة، وكان مما قال حول بدعة يوم عاشوراء: (فما يفعل يوم عاشوراء من اتخاذه عيدًا بدعةٌ أصلها من بدع النواصب، وما يفعل من اتخاذه مأتمًا بدعةٌ أشنع منها، وهي من البدع المعروفة في الروافض)[٢].

وفي مزيد بيان لإنكاره تلك الحفلات البدعية وما تتركه من آثار مَرَضية، يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا نرضىٰ للمسلمين بهذا الطراز البالي من الاحتفالات التي ذكرنا بعض أنواعها، فقد عكفوا عليها قرونا، فما زادتهم إلا خبالًا وانحطاطًا، وإنما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير)[٣].

٤. بدعة التشبّه بالغرب في إقامة احتفالاتهم الدينية.

ومما أنكره الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ من البدع والضلالات؛ تشبه بعض المسلمين بالغرب

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٣٢).

(٢) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٨/ ١٥٣).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٣٢).

في إقامة احتفالاتهم الدينية كما يسمونه «ليلة الميلاد المسيحي» و«عيد رأس السنة»، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (نرىٰ الطرف الآخر يتهالك علىٰ تقليد الغربيين في ولائمهم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف ويستهتر في هذا التقليد حتىٰ تطغىٰ احتفالات الغرب الدينية والقومية حتىٰ علىٰ المواسم الشرقية الدينية . . . يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد رأس السنة المسيحية ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الأضحىٰ. ولعمري إن هذا لهو الاستعمار الروحي الذي لا يُعد الاستعمار المادي معه شيئًا مذكورًا!)[١].

٥. بدعة شد الرحال إلىٰ القبور.

ومن البدع التي أنكرها الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ شدّ الرحال إلىٰ المشاهد والقبور كما كان واقعًا في بعض مناطق الجزائر، فيقول في بيانها وعدم مشروعيتها: (العامة تُطلق علىٰ هذا النوع اسم «الأركاب» وهم يعنون جمع رَكب بسكون الكاف، كأركاب خالد ابن سنان بصحراء بسكرة، وركب عامر لقبر عطية قرب قلعة بني حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر، وركب البليدة لقبر الشيخ أبي مدين بتلمسان، وكلها من شدّ الرحال غير المشروع)[٢].

٦. بدعة علم الكلام وطريقة المتكلمين في الاستدلال بالعقل.

ومما تناوله الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بالنقد بدعة علم الكلام[٣] وطريقة المتكلمين في الاستدلال علىٰ العقائد، وذلك من عدة وجوه:

---

(١) آثار الإمام (١/ ٣٣٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ٣٣٣).

(٣) علم الكلام له تعريفات كثيرة، ومما عرّفه به أربابه؛ قول عضد الدين الإيجي: (علم يقتدر معه علىٰ إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه) المواقف، للإيجي (١/ ٣١).
وقد عرّفه ابن تيمية بأنه: إثبات أمور العقائد بالأدلة العقلية والطرق الجدلية مع الإعراض عما في القرآن والسنة من الأدلة العقلية الدالة علىٰ أصول الدين.
انظر: مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٤٦١)، (١٩/ ١٦٣).

الوجه الأول: بيانه لمنشأ الأمر وتطوّره، فبيّن أن علم الكلام قد نشأ حين تفرقت المذاهب الفقهية، وتفرقت منازعه بين الأشاعرة والمعتزلة، وطما علم الجدل، وتفرق المسلمون شيعًا حتىٰ أصبح كل رأي يتحزب له جماعة فيصبح مذهبًا، فضعف سلطان القرآن علىٰ النفوس، وأصبح العلماء لا يلتزمون في الاستدلال بآياته، وصار علماء الكلام يستدلون بالعقل، وعلىٰ هذه الطريقة أُلِّفت المؤلفات التي لا تحصىٰ في علم الكلام وانتشرت في الأمة، وتوسع أئمة علم الكلام في الطريقة العقلية وثبتوا القواعد الكلامية والاستدلال علىٰ التوحيد بالعقل. وما زالت مؤلفاتهم مرجعًا للمتمسكين بهذه الطريقة، وهي جارية علىٰ الأصول التي أصَّلها أبو الحسن الأشعري(١).

الوجه الثاني: بيانه لمساوئ تلك البدعة، فمن ذلك قوله: (وإذا نحن وازنا بين ما أجداه علينا علم الكلام وبين ما خسرناه بسببه وجدنا الخسارة تربو علىٰ الربح)(٢)، ومن ذلك بيانه للمشقة وتضييع الوقت في علم لا يُحتاج إليه، فيقول: (وعلىٰ هذا فما معنىٰ إضاعة الوقت وإعنات النفس في معرفة هذا العلم المسمىٰ بعلم الكلام؟!)(٣).

الوجه الثالث: بيانه أن في القرآن وهدي الصحابة رضي الله عنهم غُنية وكفاية عما في علم الكلام، فلا حاجة إليه في إثبات أصول الدين، فيقول: (فتوحيد الله مقرر في القرآن بأجدىٰ بيان وأكمل برهان، وصفاته لا يطمع طامع أن يأتي في إثباتها بأكمل مما أتىٰ به القرآن، وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة، وقد جرىٰ عليها الصحابة فكانوا أكمل الناس توحيدًا مع أنهم لا يعرفون الجوهر(٤) والعرض(٥)،

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٥-٣١٦).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٧).

(٣) المرجع السابق.

(٤) الجوهر: ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع، وهو مختصر في خمسة: هيولي، وصورة، وجسم، ونفس، وعقل. التعريفات (٧٩).

(٥) العرض: ما يعرض في الجوهر، مثل الألوان والطعوم والذوق واللمس وغيرها مما يستحيل بقاؤه بعد وجوده. التعريفات، للجرجاني (١٤٩).

وهل يبقىٰ زمانين؟ ولا الكم ولا الكيف بمعانيها الفلسفية الدقيقة، وعلىٰ هذا فما معنىٰ إضاعة الوقت وإعنات النفس في معرفة هذا العلم المسمىٰ بعلم الكلام؟!)[1].

الوجه الرابع: بيانه لهشاشة علم الكلام المُبتدَع وضعف أسسه، فيقول: (ولو كان هذا العلم المستحدث ذا قواعد طبيعية لا تنقض، كقواعد الحساب أو الهندسة مثلًا، لخفّ ما يلقىٰ الناس في تعلمه من عناء، ولكننا رأينا تلك القواعد تتهاوىٰ في المناظرات القولية أو القلمية كفقاقيع الماء، فلا يكاد يبني الباني حتىٰ ينبري له هادم ينقض ما بنىٰ ويتبّر[2] ما علا)[3].

الوجه الخامس: بيانه لضياع عقول العلماء المتكلمين في غير ما ينفع رغم حدّة ذكائهم، وضياع جهودهم فيما لا يجدي؛ فيقول: (فوا أسفاه علىٰ تلك الحملات العنيفة التي كانت جهادًا ولكن في غير عدو، ووالهفاه علىٰ ذلك النقع المثار وقد انجلىٰ عن غير فتح ولا غنيمة، وواحسرتاه علىٰ ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تشفّ له حُجُب الغيب، ذكاء أبي بكر الباقلاني[4] وفخر الدين الرازي[5]

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٧).

(٢) التَّتْبِيرُ التَّدْمير والإهلاك.

انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (١٤/ ١٩٧)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٣٦٢).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٧).

(٤) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد البغدادي ابن الباقلاني، أوحد المتكلمين، ومقدم الأصوليين، صاحب التصانيف، كان يضرب به المثل في ذكائه، صنف في الرد علىٰ الرافضة والمعتزلة والخوارج وغيرهم، وقد انتصر لطريقه أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه. توفي سنة ٤٠٣هـ.

انظر: السير، للذهبي (١٧/ ١٩٠)، وتاريخ بغداد، للخطيب (٣/ ٣٦٤).

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعري بالفلسفة والاعتزال، صاحب التفسير والتصانيف المشهورة، توفي سنة ٦٠٦هـ.

انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان (٤/ ٢٤٨)، وشذرات الذهب، لابن العماد (٧/ ٤٠).

وأبي الهذيل[١] وابن المعلم[٢]، وقد ضاع فيما لا تعود علىٰ الإسلام منه عائدة، ولا تنجرّ له منه فائدة)[٣].

ومن ذلك ما تركه من انطباع حول تفسير الرازي إذ بيّن شدة ذكائه مع انصرافه إلىٰ ما لا يُحتاج إليه؛ فيقول: (وإنك لتطالع تفسير الرازي مثلًا فتتلمّح من جملته ذكاءً يشع، وقريحةً تتّقد وألمعيَّةً تكاد تنتزع منك بنات صدرك، فتظن أن سيكشف لك عن الجهات المتصلة بنفسك من القرآن، ويجلّي لك سنن الله في الأنفس والآفاق. وإذا بالظن يخيب والفال يكذب، إذ ترىٰ تلك القوىٰ مصروفة إلىٰ جهة غير التي تريد، وترىٰ الرجل وقد غلب علىٰ ذكائه وجرَفَته العادة التي تملّكته إلىٰ الآراء والعقليات وإثارة الشبهات، وترىٰ ذلك الذهن العاتي يتخبط في مضائق هي دون قدر القرآن ودون قيمة ذلك الذهن)[٤].

ثم يُقْسم ﷺ أن ما وهبهم الله إياه من ذكاء لو أحسنوا تصريفه لنفع الإسلام والمسلمين، فيقول: (ونحن نعتقد أن الرجل وأمثاله من الأذكياء ما أتوا إلا من غرامهم بهذه المباحث الكلامية واستهتارهم فيها. ويمينًا لو أن تلك الجهود التي تفرقت علىٰ الكلام تألفت علىٰ جهة عقلية أخرىٰ لفتحت في العلم فتحًا أغر زاهرًا، ولتعجلت به الفخر للإسلام وأهله)[٥].

---

(١) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي العلاف، شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف في مذهبهم، ورأس الطائفة الهذيلية، ولد بالبصرة سنة ١٣٥هـ وتوفي سنة ٢٢٦هـ أو ٢٢٧هـ أو ٢٣٥هـ علىٰ ثلاثة أقوال.

انظر: لسان الميزان، لابن حجر (٧/ ٥٦١).

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم، شيخ الرافضة والمتكلم علىٰ مذاهبهم، صنف كتبا كثيرة في ضلالاتهم، والطعن علىٰ السلف الماضين من الصحابة والتابعين والفقهاء المجتهدين، توفي سنة ٤١٣هـ.

انظر: تاريخ بغداد، للخطيب (٤/ ٣٧٤)، وميزان الاعتدال، للذهبي (٤/ ٣٠).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٧).

(٤) المرجع السابق.

(٥) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

الوجه السادس: بيانه للطريقة المثلىٰ في الاستدلال علىٰ العقائد والمجانبة لطريقة المتكلمين، فيذكر أن دروس الإمام ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن بعده جمعية العلماء قد أحيوا طريقة السلف المثلىٰ للاستدلال علىٰ وجود الله وصفاته وما يرجع إلىٰ الغيبيات بالقرآن لا بغيره، فالمؤمن لا يستند في توحيد الله وإثبات ما ثبت له ونَفْي ما انتفىٰ عنه إلا بآية قرآنية محكمة أو سُنة نبوية ثابتة[1].

٧. بدعة المدّعين للكرامات بغير الطريقة المشروعة.

اشتد نكير الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ فئة من العلماء الذين ذلّوا لأهل البدع واستكانوا، حتىٰ صاروا يثنون عليهم بما ليسوا أهلًا له، بل غلوا في تعظيم المبتدعة المدّعين للكرامات حتىٰ جعلوا لهم بعض خصائص الألوهية، فيقول عنهم وعن بدعتهم: (وأصبحوا يُزكّون بعلمهم ذلك الجهل ويشهدون لأولئك القادة الجاهلين بالكمال والفضل، ولأولئك المبتدعين بما انتحلوه لأنفسهم من الولاية والكرامة، علىٰ المعنىٰ الذي اخترعوه، لا علىٰ المعنىٰ الذي جاء به الدين، ثم لم يكتفوا منهم بذلك حتىٰ نحلوهم خصائص الألوهية)[2].

ويمكن إجمال تقريرات الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول كرامات الأولياء ببيان عدة أمور:

١- إيمانه بها وبوقوعها وبإمكان وقوعها، وعدم إنكارها.

٢- أنها ليست من الأعمال المكتسبة التي يمكن الاقتداء فيها بأصحابها.

٣- أنها ليست شرطًا في تحقيق الصلاح الشرعي.

٤- أنها ليست من التكليفات الشرعية.

٥- أنها ليست من تقوىٰ الله التي يتفاضل بها الصالحون.

٦- أنها ليست مناطًا شرعيًا للتعظيم.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ٣١٥-٣١٦).

(٢) آثار الإمام (٣/ ٣١٠).

٧- إنكاره افتتان الجهلة بها وغلوهم فيها.

٨- إنكاره علىٰ من خدع الناس بها وأشغلهم عما ينفعهم.

٩- إنكاره علىٰ الجاهلين الذين لا يفرقون بين الممكن وقوعه وغير الممكن.

١٠- أن سنن الله الثابتة لا تُخرق من أجل فلان وفلان وإنما تُخرق العوائد.

١١- أن الكرامة الحقيقية لعباد الله الصالحين في توفيقهم للصالحات[١].

وتقريرات الإمام موافقة لما ذكره علماء أهل السنة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد قرّر أن من أصول أهل السنة: (التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله علىٰ أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات، وكالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلىٰ يوم القيامة)[٢].

٨. المولد النبوي وما يقع فيه من شركيات وبدع ومنكرات.

وأما ما يتعلق بالمولد النبوي، فإن الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أن الموالد النبوية «ذكرىٰ للغافلين»، وأن السلف الصالح لم يقيموها لكونهم متذكرين بقوة دينهم وطبيعة قربهم وعمارة أوقاتهم بالصالحات، أما في الأزمنة المتأخرة التي استحكمت فيها الغفلة وقسوة القلوب من طول الأمد فقد احتاج المسلمون إلىٰ ما ينبّههم من عِبَر تاريخهم وسيرة نبيهم وحقائق قرآنهم، وأنه لو فُهِم مولد النبي ﷺ بتلك المعاني لكان من خير المنبهات[٣].

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) العقيدة الواسطية، لابن تيمية (١٢٣).

(٣) انظر: آثار الإمام (٤/ ١٤٤).

ويحثّ رحمه الله على إقامة معاني المولد قبل إقامة حفلاته، وعلى التدرج من المولد إلى البعثة المحمدية التي هي مولد دين الإسلام أكمل الأديان، وهي الحقيقة التي تهدي إليها هذه الذكرى[(١)].

ومن بدائع ما أوصى به الإمام الإبراهيمي رحمه الله فيما يتعلق بالمولد النبوي قوله: (واعرفوا محمدًا بدينه وقرآنه وسيرته لا بمولده، وأقيموا دينه، ولا عليكم بعد ذلك أن تقيموا مولده أو لا تقيموه. إن محمدًا ﷺ يطالبكم بإقامة الدين لا بإقامة المولد، وإن دينكم دين الحقائق والأعمال والنُظم فارجعوا إلى تلك الحقائق وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[(٢)].

وبذلك تتضّح نظرته للجوانب الحسنة التي يمكن أن تُستثمر في المولد النبوي، ثم ننتقل بعدها إلى ما استنكره الإمام من مظاهر تلك الموالد كالشركيات والبدع وسائر المنكرات التي تصحبها، وقد تناولها في مواضع عدة، ووقف في إنكارها مواقف خالدة، إذ تكثر في الموالد النبوية صنوفٌ من المنكرات والغرائب والبدع، وقد اجتهد الإمام رحمه الله في بيانها ونقدها من عدة وجوه:

الوجه الأول: انتقاده للشعراء في كثير من قصائدهم المولدية التقليدية، وبيانه أن قصائدهم تلك لا تؤثر في النفوس تأثيرًا يحملها على العمل، فيقول في ذلك: (قرأت كثيرًا مما فاضت به قرائح الشعراء من القصائد المولدية التي يذكرون بها المسلمين في نشأة دينهم، ويجددون عهدهم فيها بميلاد نبيهم، فوجدت كل أولئك الشعراء لا يخرجون عن دائرة تقليدية اتبع فيها آخرهم أولهم، وهي ذكر الخوارق التي صحبت مولده ﷺ ثم يتخلصون إلى مدحه والتوسل به وذكر شمائله وأوصافه الذاتية وقليلًا من أخلاقه النفسية، مما لا يثير في النفس حركة ولا يحملها على قدوة ولا يستفزها إلى عمل)[(٣)].

---

(١) انظر: آثار الإمام (٤/ ١٤٤).

(٢) آثار الإمام (٤/ ١٤٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣١٥).

ومما انتقده عليهم في قصائدهم غلوّهم وإفراطهم في وصف ليلة المولد، فيقول: (ثم يصفون ليلة الميلاد أوصافًا خيالية شعرية يزينونها بالمبالغة والإغراق)[1]، ويبين ﷺ نكيره لغرائب تلك القصائد ومبالغاتها منذ صغره لخروجها في بعض الجوانب عن الحد المعقول، فيقول: (وكنتُ قليل التأثر بتلك المولديات لسلوكها مسلكًا واحدًا من الوصف والمدح والإكثار من الخوارق وحشر الغرائب -ما يُعقل منها وما لا يعقل- . . . وما زلتُ أستثقل تلك المبالغات من المرحلة الأولىٰ من مراحل سني وإدراكي)[2].

الوجه الثاني: استنكاره لما في الموالد من غرائب منكرة، فيروي في ذلك قصة طريفة حدثت عند حضوره هو وأحد الفقهاء المقرئين السلفيين لأحد الموالد في الجزائر، فاستنكرا ما سمعا، فيقول: (ولقد حضرت -منذ سنوات- حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت عالمًا أزهريًا يقرأ علىٰ الناس قصة مولدية -لعلها مولدية المناوي- فسمعت من بعض ما كان يقول قوله: إن النبي ﷺ كان يرىٰ من أمام كما يرىٰ من خلف بعينين خلقهما الله في قفاه . . . وكان بجنبي فقيه مقرئ، خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسرّ إليّ علىٰ سبيل الدعابة قوله: أبىٰ الله إلا أن نكون أسبق منكم لكل شيء فعندنا من هذه (الماركة) من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي ﷺ لم يولد من السبيل المعتاد!)[3]، ولذا نهىٰ الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن العكوف علىٰ احتفالات المولد التي تلقىٰ فيها أمثال هذه القصص المشوّهة، ويبين أنها سبب في تنويم الأمة وأنها أصل من أصول بلائها[4].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (١/ ٣١٥).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٤) انظر: آثار الإمام (١/ ٣٣١).

الوجه الثالث: إنكاره لما يقع في الموالد من بدع ومُغالاة ومنكرات وأحوال غير مَرضية، فمن ذلك قوله: (فنحن لا نقر ذلك الاستحسان الذي يبالغ فيه بعض . . . علماء تلك العصور، فهم يجعلون من حب المولود العظيم عذرًا في ارتكاب بدَع المولد، ومسوغًا لأعمال الملوك الذين لا غاية لهم من تلك الموالد إلا الدعاية لأنفسهم، وقرن أسمائهم باسم النبي ﷺ في مديح الشعراء، واستجلاب العامة بذلك كله)[١].

ومما أنكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله من مساوئ الموالد؛ ما يصحبها من ضياع للجهود والأوقات والأموال في غير طائل، فيقول: (ليس من العدل ولا من العقل أن يقطع علماء الإسلام الآلاف من الأميال، وينفقوا عشرات الآلاف من الأموال، ليحضروا مؤتمرًا يقرر عليهم إقامة حفلات الموالد، كأنه لم يبقَ للمسلمين من المصالح إلا هذا . . . ويا ضيعة الأعمار)[٢].

كما ينكر رحمه الله سكوت بعض العلماء عن منكرات الموالد الواقعة بمصر، فيقول: (سواد الأمة وعديدها الأكثر، عاكفٌ علىٰ الأضرحة، يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الإمداد، وعلماء الدين يمدونهم في الغي بسكوتهم، ومشيخة الأزهر تزكي أعمالهم)[٣].

الوجه الرابع: بيانه لعدم جدوىٰ الموالد وعدم نفعها بالفهم السائد لها والنمط المعتاد فيها، فيقول عن المولد وما يقع فيه من توافه وسخافات: (ولكننا فهمناه علىٰ قياس من عقولنا وهي جامدة، وعلىٰ نحو من هممنا وهي خامدة، وعلىٰ نمط من عاداتنا وهي سخيفة، وقصرناه علىٰ هذه التوافه: لعب للصغار ليس فيها فائدة وخطب للكبار ليس فيها عائدة . . . فنحن في مولده نلهو ونلعب، وقد نفرح ونطرب، ونعمر يومه وأسبوعه بحفلات تقليدية ليس فيها روح)[٤].

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٣٤١).

(٢) آثار الإمام (٤/ ٥٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ٣٣٢).

(٤) آثار الإمام (٤/ ١٤٣).

الوجه الخامس: اقتراحه لبدائل نافعة يمكن أن تُستثمر في الموالد، فمن ذلك بيانه لما ينبغي أن يكون عليه المولد النبوي ليخرج من دائرة البدعة إلىٰ السنة ومن دائرة المنكر إلىٰ المعروف، فيقول: (ولو أننا عرفنا كيف نستفيد من حفلات المولد النبوي التي تقام آلاف المرات في كل سنة، وطهرناها من المجانة واللهو والعبث والمنكرات، التي تبعدنا عن الله وتحجبنا عن حقائق الدين التي جاء بها صاحب الذكرىٰ، ووجهناها إلىٰ تلك المعاني السامية المطربة في سيرته العملية، ورمينا بها إلىٰ الغايات التي هي حقيقة الإسلام وأخلاق المسلم -لو فعلنا ذلك- لنقلناها من باب البدع المنكرة إلىٰ باب السنن الاجتماعية الصالحة المحمودة، ولكان منها في كل مظلمة شعاع هاد، وفي كل معضلة نور نمشي به في الظلمات فلا نخاف ضلالًا ولا زيغًا)[١].

ويرشح الإمام طريقةً خيرًا من طريقة الموالد في احتفالاتها، وأسلوبًا غير أسلوبها، وهو إظهار السيرة النبوية، والأخلاق المحمدية، وبيان ما فيهما من معاني، وما تتركه من أثر صالح في متبعيها، ومن هلاك المعرض عنها، فتتجدد بذلك صلة الأمة بنبيها ﷺ[٢]، واستغلال تلك الاحتفالات لتكون ذرائع لإصلاح حال الأمة، وحملها علىٰ الرجوع إلىٰ السنَن النبوية، والاهتداء بالهدي المحمدي، فلو فعلوا ذلك لَكان لفعلهم محمل سديد وأثر حميد، فالأمور بمقاصدها[٣].

الوجه السادس: تقريره أن المحبة الحقيقية للنبي ﷺ ليست بإقامة الموالد، وإنما في ترك البدع وإحياء السنن، والتأسّي بالسلف الذين لم يقيموا تلك الموالد، فيقول: (أما الحب الصحيح لمحمد ﷺ فهو الذي يدع صاحبه عن البدَع، ويحمله علىٰ الاقتداء الصحيح، كما كان السلف يحبونه، فيُحيون سننه،

---

(١) آثار الإمام (٥/ ١٩٣).

(٢) انظر: آثار الإمام (٢/ ٣٤١).

(٣) انظر: آثار الإمام (٢/ ٣٤١).

ويذودون عن شريعته ودينه، من غير أن يقيموا له الموالد ويُنفقوا فيها الأموال الطائلة التي تفتقر المصالح العامة إلىٰ القليل منها فلا تجده)[1]، وخير الهدي هدي النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﭫ.

وبعد، فهذه جوانب من جهود الإمام الإبراهيمي ﵀ الإصلاحية في مواجهة البدع والخرافات، وتطهير القطر الجزائري من تلك الضلالات، ورحم الله من أحيىٰ سنة وأمات بدعة، وأعان علىٰ تنقية الإسلام من الشوائب.

---

(١) آثار الإمام (٢/ ٣٤١).

المبحث الخامس: محاربة التصوّف

- تمهيد.
- أولًا: جذور الطرقية وأسباب نشأتها.
- ثانيًا: مساوئ الطرقية ومزالقها.
- ثالثًا: سِمَات ومظاهر الطرقية.
- رابعًا: آثار الطرقية السيئة.
- خامسًا: قواعد منهجية في نقد الطرقية.
- سادسًا: نقد عدد من انحرافات الطرقية.

تمهيد

يواصل الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سعيه في إصلاح العقائد وتصحيحها، وبثّ العقيدة الصافية السليمة بين الناس، وقد كان زمانه يعجّ بالطُّرُق الصوفية، فجاهدها الإمام جهادًا كبيرًا ووقف في وجهها مواقف مشهودة، وقد بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حين يتحدّث عن الطُّرُقِيّة فإنه يقصد بها طرق الصوفية المنتشرة، فقال: (والصوفية، أو الطرقية كما نسمّيها نحن في مواقفنا معها، هي نزعة مستحدثة في الإسلام . . .)[1]، والتصوُّف الذي تناوله الإمام هنا لا يقصد به التصوف الأول المتمثل في الزهد والانقطاع للعبادة، وإنما يعني به الحركة الدينية التي تطورت بعد ذلك التصوف الأول، وانتشرت في العالم الإسلامي حتىٰ صارت طُرُقًا مميزة معروفة باسم الصوفية، كالجيلانية والرفاعية والبدوية والدسوقية والشاذلية والمولوية والنقشبندية، وغيرها، والتي من مظاهرها تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلىٰ معرفة الله تعالىٰ بالكشف والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، وجنَح أربابها في المسار حتىٰ تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة، وهناك فروق جوهرية بين مفهومي الزهد والتصوف أهمها: أن الزهد مأمور به، والتصوف جنوح عن طريق الحق الذي اختطَّه أهل السنة والجماعة[2].

---

(١) آثار الإمام (٥/ ١٤١).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (١/ ٢٦٥).

وقد انتظمت جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاربة التصوف في المطالب التالية:

* **أولًا: جذور الطرقية وأسباب نشأتها**
* **ثانيًا: مساوئ الطرقية ومزالقها**
* **ثالثًا: سِمَات ومظاهر الطرقية**
* **رابعًا: آثار الطرقية السيئة**
* **خامسًا: قواعد منهجية في نقد الطرقية**
* **سادسًا: نقد عدد من انحرافات الطرقية**

وفيما يلي عرض لهذه المطالب.

أولًا: جذور الطُّرُقِيّة وأسباب نشأتها

يُرجع الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأة التصوف وغيره من المذاهب إلىٰ عدة أسباب، منها توسع الفتوحات الإسلامية ودخول بعض الأمم في الإسلام بما تحمله من بقايا ماضيها، حتىٰ ظهرت أعراض التفرق، وأطلّت مقالات البدع في العقائد[1]، ثم يقرر بعض الأسباب الأخرىٰ التي أدّت إلىٰ نشأة التصوف؛ فيقول: (وتوفرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية والمذاهب الصوفية في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثر قوي في تعدد المذاهب الكلامية والصوفية . . .)[2]، فمن أكبر أسباب تعدد المذاهب ومنها الصوفية ما دخل علىٰ الأمة من طريق ترجمة الفلسفة اليونانية وأضرابها.

ويبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض جذور الصوفية وتلاقيها مع بعض الأديان والمذاهب الباطلة كالمسيحية والبرهمية، فيقول: (وأما المذاهب الصوفية فهي أبعد أثرًا في تشويه حقائق الدين وأشد منافاة لروحه . . . وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية[3] وهو تعذيب

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٣) البرهمية: هي الهندوسية، ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات =

الجسد وإرهاقه توصلًا إلىٰ كمال الروح زعموا. وأين هذا كله من روح الإسلام وهدي الإسلام؟)[1]، كما يبيّن تلاقيها بعد ذلك مع الباطنية واشتباهها بها، فيقول: (ثم أَمِرَ[2] أمر هذه الصوفية وتَقَوَّتْ علىٰ الزمن، والتقت مع الباطنية[3] وغيرها من الجمعيات التي تبني أمرها علىٰ التستر علىٰ طبيعة دسّاسة وعرق نهل ومزاج متحد. واختلطت تعاليم هذه بتعاليم تلك، وتشابهت الاصطلاحات وابتلي المسلمون من هذه النِّحَل بالداء العضال)[4].

وفي بيان التسلسل التاريخي لنشأة الطرقية، يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا أن التصوف له جذور فارسية: (هي نزعة مستحدثة في الإسلام لا تخلو من بذور فارسية قديمة، بما أن نشأة هذه النزعة كانت ببغداد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واصطباغ بغداد بالألوان الفارسية في الدين والدنيا معروف، وتدسس بعض المتنطعين من الفرس إلىٰ مكامن العقائد الإسلامية لإفسادها، لا يقلّ عن تدسّس بعضهم إلىٰ مجامع السياسة، وبعضهم إلىٰ فضائل المجتمع وآدابها لإفسادها)[5].

= والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلىٰ وقتنا الحاضر، وتضم القيم الروحية والخلقية إلىٰ جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله.

انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (٢/ ٧٢٤).

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٢) أَمِرَ: أي كثُر.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٩)، وتاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٧٢).

(٣) الباطنية: هي الفرق التي تنتسب إلىٰ التشيع وحب آل البيت، وتتخذ من ذلك ستارا لخداع المسلمين مع إبطانهم للكفر المحض، والباطنية اصطلاح عام يطلق علىٰ جمع من الطوائف والفرق المتعددة المتشعبة، وبينها قاسم مشترك هو الاعتقاد بالظاهر والباطن، وتأويل نصوص الشريعة تأويلا باطنا يتوافق مع معتقدات زعموا أنهم اختصوا بها وبمعرفتها دون سواهم.

انظر: فضائح الباطنية، للغزالي (١١-١٢)، والملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٩٢)، وأصول الإسماعيلية، للسلومي (١/ ٢٢٢).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٥) آثار الإمام (٥/ ١٤١-١٤٢).

وعن تطوّر الأفكار والمعتقدات والممارسات لدىٰ الصوفية يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكانت في أول ظهورها بسيطة تنحصر في الخلوة للعبادة أو الجلوس لإرشاد وتربية من يشهد مجالسهم، ثم استفحل أمرها فاستحالت علمًا مستقلًا، يشكّل معجمًا كاملًا للاصطلاحات، ودوّنت فيها الدواوين التي تحلّل وتشرح، وتصف الألوان الباطنية للنفس، وتبيّن الطريق الموصل إلىٰ الله والوسيلة المؤدية للسعادة وكيفية الخلاص من مضائق هذه الطريق وأوعارها)[1].

ثم دخلت الصوفية في طور جديد من الأفكار والممارسات يبيّنه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا: (ثم انتقلت في القرون الوسطىٰ من تلك الأعمال التي تستر أصحابها، إلىٰ الأقوال التي تفضحهم، فخاضوا في شرح مغيبات، وأفاضوا في جدال مكشوف بينهم وبين خصومهم، وكانوا سببًا من الأسباب الأصيلة في شق الأمة شقّين: أنصارًا ومنكرين)[2]، وقد كان من نتاج هذه المرحلة أن: (ضاعت في هذا الضجيج ثمرة هذه النحلة وهي رياضة النفس اللَّجوج علىٰ العبادة وقمع نزواتها البدنية وأصبحت هذه النحلة أقوالًا تدافع، يقولها من لا يفقه لها معنىٰ، فضلًا عن أن تصطبغ بها نفسه)[3].

ثم بقي من تصوف تلك المرحلة اسمه دون رسمه كما يعتقد الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع ما تركه من شقاق بين المسلمين، وفي بيان ذلك يقول: (ولكن تلك النزعة التي عفا رسمها، بقي اسمها، ولم يبقَ بقاءً تاريخيًا للعظة والاعتبار، وإنما بقي فتنة بين المسلمين، وميدانا لعلمائهم يتراشقون فيه ويتنازعون، ولعامتهم يلهون فيه ويلعبون، ويضلون بسببه عن حقائق دينهم ودنياهم)[4].

---

(١) آثار الإمام (٥/ ١٤٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) آثار الإمام (٥/ ١٤٢).

ثم آل أمرها في آخر مراحلها وأطوارها إلىٰ أن غدت نسبةً بلا معنىٰ، ووسيلة انتهاب للأموال وهتك للأعراض، ويوضح الإمام ﷺ ذلك فيقول: (وانتهىٰ بها الأمر في القرون الأخيرة إلىٰ نسبة مجردة من جميع المعاني، ينتسب إليها -تقحمًا- كل من هبّ ودبّ، لا يطلبها من طريق علم ولا تربية، ولكن من طريق الشعوذة والحيلة، ثم تدلّت دركة أخرىٰ فأصبحت وسيلة معاش ومصيدة لابتزاز أموال العامة وانتهاكًا لأعراضهم، وهناك التقت مع الاستعمار في طريق واحد، فتعارفا وتعاهدا علىٰ الولاء)[1].

ونُجمل بيان الإمام الإبراهيمي ﷺ لجذور التصوف وأسباب نشأته في النقاط التالية:

- تَوَسُّع الفتوحات الإسلامية ودخول بقايا بعض الأمم في الإسلام.

- ترجمة الفلسفة اليونانية وأضرابها ودخولها علىٰ الأمة.

- تلاقي التصوف ببعض الأديان والمذاهب الباطلة كالمسيحية والبرهمية والباطنية.

- البذور الفارسية القديمة للتصوف في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة.

- تطوّر الأفكار والمعتقدات والممارسات لدىٰ الصوفية عبر القرون.

---

(١) المرجع السابق.

ثانيًا: مساوئ الطُّرُقيّة ومزالقها

لقد أبان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوضح بيان، وأسفر عن وجه الطرقية القبيح، وذكر جملةً من مساوئها ومزالقها، فذكر من ذلك: ظهورها بمظاهر غريبة تتنافىٰ مع مواقف الأمة الحاضرة، وأنها توحّد معتنقيها في شيء واحد في غايتها التي هي شرّ شرورها وهو الاستسلام المطلق، وأنهم -أي الطرقيين- أعدىٰ عدوّ للعلم، وأنهم السبب في تفريق الأمة وتمزيقها، وأنهم معروفون بالكذب في دعاياتهم بل رأس مالهم الكذب، وأنهم يسعون بالتشويش علىٰ العاملين لخير هذه الأمة، ويُحرّكون لصفع الأمة وشلّ حركتها وإيقاظ الفتنة فيها، وأنهم بشهادة التاريخ والواقع الساعون في إذلالها وهم أظلم الناس لها، وأنهم استعبدوا أرواحها ثم عبَّدوا أبدانها ثم أسلموها للمعتدين، وأنهم لا يعرفون الأمة إلا في مواقف الاستعباد وابتزاز الأموال فإذا مَسَّها الضر وتنكَّر لها الدهر تنكَّروا لها وتجاهَلُوها[١].

وبيّن أن الطرقيّين مطايا الاستعمار الذُّلُل وأيديه الباطشة؛ بل القنطرة التي هوَّنت عليه العبور، وأنهم علىٰ خلاف ما وصف الله به عباده المؤمنين أعزة علىٰ الأمة أذلة علىٰ المستعمرين والحكام المستبدين، وأنهم ليس في صحائفهم السوداء موقف يعز الإسلام أو يرفع المسلمين، وأنهم أعوان علىٰ هذه الأمة

(١) انظر: آثار الإمام (١/٢٩٦-٣٠٢).

للدهر، وحلفاء عليها للفقر، وإلْبٌ علىٰ دينها مع التبشير بالكفر، وأنهم هم الذين أَمَاتُوا رهبة الإسلام ونخوة الإسلام بخضوعهم واستسْلامهم، كما أَمَاتُوا حقائقه بأساطيرهم وأوهامهم، وأنهم مردوا علىٰ الملق والمداهنة المزرية بشرف الإسلام في المواقف التي تسمو عن المجاملة وتقتضي نهاية الصدق في المعاملة، وأنهم جهلاء ويفخرون بالجهل، وأنصاف أميين ويتباهون بالأمية، وأنهم موصوفون بالعناد والإصرار علىٰ الباطل، وأنهم مسلوبو الإرادة فاقدو الاستقلال في العلم يحكمون الهوىٰ ولا يحكّمون الدليل، وأنهم جبناء في العمل[1].

ويذكر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مساوئ الطرقية والمزالق التي وقعوا فيها؛ سيطرة «نزعة التسليم» عليهم، فهم يربّون أتباعهم علىٰ الطاعة دون المطالبة بدليل، فيقول في بيان ذلك: (وإنما انتقلت إلينا عدوىٰ هذه النزعة -نزعة التسليم- من مشائخ الطرق، فقد كانت مسيطرة علىٰ مجالسهم وخلواتهم وكانوا يأخذون أتباعهم فيما يأخذونهم به من أصول التربية بتحقيق معناها من أنفسهم ليروضوهم بها علىٰ الطاعة العمياء لهم، ومن كلماتهم التي سارت مثلًا «سلِّم تَسلَم» و«سلِّم للرجال في كل حال»؛ فكان من آثار هذه النزعة في النفوس ما أنتم تعلمون وما أنتم تشاهدون وما أنتم تعانون)[2]، ومما ذكره في بيان آثار هذا المزلق الخطير وإضراره بالعقول والمَلَكات العلمية؛ قوله: (ثم انتقلت هذه النزعة إلىٰ مجالس العلم فسيطرت عليها وفتكت بعقول المعلمين والمتعلمين، وكان من آثارها هذا الارتخاء الذي نشاهده في ملكاتنا العلمية وهذا الفتور المستحكم الذي استحال إلىٰ انحطاط وتَدَلٍّ في العلم، وقد يستحيل -إذا تمادىٰ- إلىٰ موت وعدم. فهذه إحدىٰ جنايات القوم علىٰ العلم وإن لم يتعمدوها)[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) آثار الإمام (١/ ١٤٧).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٤٨).

ومن مساوئ الطرقية ومزالقها؛ التقاؤها مع الاستعمار، وحمايته لها ولمشايخها، واستخدامه لهم في تضليل الناس وتوطئة الأوطان لاحتلالها، وفي ذلك يقول الإمام الإبراهيمي ﵀: (كان من وسائل فرنسا لإفساد المعنويات ... حماية الدجّالين والمضلّلين باسم الدين من شيوخ الطرق الصوفية، وقد جَنَت فرنسا من هؤلاء كل خير لنفسها، فقد كانوا مطاياها وجنودها الروحيين في احتلال الأوطان الإسلامية)[1].

ومن تلك الخدمات التي قدمها الطرقيون للمستعمر الغاشم؛ تخدير الشعب المسلم ليرضخ لحالة الاستعمار، يقول الإمام ﵀: (واستغلّ الدجّالون من المتصوفة والدراويش، الذين اصطنعتهم فرنسا لغاية التخدير، هذه الحالة النفسية في الشعب، فتعاهدوه بمنوّمات ينسبونها إلىٰ الدين وما هي من الدين، وفحوىٰ تلك المنوّمات أن الرضا بالاستعمار إيمان بالقدر. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥])[2].

ولوضوح هذا الالتقاء بين الطرقية والاستعمار؛ يعدّهما الإمام الإبراهيمي ﵀ استعمارين يلتقيان عند غاية، أحدهما استعمار روحاني داخلي غايته أن يستغل الأمة بصدّها عن العلم حتىٰ يستمر استغلالها، وهي الطرقية التي شوّهت محاسن الإسلام، والثاني استعمار مادي تقوم به حكومة الجزائر باسم فرنسا، وغايته استغلال الأمة أيضًا بسد أبواب العلم في وجهها حتىٰ يتم لها استغلالها، والاستعماران يتقارضان التأييد، ويتبادلان المعونة علىٰ حساب الأمة الجزائرية المسكينة، أولئك يضلّونها، وهؤلاء يذلّونها، وجميعهم يستغلّونها، وأولىٰ الاستعمارين بالمحاربة والمواجهة -في نظر الإمام الإبراهيمي- هم الطرقية لأنهم مطايا الاستعمار، وضمانة وجوده[3].

(١) آثار الإمام (٥/ ٧٩).

(٢) آثار الإمام (٥/ ١٢٣).

(٣) انظر: آثار الإمام (٥/ ١٤١).

ولم يتوقّف الإمام الإبراهيمي رحمه الله عند هذا الحد في بيان هذه الحقيقة من مساوئ الطرقية وتواطئهم مع الاستعمار، بل يعدّ الطرقية سلاحًا فتّاكًا بالشعوب يستعمله الاستعمار، ويؤكد أن الاستعمار ما رست قواعده في شمال أفريقيا إلا بواسطة الطرقية(١)، ومما أكّد به كلامه مقولةٌ لقائد عسكري فرنسي معروف: «إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم علىٰ الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ، علىٰ أن الخضوع لقوّتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضًا»(٢)، ويكفي في بيان هذا أن الاستعمار بالجزائر يسمّي مشايخ الطرق «أحباب فرنسا»!(٣).

ونُجمِل بيان الإمام الإبراهيمي رحمه الله لمساوئ الطرقية ومزالقها في النقاط التالية:

- سيطرة «نزعة التسليم» وتربية أتباعهم علىٰ الطاعة دون المطالبة بدليل.
- التقاؤها مع الاستعمار وحمايته لها ولمشايخها واستخدامه لها في التضليل والتوطئة للاحتلال.
- تفريقها للأمة وتمزيقها.
- اشتهارها بالكذب والتشويش علىٰ العاملين لخير هذه الأمة.
- إيقاظ الفتنة في الأمة وظلمها وابتزازها واستعبادها وخذلانها.
- إماتة رهبة الإسلام ونخوته بالخضوع والاستسلام والجُبن.
- إماتة حقائق الإسلام بالأساطير والأوهام.
- الجهل والأمية والإصرار علىٰ الباطل.
- تحكيم الهوىٰ ومجانبة الدليل.

---

(١) انظر: آثار الإمام (٥/ ١٤٣).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ثالثًا: سِمَات ومظاهر الطُّرُقِيّة

الغموض والتلبيس.

لكل مذهبٍ سِماتٌ تُمَيِّزه عن غيره ومظاهر يُعرف بها، وللتصوّف سمات ومظاهر بيّنها الإمام الإبراهيمي ﷺ في بعض ما كتب، فمن ذلك غموضه وسهولة التلبيس به، والترميز وتغيير الأسماء للمسميات، وإظهار التنسّك والانقطاع عن الخلق؛ فيقول ﷺ في بيان ذلك: (فليس علم الكلام كعلم التصوّف مطيّةً ذلولًا يندفع لركوبها العاجز والحازم. فالتصوف شيء غامض يسعىٰ إليه بوسائل غامضة، ويسهل علىٰ كل واحد ادّعاؤه والتلبيس به. فإن خاف مدّعيه الفضيحة لم يعدم سلاحًا من الجمجمة[1] والرمز وتسمية الأشياء بغير أسمائها. ثم الفزع إلىٰ لزوم السمت والتدرعّ بالصمت والإعراض عن الخلق، والانقطاع والهروب منهم ما دام هذا كله معدودًا في التصوف وداخلًا في حدوده)[2]، ولذلك تغلغل التصوّف وظهرت آثاره في العامّة أكثر من غيره من المذاهب[3].

التظاهر بالتنسّك.

ومن سمات التصوّف التي أوضحها الإمام ﷺ الغموض والإبهام والتستر

---

(١) الجَمْجَمَة: إخفاء الكلام وعدم بيانه. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي (١٠٩٠).
(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٦).
(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ١٦٦).

بالتنسّك والانقطاع للتعبّد، وحمل أتباعه علىٰ التسليم المطلق، وتعذيب الأجساد لترقىٰ الأرواح بزعمهم، فيقول في بيان ذلك عند كلامه عن المذاهب الصوفية: (ترجع في أصلها إلىٰ نزعة غامضة مبهمة، تسترت في أول أمرها بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن اللذات الجسدية والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد وإرهاقه توصلًا إلىٰ كمال الروح زعموا. وأين هذا كله من روح الإسلام وهدي الإسلام؟)[1].

ويزيد الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ توضيح هذه السمات الأوليّة للتصوّف، فيقول: (ومبنىٰ هذه النحلة في ظاهر أمرها التبتّل والانقطاع للعبادات التي جاء بها الإسلام، ومجاهدة النفس من طريق الرياضة بفطمَها عن الشهوات حتىٰ تصفو الروح وتشف وترق وتتأهل لمشارفة المَلإ الأعلىٰ، وتكون بمقربة من أفق النبوّة، وتتذوّق لذة العبادة الروحية، وقد افترق النازعون إلىٰ هذه النزعة من أول خطوة فرقًا. وذهبوا فيها مذاهب، من القصد الذي يمثّله أبو القاسم الجنيد[2]، إلىٰ الغلو الذي يمثّله أبو منصور الحلّاج[3]، إلىٰ ما بين هذين الطرفين)[4].

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٢) هو أبو القاسم، الْجُنَيْد بن مُحَمَّد الخزاز القواريري، أَصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق، كانَ فَقِيها مفتيًا مَقْبُولًا عند الناس، صحب السرّي والحارث المحاسبي، اشتغل بالعبادة ولازمها حتىٰ صار شيخ وقته وفريد عصره فِي علم الأحوال والكلام عَلَىٰ لسان الصوفية، وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة، وكرامات مأثورة، توفي سنة ٢٦٧هـ.
انظر: طبقات الصوفية، للسلمي (١٢٩)، وطبقات الأولياء، لابن الملقن (١٢٦)، وتاريخ بغداد، للبغدادي (٨/ ١٦٨).

(٣) هو الحسين بن منصور الحلاج، المقتول علىٰ الزندقة، كانت له بداية جيدة وتألّه وتصوف، وكان له حسن عبارة، وحلاوة منطق، وشعر عَلَىٰ طريقة التصوف، ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر وأظهر المخاريق، أباح العلماء دمه فقتل سنة ٣٠٩هـ.
انظر: لسان الميزان، لابن حجر (٣/ ٢١١)، وتاريخ بغداد، للبغدادي (٨/ ٦٨٨).

(٤) آثار الإمام (٥/ ١٤٢).

المصطلحات المخترعة.

ويبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن المتصوفّة حاولوا إثبات خصوصيتهم بمصطلحات تفريقية اخترعوها ومنها: «الظاهر والباطن» و«الحقيقة والشريعة»، وذلك بعد أن ظهر أمرهم للناس، ووقف لهم العلماء، وهي تؤول إلىٰ جعل الدين الواحد دينين؛ فيقول موضحًا ذلك: (ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتىٰ جرت علىٰ ألسنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار. فرابَ أئمة الدين أمرها، وانفتحت أعين حرّاس الشريعة فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة[١]، إلىٰ ألفاظ أخرىٰ من هذا القبيل لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين)[٢]، حتىٰ قالوا: إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها[٣].

ومن علماء السنة الذين أوضحوا حقيقة هذا القول وما يحتف به؛ الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال عنه: (لا يخفىٰ قبحه إِنَّهُ عَلَىٰ الحقيقة طَيٌّ لبساط الشريعة)[٤]، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يبيّن بُعد هذا القول عن الحق فيقول: (قالوا: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب. فلما تمكّن هذا من قلوبهم سلَخَها من الكتاب والسنة والآثار، كما يُسلَخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم علىٰ تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات)[٥].

---

(١) الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فالشريعة أَن تعبده والحقيقة أَن تشهده، والشريعة قيام بِمَا أمر، والحقيقة شهود لما قضىٰ وقدر وأخفىٰ وأظهر.
انظر: الرسالة القشيرية، للقشيري (١/ ١٩٥).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٤).

(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي (٢٨٦).

(٥) إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/ ٢٠٨).

اختلاق الظواهر.

ومن سمات المتصوّفة ادّعاؤهم لبعض الظواهر من أمثال «الكشف» و«خرق الحجب» وغيرها من المصطلحات التي يلبّسون بها بعد أن عجزوا عن إثبات اتصال مذهبهم بهدي محمد ﷺ وأصحابه، فيقول في بيان ذلك: (أجمعوا أمرهم وأبدوا للناس بعض مكنونات أسرارهم ملفوفة في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال، وحاولوا أن يصلوا نِحْلَتَهُم تلك بعُجَرِها وبُجَرِها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه فلم يفلحوا، وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبل من أيديهم، فرجعوا إلىٰ ادعاء الكشف[1] وخرق الحُجُب والاطلاع علىٰ ما وراء الحس إلىٰ آخر تلك القائمة التي لا زلت تسمعها حتىٰ من أفواه العامة وتجدها في معتقداتهم)[2].

الغلو في الشيوخ.

ومن سمات الطرقية غلوّهم في شيوخهم، وعداؤهم لمن لم تربطه صلة بأولئك الشيوخ، فيقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا جانبًا من ذلك الغلو المنكر في الشيوخ: (وأن هذه الأخوة القاطعة تفرض عليهم أن يبغضوا كل من لم يتصل معهم بحبل الشيخ، وينابذوه ولا يجتمعوا معه ولو في العبادات الشرعية كالصلاة وقراءة القرآن، أو البدعية كحلقهم الخصوصية، بل يبلغ الغلو ببعضهم كالتيجانية[3] أن لا يصلّوا خلفه ولا يصاهروه)[4].

---

(١) الكشف: الاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودًا وشهودًا.
انظر: التعريفات، للجرجاني (٢٤٦).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٣) التيجانية: فرقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة من الأفكار والمعتقدات الصوفية ويزيدون عليها الاعتقاد بإمكانية مقابلة النبي ﷺ واللقاء به لقاءً حسيًّا في هذه الدنيا، وأن النبي ﷺ قد خصهم بصلاة (الفاتح لما أُغلق) التي تحتل لديهم مكانة عظيمة.
انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (١/ ٢٨١).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٧٢).

وقد وصل بهم الحال في غلوّهم بشيوخهم أن جعلوا لهم حقا فوق حق القرابة، وجعلوا لهم حظا من زكاتهم قبل الفقراء والمساكين، يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعندهم أن حق الشيخ قبل حق الزوجة والأولاد والآباء والأجداد، وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير والمسكين. بل إنهم يصرفون لهم الزكاة كاملة وينقلونها لأجلهم من بلد إلىٰ بلد. فأين حكمة الله في الزكاة؟ وأين مصارفها التي بينها القرآن؟)[1].

وأشنع من ذلك كله في سمة غلوّهم ما يكون بعد موت الشيخ من شيوخهم، فإنه الشرك الذي لا شك فيه: (والأشياخ أشياخ يقدس ميتهم وتشاد عليه القباب، وتساق إليه النذور، ويتمرغ بأعتابه، ويكتحل بترابه، وتلتمس منه الحاجات وتفيض عند قبره التوسلات والتضرعات، ويكون قبره فتنة بعد الممات كما كان شخصه فتنة في الحياة)[2]، وهذه الأحوال من نتاج الغلو المنكر الذي نهىٰ الله جل وعلا عنه، ونهىٰ عنه رسوله ﷺ.

الفساد العريض.

ومن سمات الطرقية المنكرة، ما يشيع بين شيوخها من فساد عريض ونهب للأموال وملابسة للفسوق، وفي ذلك يقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما ضر هؤلاء الأشياخ -وقد دانت لهم الأمة وألقت إليهم يد الطاعة ومكنتهم من أعراضها وأموالها- أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثونها أولادًا لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور. ما ضرهم أن تهزل الأمة إذا سمنوا؟ ما ضرهم إذا فسدت أخلاقها ما دام خلق البذل والطاعة لهم صحيحًا؟ ما ضرهم أن تتفرق كلمة الأمة ما دامت مجمعة علىٰ تعظيمهم واحترامهم، ومغضية علىٰ شرهم وإجرامهم؟)[3].

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٢).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٧٢).

(٣) المرجع السابق.

ويبيّنرحمه الله أن أولئك الشيوخ المشهود لهم بالفساد يغيظهم انكشاف أمرهم وافتضاح خزيهم، وهذا ضربٌ من فسادهم؛ فيقول: (ولكن الذي يضيرهم ويقض مضاجعهم هو أن ترتفع كلمة حق بكشف مخازيهم وحيلهم الشيطانية، وتنفير الناس منهم وتحذيرهم من إفكهم وباطلهم؛ فهنالك تقوم قيامتهم وينادون بالويل والثبور، ويقاومون بما لا يخرج عن طريقتهم في التضليل ودس الدسائس)[1].

ونُجمل ما بيّنه الإمام الإبراهيمي رحمه الله من سمات ومظاهر الطرقية فيما يلي:

- الغموض والتلبيس والترميز.
- إظهار التنسّك والانقطاع عن الخلق.
- حمل الأتباع علىٰ التسليم المطلق.
- تعذيب الأجساد لترقىٰ الأرواح بزعمهم.
- اختراع مصطلحات مفرّقة كالظاهر والباطن والحقيقة والشريعة.
- ادّعاء «الكشف» و«خرق الحجب» وغيرها للتلبيس بها.
- الغلو في شيوخهم وعداؤهم لمن لم يتصل بشيوخهم.
- فساد شيوخهم ونهبهم للأموال وملابستهم للفسوق.

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٣).

رابعًا: آثار الطرقية السيئة

تعدّد المفاسد والشرور والعِلَل.

لم تكن آثار الطرقية في المسلمين بالأمر الهيّن، فرؤوس العلل التي دهت المسلمين كانت أثرًا ونتيجةً لتلك الطرق الفاسدة المفسدة، وفي تقرير ذلك يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (وإذا كان الناظر في أحوال المسلمين ممن رزق ملكة التعليل وأراد إرجاع كل شيء إلىٰ أصله الأصيل ومنبته الأول، فإنه لا يعسر عليه أن يرجع أمهات علل المسلمين الدينية والاجتماعية إلىٰ هذه الطرقية الكاذبة الخاطئة، التي أصبحت من قرونٍ فكرةً تسود العالم الإسلامي وتتحكم في دينه ودنياه، وتتدخل في حياته وسياسته ثم تستحكم في طباعه، فإذا هو في غمرة من الذهول مطبِقَة أضاع معها آخرته ودنياه)[1].

وقد كان مصلحو زمانه يعتقدون ذلك في تلك الطرق المفسدة، وأنها أساس كل شر وفساد طرأ علىٰ ذلك الجيل، فيقول في بيان ذلك: (وعقيدتهم في الطرق هي أنها عِلَّة العِلَل في الإفساد ومنبع الشرور، وأن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء، وغفلة عن الحياة، وإلحاد في الناشئة، فمنشؤه من الطرق ومرجعه إليها)[2].

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٠).

(٢) آثار الإمام (١/١٨٩-١٩٠).

وعدّد رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً من الآثار السيئة للطرقية وأضاليلها، وشرّها المستطير على المسلمين، كقتلها لمشاعرهم، وتفريقها لكلمتهم، وأكلها لأموالهم، وانتهاكها لأعراضهم، وقضائها على أخلاقهم الصالحة، وتمكينها للعبودية والذلّ لغير الله والخوف من غيره سبحانه(١)، وكفى بما ذكره سوءًا ووبالًا!

التعصُّب المَقِيت والفُرقة الممزِّقة.

ويبيّن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الآثار التي خلّفَتها الطرقية، ومن أعظمها التعصّب المقيت المؤدي إلى تفريق الأمة وشق الصف؛ فيقول: (كيف تجتمع وأتباع كل طريقة يعتقدون أنهم أهدى سبيلًا من أتباع بقية الطرق، وأن طريقتهم تضمن لسالكها الغنى في الدنيا وحسن الخاتمة عند الموت، وإن قتل النفس التي حرّم الله بغير حق؟ أم كيف تجتمع وفيهم من يرى من واجبات طريقته ومن شروط المحافظة عليها أن لا يصلي خلف طرقي آخر يخالفه في الطريقة -وإن اشتركا في لقب الإسلام- لا لشيء سوى ذلك؟)(٢)، ويؤكد رَحِمَهُ اللَّهُ أن من آثار الطرقية المقيتة: تشويه الدين وتفريق المسلمين، فيقول: (وأما المذاهب الصوفية فهي أبعد أثرًا في تشويه حقائق الدين وأشد منافاة لروحه، وأقوى تأثيرًا في تفريق كلمة المسلمين)(٣).

ويوضّح الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ جوانب من تلك الفُرقة التي نتجت في الأمّة عن طريق الطرقية المفسدة، فيقول: (إنهم بعد أن أفسدوا فطرتها وأماتوا ما غرسه الإسلام فيها من فضيلة، وفككوا كل ما أحكم بينها من روابط أخوة، وراضوها على الذل والمهانة والخضوع وسدوا عليها منافذ النور فاستقامت لهم على ذلك، فرقوها فرقًا وقسموها إلى مناطق نفوذ يتزاحمون على استغلالها واستعمارها، وأغروا بينها العداوة والتضريب والبغضاء)(٤).

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٢٩٥).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٣٩)، وانظر: آثار الإمام (١/ ٣٠٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٦٨).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٧٢).

وقد كان الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ يقين من هذا الأثر الذي تركته الطرقية في المسلمين، وهو تفرقهم وضلالهم في الدين، إذ يقول: (إننا علمنا حق العلم، بعد التروي والتثبت ودراسة أحوال الأمة ومناشئ أمراضها، أن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، لا يستطيع عاقل سلم منها ولم يبتل بأوهامها أن يكابر في هذا أو يدفعه، وعلمنا أنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا، ونعلم أن آثارها تختلف في القوّة والضعف اختلافًا يسيرًا باختلاف الأقطار)[1].

الاستعمار الروحي والعقلي.

ومن الآثار السيئة التي تركها الاستعمار الروحي «الطرقية» في عقول الأمة الجزائرية أن حال كثيرٍ من هذه العقول مع استعمار الطرقية كما يقول الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يسبح بحمده، ويعتقد أن تلك الطرق كلها طريق إلىٰ الجنة، وأن تلك البدع والضلالات هي الدين، بل هي صميم الدين، وأن كلمة نقد في أولئك المشائخ ولو عصوا الله وفعلوا المنكرات قد تؤدي بصاحبها إلىٰ الكفر، والخسار الدنيوي والأخروي وحلول النقم السماوية)[2]، فألبسوه لبوس العصمة بعد أن عبث في عقولهم، ويقرر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإصلاح في الجزائر مرهون بزوال الطرقية لما لها من سطوة علىٰ عقول الناس وأرواحهم وأبدانهم، فيقول: (لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة، ومع ما لها من سلطان علىٰ الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب)[3].

وقد تعدّىٰ ذلك الأمر من آثار الطرق وتخديرها للعقول إلىٰ بلدان كثيرة، ويوضح الإمام ذلك بقوله: (إن كاتب هذه الأسطر قدر له أن يقيم في الحجاز

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٩٠).

(٢) آثار الإمام (٥/ ١٤٣).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٩٠).

سنوات عديدة في العهد العثماني، والحجاز معرض الأمم الإسلامية، فرأىٰ أن هذه الطرق لم تسلم منها بقعة من بقاع الإسلام، ورأىٰ أنها تختلف في التعاليم والرسوم والمظاهر كثيرًا، ولا تختلف في الآثار النفسية إلّا قليلًا، وتجتمع كلها في نقطة واحدة وهي التخدير والإلهاء عن الدين والدنيا)[١].

إفساد النفوس والفِطَر.

ويبيّن رحمه الله جانبًا آخر من آثار الطرقية السيئة في تمزيق الصف، وإفساد الفطر، واضمحلال معاني الخير، والمسارعة في الموبقات، فيقول لقارئ كلامه: (نحيله علىٰ ما يراه مع مطلع كل شمس من هذه الآثار السيئة التي شتتت شمل المسلمين، وفرقت كلمتهم وفككت روابطهم، وتركتهم أضحوكة الأمم وسخرية الأجيال بعد أن أفسدت فطرتهم وأقفرت نفوسهم من معاني الخير والرجولة . . . يعلم من الدراسة اليسيرة لهذا الحاضر المشهود أن كل ما يراه في المسلمين من جمود وغفلة، وتناكر وقعود عن الصالحات ومسارعة في المهلكات، فمردّه إلىٰ الطرق ومأتاه مباشرة أو بواسطة منها، فلا كانت هذه الطرق ولا كان من طرقها للناس)[٢]، فما أشد جناية تلك الطرق علىٰ الإسلام والمسلمين.

إذلال العلماء.

ومن آثار الطرقية المقيتة علىٰ المسلمين؛ ما نال علماء الإسلام من أذاها ومكرها حتىٰ خضعوا لها وذلّوا تحت وطأتها، وأذلّهم الناس تبعًا لذلك، وفي بيان هذا الأثر المؤلم يقول الإمام رحمه الله: (ومن مكرها الكُبَّار أن تعمد إلىٰ العلماء وهم ألسنة الإسلام المنافحة عنه فترميها بالشلل والخرس، وتصرفها في غير ما خلقت له . . . وفي وقتنا هذا بلغ الحال بالطرق أنها أذلت العلماء إذلالًا واستعبدتهم استعبادًا، ولم ترض منهم بما رضيه سلفها من سلفهم من حفظ

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٩٠).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٦٩).

الرسم واللقب وإبقاء السِّمَة والمكانة بين العامة، بل أغرت العامة بتحقيرهم وإذلالهم)[١]، وإذا هان قدر العالم ضاعت الأمة وهان العلم في نفوس أبنائها.

هجر القرآن.

ومن أعظم تلك الآثار البالغة في السوء التي كانت أثرًا ونتيجةً أنتجتها تلك الطرق؛ بعد المسلمين عن القرآن وهجرهم له بأنواع الهجر، وفي بيان ذلك يقول الإمام ﷺ: (إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين -وهي جفاؤهم للقرآن وحرمانهم من هديه وآدابه- منشؤها من الطرق، فهي التي غشَّت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها، وغشيتهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القرآن)[٢].

ويُرجع الإمام ﷺ سبب ذلك الزهد في القرآن إلىٰ مبتدعات الطرقية وأورادها المخترعة ووسائل الجذب التي خدعوا بها المسلمين وألهوهم بها عن القرآن العظيم، فيقول: (وكيف لا يزهد المسلمون في القرآن وكل ما فيه من فوائد وخيرات وبركات قد انتزعتها منه الطرق، وجردته منها ووضعته في أورادها المبتدعة، ورسومها المخترعة، ونحلته شيوخها ومقدميها وصعاليكها؟ . . . فإذا كان هذا القرآن يفيد معرفة الله- وهي أعلىٰ مطلب- فالقوم عارفون بالله، وإن لم يدخلوا كتّابًا، ولم يقرأوا كتابًا. وكل من ينتسب إليهم فهو عارف بالله بمجرد الانتساب أو بمجرد اللحظة من شيخه)[٣].

ومن وسائلهم الخبيثة التي اتخذوها لتزهيد الناس في القرآن؛ ما أضفوه علىٰ أناجيلهم المبتدعة من تفخيم وأجر عظيم لا يتأتّىٰ بأعظم العبادات المشروعة، يقول الإمام ﷺ: (وإذا كان هذا القرآن متعبدًا بتلاوته اللفظية وهو ستون حزبًا فإن تلاوة إنجيل التيجاني[٤] القصير وهو «صلاة الفاتح» مرة واحدة

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٠).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٧٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني، ولد في قرية عين ماضي من قرىٰ الصحراء =

تعدل ستة آلاف ختمة من القرآن. وإذا كان القرآن قد شرع الغزو وهو من أَحْمَز[1] الأعمال وأشقّها، فإن تلاوة هذا الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل آلاف الغزوات، وهي لا تقوم إلا علىٰ حركة اللسان من غير اقتحام للميدان، ولا تَعَرُّض للرمح والسنان)[2].

ويقول في بيان مزيدٍ من إضلالهم للناس وإبعادهم عن القرآن وتزهيدهم في شرائع الإسلام: (وإذا كان القرآن يفرض الحج وفيه ما فيه من مصاعب ومتاعب، فإن إنجيل التيجاني تعدل تلاوته آلاف المرات من الحج ومئات الآلاف من الصلاة كما هو منصوص في كتب التيجاني وكتب أصحابه. فأي تعطيل للقرآن أعظم من هذا؟ وأي تهوين لشعائر الإسلام ونقض لحكمها أكبر من هذا؟)[3].

وبعد استعراض ما ذكره الإمام الإبراهيمي رحمه الله من آثار الطرقية السيئة؛ نجملها فيما يلي:

- رؤوس علل المسلمين الدينية والاجتماعية.
- فشو الابتداع في الدين والضلال في العقيدة.
- فشو الجهل والغفلة والإلحاد.
- التعصّب المقيت المؤدي إلىٰ تفريق الأمة وتمزيقها.
- تشويه الدين.

= بالجزائر، حفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية، وارتحل متنقلًا بين فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ومكة والمدينة ووهران، أنشأ طريقته التيجانية الصوفية عام (١١٩٦هـ) في قرية أبي سمغون، وصارت فاس المركز الأول لهذه الطريقة، ومنها تخرج لتنتشر في أفريقيا، خلّف زاويته التيجانية في فاس. توفي سنة ١٢٣٠هـ.

انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (١/ ٢٨١).

(١) أَحْمَز: أي أشَد.

انظر: العين، للفراهيدي (٣/ ١٦٨)، ولسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٣٩).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٧١).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٧١).

- ضلال كثير من المسلمين في الدين والدنيا.

- قتل مشاعر المسلمين، وأكل أموالهم، وانتهاك أعراضهم، والقضاء علىٰ أخلاقهم.

- التمكين للعبودية والذلّ لغير الله والخوف من غيره.

- انتشار مساوئها في بقاع الإسلام، وتخديرها للمسلمين وإلهاؤهم عن الدين والدنيا.

- إفساد الفِطَر وإبعاد النفوس عن معاني الخير والرجولة.

- جمود وغفلة كثير من المسلمين.

- تعرض علماء الإسلام لأذاها ومكرها حتىٰ خضعوا لها وذلّوا فأذلّهم الناس.

- بعد المسلمين عن القرآن وهجرهم له بأنواع الهجر وانصرافهم لأورادها المبتدَعة.

خامسًا: قواعد منهجيّة في نقد الطُّرُقيّة

قبل الولوج في بيان نقد الإمام الإبراهيمي ﵀ لعدد من انحرافات الطرقية وردّه عليها؛ نبيّن منهج الإمام ﵀ في ذلك، وهو منتظمٌ في خمسة قواعد:

١- أن العبرة بالدليل من القرآن والسنة وعمل الصحابة وإجماع العلماء.

٢- أن التفاضل يكون باتباع الهدىٰ وليس بالحداثة أو القِدَم إلا ما كان في القرون المفضّلة.

٣- أن الحكم علىٰ الأشياء يكون بالحكم علىٰ آثارها.

٤- أن الدين كامل، وكل زيادة فيه فهي بدعة مردودة.

٥- أن تقادم البدعة لا يصيّرها حقًا.

وسنأتي علىٰ بيان ما أجملناه من منهجه ﵀ ببيان تقريراته في ذلك.

١. العبرة بالدليل من القرآن والسنة وعمل الصحابة وإجماع العلماء.

يقرر الإمام الإبراهيمي ﵀ أن العبرة بالدليل لا بغيره، فيقول في معرِض ردّه علىٰ الطرقية وأباطيلها مبيّنا أن العلم الموروث في الإسلام هو المبني علىٰ الدليل: (وليست التركة التي ورثناها الإسلام عبارة عن أسماء تطفو بالشهرة وترسب بالخمول ويقتتل الناس حولها كالأعلام، أو يفتنون بها كالأصنام. وإنما ورثنا الحكمة الأبدية والأعمال الناشئة عن الإرادة، والعلم المبني علىٰ

الدليل)[1]، ويقول في حجية القرآن والسنة وعمل الصحابة والإجماع بشرطه: (بل الحجة لكتاب الله ولسنّة رسوله، فلا حق في الإسلام إلا ما قام دليله منهما واتضح سبيله من عمل الصحابة والتابعين بهما، أو إجماع العلماء بشرطه علىٰ ما يستند عليهما. وبهذا الميزان فأعمال الناس إما حق فيقبل أو باطل فيرد)[2].

٢. التفاضل يكون بإتباع الهدىٰ وليس بالحداثة أو القِدَم إلا ما كان في القرون المفضّلة.

وأما تقريره أن التفاضل يكون بإتباع الهدىٰ وليس بالحداثة أو القِدَم إلا ما كان في القرون المفضّلة، فيقول في بيانه حين ردّه علىٰ الطرقية في تعظيمهم لأعلامهم الراحلين: (إن حجة الإسلام قائمة، وميزانه منصوب، وآدابه متمثلة في سيرة الصحابة والتابعين، وإننا لا نعرف في الإسلام بعد قرونه الثلاثة الفاضلة ميزة لقديم علىٰ محدث، ولا لميت علىٰ حي، وإنما هو الهدىٰ أو الضلال، والإتباع أو الابتداع)[3]، كما يقول ﷺ في تقرير ذلك: (ونحن إذ ننكر إنما ننكر الفاسد من الأعمال، والباطل من العقائد سواء علينا أصدرت من سابق أم من لاحق، ومن حي أم من ميت؛ لأن الحكم علىٰ الأعمال لا علىٰ العاملين، وليس صدور العمل الفاسد من سابق بالذي يحدث له حرمة أو يصيره حجة علىٰ اللاحقين)[4].

٣. الحكم علىٰ الأشياء يكون بالحكم علىٰ آثارها.

وأما منهجه في الحكم علىٰ الأشياء، فقد بيّنه في ردّه علىٰ الطرقية وتفنيده لغلوّها وأباطيلها التي عمّت آثارها وطمّت، فقال: (ونحن حين نحكم علىٰ

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٣).

(٢) آثار الإمام (١/ ١٧٤).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٧٣).

(٤) آثار الإمام (١/ ١٧٤).

الأشياء نحكم عليها بآثارها. وآثار هذا الغلو في المسلمين كانت الشر المستطير والتفرق الماحق)[1].

٤ .الدين كامل، وكل زيادة فيه فهي بدعة مردودة.

وأما القاعدة المنهجية العظيمة التي يقررها الإمام الإبراهيمي رحمه الله وعلماء الإسلام من قبله، وهي أن الدين كامل وكل زيادة فيه فهي بدعة مردودة، فقد بيّنها بقوله: (وقد روىٰ الثقات عن الإمام مالك أنه من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا. وإنكاره علىٰ الإمام عبد الرحمن بن مهدي[2] وضع الرداء أمامه في الصلاة وعده ذلك من الحدث معروف، وحكايته مع الرجل الذي سأله عن الإحرام من مسجد المدينة وقال له: إنما هي بضعة أميال أزيدها، واستشهاد الإمام بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، كل ذلك معروف مشهور)[3].

٥. تقادم البدعة لا يصيّرها حقًّا.

وأما كون تقادم البدعة دون نكير لا يصيّرها حقًّا ولا معروفًا، فقد قرر الإمام الإبراهيمي رحمه الله ذلك في سجاله مع الطرقية الذي يقصه علينا بقوله: (وذلك

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري اللؤلؤي، الإمام، الناقد، المجود، سيد الحفاظ، كان إماما حجة، قدوة في العلم والعمل، سمع من: سفيان، وشعبة، وأبي يعلىٰ، وحماد بن سلمة، ومالك بن أنس، وعبد العزيز بن الماجشون، وأممًا سواهم، وحدث عنه: ابن المبارك، وابن وهب -وهما من شيوخه-، ويحيىٰ، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وبندار، وأبو خيثمة، وخلقٌ يتعذّر حصرهم. توفي سنة ١٩٨هـ رحمه الله.
انظر: حلية الأولياء، للأصبهاني (٩/ ٣)، والسير، للذهبي (٩/ ١٩٢).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٧٤).

أننا لما أنكرنا عليهم باطلهم الذي يرتكبونه باسم الدين، زعموا أن الطريق هي الدين، ولما نقضنا لهم هذه الدعوىٰ تنزلوا فزعموا أن لها حبلًا واصلًا بالدين وسندًا متصلًا بالسلف، ولما بينا لهم أن الحبل مقطوع وأن السند منقطع قالوا إن هذه الطرقية مرت عليها قرون ولم ينكرها العلماء، فبينا لهم أن عدم إنكار العلماء الباطل لا يصيره حقًا، ومرور الزمن عليه لا يصيره حقًا)[1]، ثم حاجّهم بقسمةٍ عقليّة شرعيّة، فقال: (وقلنا لهم إذا كان سلفكم في الطرقية يعملون مثل أعمالكم فهم مبطلون مثلكم، وإذا كانوا علىٰ المنهاج الشرعي فليسوا بطرقيين)[2].

وبعد بيان القواعد المنهجية التي اعتمد عليها الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في نقد بدع وانحرافات الطرقية، ننتقل إلىٰ عدد من تلك البدع والانحرافات التي تناولها الإمام بالرد والإنكار.

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٤).

(٢) المرجع السابق.

سادسًا: نقد عدد من انحرافات الطرقية

بعد بيان القواعد المنهجية التي استند عليها الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ في نقد انحرافات الطرقية وردّها، نبيّن فيما يلي بعض تلك المواقف والردود التي واجه بها الإمام الطرقية.

بيان ونقد مراحل التصوّف.

فمن ذلك بيان موقف الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ من الصوفية علىٰ اختلاف مراحلها وتطوراتها، وبيانه لتلك المراحل وما صحبها من تغيّرات، وسنتناول كل موقف بياني أو نقدي فيما يلي:

الموقف الأول: بيانه لأصول ومباني الصوفية الأولىٰ التي لم تنحدر في مستنقعات من بعدها، إذ يقول: (ومبنىٰ هذه النِّحْلة في ظاهر أمرها التبتّل والانقطاع للعبادات التي جاء بها الإسلام، ومجاهدة النفس من طريق الرياضة بفطمها عن الشهوات حتىٰ تصفو الروح وتَشِف وتَرِق وتتأهّل لمشارفة المَلإ الأعلىٰ، وتكون بمقربة من أفق النبوّة، وتتذوّق لذة العبادة الروحية)[1].

الموقف الثاني: بيانه لتنازع أرباب الصوفية الأولىٰ وموقف أئمة السنة منها المستند علىٰ الكتاب والسنة، فيقول: (وقد افترق النازعون إلىٰ هذه النزعة من

---

(١) آثار الإمام (٥/ ١٤٢).

أول خطوة فرقًا. وذهبوا فيها مذاهب، من القصد الذي يمثّله أبو القاسم الجنيد، إلىٰ الغلو الذي يمثّله أبو منصور الحلّاج، إلىٰ ما بين هذين الطرفين، وكانت لأئمة السنّة وحماتها -الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومأثوراتها- مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وآراءهم وما يبدر علىٰ ألسنتهم من القول فيها، ولسان هذه الموازين هو صريح الكتاب وصحيح السنّة)[١].

الموقف الثالث: بيان رأيه وموقفه منها قبل اختلافها وتغيرها، وأنها مرجوحة يؤخذ منها ويُرد، فيقول: (والحق في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرجوحة في ميزان الشرع وأحكامه، وإنما يقبل منها ما يساير المأثور، ولا يجافي المعروف من هدي محمد ﷺ وأصحابه، فإن الدين قد تكامل بختام الوحي، والزيادة فيه بعد ذلك كالنقص منه كلاهما منكر، وكلاهما مرفوض، وما لم يكن يومئذٍ دينا فليس بدين بعد ذلك)[٢].

الموقف الرابع: بيانه لتغيّرها من بساطتها إلىٰ كونها علما مستقلاًّ مختلفا، فيقول: (وكانت في أول ظهورها بسيطة تنحصر في الخلوة للعبادة أو الجلوس لإرشاد وتربية من يشهد مجالسهم، ثم استفحل أمرها فاستحالت علمًا مستقلًا، يشكّل معجمًا كاملًا للاصطلاحات، ودوّنت فيها الدواوين التي تحلّل وتشرح، وتصف الألوان الباطنية للنفس، وتبيّن الطريق الموصل إلىٰ الله والوسيلة المؤدية للسعادة وكيفية الخلاص من مضائق هذه الطريق وأوعارها)[٣].

الموقف الخامس: بيانه لمآل أمرها بعد ذلك وتبدّل أحوالها وطرف من آثارها السيئة، فيقول: (ثم انتقلت في القرون الوسطىٰ من تلك الأعمال التي تستر أصحابها، إلىٰ الأقوال التي تفضحهم، فخاضوا في شرح مغيبات، وأفاضوا في جدال مكشوف بينهم وبين خصومهم، وكانوا سببًا من الأسباب الأصيلة في شق

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (٥/ ١٤٢).

الأمة شقّين: أنصارًا ومنكرين، وضاعت في هذا الضجيج ثمرة هذه النحلة وهي رياضة النفس اللجوج علىٰ العبادة وقمع نزواتها البدنية وأصبحت هذه النحلة أقوالًا تدافع، يقولها من لا يفقه لها معنىٰ، فضلًا عن أن تصطبغ بها نفسه)[١]، وقد عدّها الإمام إحداثًا في دين الإسلام، فقال: (والصوفية، أو الطرقية كما نسمّيها نحن في مواقفنا معها، هي نزعة مستحدثة في الإسلام . . .)[٢]، وقد قرر ﷺ أن طريقة الإسلام واحدة، ولا حاجة للمسلمين إلىٰ طرق كثيرة كما آل إليه الحال[٣].

فتبيّن مما مضىٰ أن للإمام الإبراهيمي ﷺ موقفٌ من كلِّ مرحلة للتصوف، وأن ميزانه الذي يزن به في نقده هو الكتاب والسنة، فما وافقهما قبله وما خالفهما ردّه وأنكره.

الموقف من «الخلويّة».

ومما تناوله الإمام ﷺ بالرد والتفنيد لسلوك أولئك المضلّين من الطرقية، ما أوضحه من ضلالهم فيما يسموّنه بالخلوية، فيقول في بيانها: (وكان من تنقيحاتهم المضحكة تحديد مراحل التربية «الخلوية» لمعرفة الله بثلاثة أيام -فقط لا غير-، تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر، ورعي البقر، وحصاد الزرع وبناء الدور مع الاعتراف باسم الفقير، والاقتصار علىٰ أكل الشعير)[٤]، ثم يبيّن ﷺ تهافتهم في سلوكهم وطريقتهم تلك فيقول: (ولئن سألتهم لم نزلتم مدة الخلوة إلىٰ ثلاثة أيام؟ ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر الذي يتطلب السرعة في كل شيء، فقل لهم: قاتلكم الله. ولم نقصتم مدة الخلوة،

(١) المرجع السابق.
(٢) آثار الإمام (٥/ ١٤١).
(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ١٧٥).
(٤) آثار الإمام (١/ ١٧١).

ولم تنقصوا مدة الخدمة أيها الدجاجلة؟)[١]، فحاجّهم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بتلك الحجة العقلية التي تبيّن تناقضهم وإسفافهم.

إنكار بعض التسميات.

ومما انتقده الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ من طرائقهم تسمّيهم باسم «العارف بالله»، مع مخالفتهم لهذه الصفة في واقع حالهم، فيقول ساخرًا منهم: (وقد قرأنا كثيرًا من رسائلهم التي يتراسلون بها فإذا هم ملتزمون لصفة واحدة يصف بها بعضهم بعضًا، وهي صفة «العارف بالله» . . . فقد عرفنا كثيرًا من هؤلاء (العارفين بالله) فلم نعرفهم إلّا حُمُرًا ناهقة!)[٢].

وينكر الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الطرقية تسميتهم لبعض من سبق بالصوفية وأصحاب الطرق، وهم ليسوا كذلك، وإنما اكتسبوا صلاحهم بتديّنهم الشرعي لا بتصوّفهم البدعي؛ فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ موضّحًا ذلك: (ونحن نعلم من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصوف والطرق كانوا علىٰ استقامة شرعية وعمل بالسنة ووقوف عند حدود الله. فهم صالحون بالمعنىٰ الشرعي، ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء، فنحن نسميهم صالحي المؤمنين وهم يسمونهم صوفية وأصحاب طرق)[٣].

نقد مصطلح «الصوفية».

ويتناول رَحِمَهُ اللَّهُ مصطلح «الصوفيّة» بالنقد في مبناه الديني وفي اشتقاقه، وذلك من عدة وجوه:

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) آثار الإمام (١/ ١٧٤-١٧٥).

الوجه الأول: بيانه حدوث التصوّف في دين الإسلام، ووجوب إخضاعه ومراتبه لميزان الشرع، فيقول: (ثم ما هذا التصوف الذي لا عهد للإسلام الفطري النقيّ به؟ إننا لا نقره مظهرًا من مظاهر الدين أو مرتبة عليا من مراتبه، ولا نعترف من أسماء هذه المراتب إلّا بما في القاموس الديني: النبوة والصديقية والصحبة والإتباع ثم التقوىٰ التي يتفاضل بها المؤمنون، ثم الولاية التي هي أثر التقوىٰ، وإن كنا نقره فلسفة روحانية جاءتنا من غير طريق الدين ونرغمها علىٰ الخضوع للتحليل الديني)[1].

الوجه الثاني: نقده للمصطلح من حيث اشتقاقه، فيقول مبيّنًا عواره وغموضه: (وهل ضاقت بنا الألفاظ الدينية ذات المفهوم الواضح والدقة العجيبة في تحديد المعاني حتىٰ نستعير من جرامقة[2] اليونان أو جرامقة الفرس هذه اللفظة المبهمة الغامضة التي يتسع معناها لكل خير ولكل شر؟)[3].

الوجه الثالث: بيانه أن مصطلح «الصوفية» قد انضوىٰ تحت لوائه كثير من أهل الفساد في الأرض، وتحررهم بها من قيود الشريعة، فيقول: (أصبحت هذه الكلمة التي غفلوا عنها أمًّا ولودًا تلد البر والفاجر، ثم تمادىٰ بها الزمن فأصبحت قلعة محصنة تؤوي كل فاسق وكل زنديق وكل ممخرق وكل داعر وكل ساحر وكل لص وكل أفّاك أثيم. وانظر طبقات الشعراني[4] الكبرىٰ وما طبع علىٰ غرارها من

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٥).

(٢) الجرامقة: جيلٌ من الناس، وقومٌ من العَجَم، صاروا بالمَوْصِلِ في أوائلِ الإِسْلام.
انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (٩/ ٢٨٢)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي (٨٧١).

(٣) آثار الإمام (١/ ١٧٥).

(٤) هو عبد الوهاب بن أحمد بن ذوقا الشعراني، ينتهي نسبه إلىٰ محمد بن الحنفية، العالم العارف الصوفي، قرأ علىٰ كثير من العلماء والصوفية كتبهم، وطالع الكتب مطالعة كثيرة، وكان من آيات الله في العلم والتصوف والتأليف، له تصانيف كثيرة منها: «الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية»، و«لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» يعرف بطبقات الشعراني الكبرىٰ، وغيرها. توفي سنة ٩٧٠هـ.
انظر: الكواكب السائرة، للغزي (٣/ ١٥٧-١٥٨)، والأعلام، للزركلي (٤/ ١٧٩-١٨١).

الكتب تجد أصناف المحتمين بهذه القلعة -وهم ببركة حمايتها- طلقاء من قيود الشريعة)[1]، وقد ظلّ هذا الأمر كذلك حتىٰ في هذا العصر: (وإن هذه القلعة لهي المعقل الأسمىٰ والملاذ الأحمىٰ لأصحابنا اليوم. فكل راقص صوفي، وكل ضارب بالطبل صوفي، وكل عابث بأحكام الله صوفي، وكل ماجن خليع صوفي، وكل مسلوب العقل صوفي، وكل آكل للدنيا بالدين صوفي، وكل ملحد في آيات الله صوفي، وهلُمّ سحبًا)[2]، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه يتعيّن علىٰ المصلحين صدّ هذا المورد من موارد الضلال، فإنه ليس من دين الإسلام، وفي ذلك يقول الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: (أفيجمل بجنود الإصلاح أن يدعوا هذه القلعة تحمي الضلال وتؤويه أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملة صادقة شعارهم «لا صوفية في الإسلام» حتىٰ يدكّوها دكًا وينسفوها نسفًا ويذروها خاوية علىٰ عروشها؟)[3].

تلبّس الطرقية بلباس الدين.

ومما انتقده الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ من مسالك الطرقية؛ إلباسهم لطرقهم لبوس الدين، وإنزالهم خصائصه عليها، وتماديهم في ذلك الضلال، فيقول: (والحقيقة أن الطرقيين أرادوا أن يصبغوا طرقهم بالقدسية الدينية فانتحلوا لها هذه الأباطيل وأعطوها خصائص الدين كلها. ألم تر أنهم يعدون الخروج من طريقة ولو إلىٰ طريقة أخرىٰ كالارتداد عن الدين يموت فاعله علىٰ سوء الخاتمة قبحهم الله؟ فما هو إلّا خروج من ضلالة إما إلىٰ هدىٰ وإما إلىٰ ضلالة أشنع)[4].

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) آثار الإمام (١/ ١٧٦).

نقد بعض الشِّرْكيّات والكُفْرِيّات.

ويتحدّث الإمام ﷺ عن كبار الصوفية الذين أدركهم ورأىٰ بعض مخازيهم، والذين سمّاهم هم وأبناءهم «طُلاب دنيا وعبّاد شهوات»، فيقرّر ﷺ فساد ما كانوا عليه، ومنه إقرارهم للشركيات في مجالسهم، فيقول: (ونحن أدركنا كثيرًا منهم وبَلَوْنا أخبارهم فوجدنا ظواهر مُموّهة علىٰ بواطن مشوّهة، وأكبر جرحة دينية فيهم عندي إقرارهم لتلك الأماديح الشعرية الملحونة التي كان يقولها فيهم الشعراء المتزلفون، وينشدونها بين أيديهم في محافلهم العامة، وفيها ما هو الكفر أو دونه الكفر من وصفهم بالتصرف في السموات والأرضين، وقدرتهم علىٰ الإغناء والإفقار وإدخال الجنة والإنقاذ من النار. دع عنك المبالغات التي قد تغتفر)[1].

ويشنّع عليهم الإمام ﷺ رضاهم وإقرارهم بذلك الكفر الذي قيل فيهم، مما يدل علىٰ انسلاخهم من الدين، فيقول: (كل ذلك وهم ساكتون، بل يعجبون لذلك ويطربون، ويثيبون المادح علمًا منهم أن ذلك المديح دعاية مثمرة تجلب الأتباع وتدر المال. ولو كانوا علىٰ شيء من الدين لما رضوا أن يسمعوا تلك الأماديح وهم يعلمون كذبها من أنفسهم، ويعلمون أن فيها تضليلًا للعامة وتغريرًا بعقائدها)[2]، وقد بقيت آثار تلك الأماديح في ذلك القطر، وكانت سببًا في انتشار الطرقية وتغوّلها[3].

إنكار بعض المظاهر السخيفة.

ويَسخر الإمام الإبراهيمي ﷺ من السخف والإسفاف الذي وصل إليه الطرقيّون، وهو أحطّ أطوارهم وآخرها، إذ جعلوا شيخ الطريقة لا يلد إلا شيخ

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

طريقة، فيقول: (ولعل أسخف طور مر علىٰ الطرقية في تاريخها هو هذا الطور الأخير، فقد أصبح من أحكامها أن شيخ الطريقة لا يلد إلّا شيخ طريقة، وهم -قطع الله دابرهم- لا يعرفون من السنة إلّا تناكحوا تناسلوا إلخ، فكثر نسلهم وكثرت بكثرته (مشائخ الطرق)، وأصبح أمر هذه المشيخة لا يتوقف علىٰ تربية ولا تسليك ولا إجازة، وإنما يتوقف علىٰ قاعدة «خبز الأب للابن» أو علىٰ شيء آخر وهو التولية الحكومية . . . فيا للسخرية!)[١].

جهود جمعية العلماء في ردّ التصوف.

وقد كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي رأسها الإمام الإبراهيمي ﷺ فترةً من الزمن؛ جهودٌ إصلاحيّةٌ كبيرةٌ أيضًا في مواجهة الطرقية ومحاربة بدعها، وتجلية أمرها وحقيقتها للأمة حتىٰ لا يغترّوا بها، ويقعوا فرائس في شباكها، وقد عادت الطرقية جمعية العلماء وحاولوا تشويه صورتها، وكادوا لها المكائد وحاولوا إسقاطها بشتّىٰ السبل فلم يُفلحوا -بحمد الله-[٢].

وقد بيّن الإمام ﷺ أن موقف الجمعية من البدع العامة ومن بدع الطرق خاصة كان شديد الرفض والإنكار، واتخذت فيه عدة وسائل من قول وفعل ومحاجّة وقدوة حسنة[٣].

وقد بيّنا موقف الجمعية وجهودها في مواجهة البدع والخرافات في المبحث المتعلق بذلك، وهو يتناول ضمنًا مواجهة الطرقية وبدعها المحدثة[٤].

---

(١) آثار الإمام (١/ ١٧٦).

(٢) انظر: آثار الإمام (١/ ١٨٨-١٨٩)، (١/ ١٩٨).

(٣) انظر: آثار الإمام (١/ ١٩٤).

(٤) انظر: صفحة (٢٤٩) في هذا البحث.

نتاج الجهود الإصلاحية في مواجهة الطرقية.

وبعد مواصلة حثيثة من الإمام الإبراهيمي ﵀ في مسيرته الإصلاحية لنقض انحرافات الطرقية وهدّ حصونها من نفوس الناس، أتمّ الله له مُرادَه فرأىٰ زوالها وسقوطها قبل وفاته، ويقول في ذلك: (بدأنا ذلك كله بإزالة هيبتها الباطلة من الصدور، ومحو سلطتها الكاذبة من النفوس، ثم كشفنا عن نسبتها المزورة إلىٰ الدين الحنيف. فما تمّ لنا ذلك حتىٰ انهارت من أساسها، وتلك عاقبة كل بناء بُني علىٰ الوهم والتزوير. وقد أحيانا الله حتىٰ شهدنا جنازتها بلا ردة، وهلنا عليها التراب بأيدينا غير آسفين)[(١)]، فلله الحمد أولًا وآخرًا.

وبعد هذا الاستعراض لجهود الإمام الإبراهيمي ﵀ في نقد بعض انحرافات الطرقية/الصوفية؛ نُجمل أهم ما ذكره في النقاط التالية:

- أن الطرقية إحداث في دين الإسلام.

- تهافت الطرقية في سلوكهم وطريقتهم المسماة بالخلويّة.

- تسمّي الطرقيين باسم «العارف بالله» مع مخالفتهم لهذه الصفة في واقع حالهم.

- تسميتهم لبعض السابقين بالصوفية وأصحاب الطرق وهم ليسوا كذلك، وإنما اكتسبوا صلاحهم بتديّنهم الشرعي لا بتصوّفهم البدعي.

- مصطلح «الصوفية» لفظة مبهمة غامضة يتسع معناها لكل خير ولكل شر.

- الصوفية فلسفة روحانية جاءتنا من غير طريق الدين.

- مصطلح «الصوفية» انضم إليه كثير من أهل الفساد وتحرروا به من قيود الشريعة.

---

(١) آثار الإمام (١/ ٤٠٧).

- إلباسهم لطرقهم لبوس الدين، وإنزالهم خصائصه عليها، وتماديهم في الضلال.

- فساد كبار الصوفية وإقرارهم للشركيات في مجالسهم وانسلاخهم من الدين.

- وصول الطرقية لمرحلة منحطّة من السخف والإسفاف ومن ذلك أن جعلوا شيخ الطريقة لا يلد إلا شيخ طريقة.

وما سبق بيانه من جهود الإمام الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الردّ علىٰ الطرقية وبيان فسادها وضلالها هو جانبٌ من حياته وكفاحه في سبيل نشر العقيدة الصحيحة وإصلاح ما فسد من عقائد الناس، وهي ظاهرةٌ في مواضع كثيرة من آثاره، ومواقف مختلفة في حياته[1].

---

(١) انظر: آثار الإمام (١/ ٢٩٥-٣٠٤).

الخَاتِمَةُ

الخاتمة

وبعد هذه الجولة الماتعة في التراث العقدي للبشير الإبراهيمي رحمه الله، يتبيّن للقارئ المبارك حجم الجهد الإصلاحي الكبير الذي بذله الإبراهيمي رحمه الله لتصحيح عقائد الناس ونبذ كل مفسدٍ لها، كما يتبيّن اضطلاع الشيخ رحمه الله بعلوم الإسلام، وحسن توظيفه لها في مشروعه الإصلاحي، واتّباعه لمنهج السلف الصالح في أقواله وأفعاله، واتخاذه الوسائل الممكنة للوصول إلىٰ غايته، وتنويعه بينها لتؤتي أُكلها وتينع ثمارها.

وفيما مرّ معنا تبصرةٌ ونِبراسٌ لمن وراء الشيخ ليقتفوا أثره في الإصلاح العقدي الذي تمسّ الحاجة إليه، ولاسيما في عصورِنا المتأخرة التي شابها ما شابها من فسادٍ وتبديل.

رحم الله البشير الإبراهيمي وغفر له، وأعلىٰ في الجنة نُزله، وجزاه عما قدم خير ما جزىٰ مصلحًا عن إصلاحه.

والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يردّهم إليه ردًّا جميلًا، وأن يهيِّئ للأمة أمرًا رشَدًا، وأن يبارك في خطىٰ علمائها ودعاتها ومصلحيها، وأن يستعملنا جميعًا في طاعته.

هذا ما تيسّر بيانُه وتسنّىٰ إعلانُه.

وفقّنا الله وإياكم لنيل رضوانِه ودخول جِنانه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

الفهارس

فهرس الآيات

الآية أو طرف منها [السورة ورقم الآية]	الصفحة
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]	٢٠٩
﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]	٢٣٥
﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١٥]	٣٨
﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]	٢٢٠
﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ [الحشر: ١٠]	١٥٠
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]	١١٣
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]	٤٥، ٤٦

فهـرس الأحـاديـث

فهرس الأعلام المترجم لهم

قائمة المصادر والمراجع

١- الإبانة عن أصول الديانة، المؤلف: أبو الحسن الأشعري، المحقق: د. فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار - القاهرة. الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٧هـ.

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لمؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، المحقق: عثمان الأثيوبي - رضا معطي - يوسف الوابل - حمد التويجري، دار النشر: دار الراية - الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٣- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، ١٩٩٤م.

٤- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المؤلف: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٥- الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٦- الاستقامة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ.

٧- أصول الإسماعيلية، المؤلف: د. سليمان بن عبدالله السلومي، الناشر: دار الفضيلة - الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٨- أصول الحديث علومه ومصطلحه، المؤلف: د. محمد عجاج الخطيب، الناشر: دار الرحمة، الطبعة الثامنة.

٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر - بيروت، عام: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٠- الاعتصام، المؤلف: إبراهيم اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير - د. سعد بن عبد الله آل حميد - د. هشام بن إسماعيل الصيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١١- الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

١٢- إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ.

١٣- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب - بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٤- الأم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، سنة الطبعة: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٥- الإمام عبدالحميد بن باديس حياته وآثاره، المؤلف: د. عمار طالبي، الناشر: عالم المعرفة - الجزائر، دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤م.

١٦- البحر المحيط في أصول الفقه، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٧- البدع والنهي عنها، المؤلف: محمد بن وضاح القرطبي، المحقق: محمد أحمد دهمان، دار النشر: دار الصفا - القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

١٨- بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف، المؤلف: عبدالرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، المحقق: محمد ناصر العجمي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

١٩- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضىٰ الزَّبيدي، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولىٰ/ ١٤١٤هـ.

٢٠- تاريخ الجزائر الثقافي (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، المؤلف: أبو القاسم سعد الله، الناشر: دار البصائر للنشر والتوزيع - الجزائر ٢٠٠٧م.

٢١- تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢٢- التحف في مذاهب السلف، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٢٣- تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤هـ.

٢٤- التعالم وأثره علىٰ الفكر والكتاب، المؤلف: بكر بن عبدالله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ.

٢٥- التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٦- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة - الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٧- تلبيس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢٨- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ.

٢٩- تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٣٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣١- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣٢- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٣٣- جامع بيان العلم وفضله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٣٤- الجزائر الثائرة، المؤلف: الفضيل الورتلاني الجزائري إبراهيم بن مصطفىٰ، الناشر: دار الهدىٰ - الجزائر، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩م.

٣٥- الجزائر بلد المليون شهيد، المؤلف: جمال الدين الآلوسي، مطبعة الجمهورية ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٣٦- جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

٣٧- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٣٨- حاشية علىٰ شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف، الناشر: دار البيان، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٣٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران الأصبهاني، الناشر: السعادة - مصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٤٠- حلية طالب العلم، المؤلف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.

٤١- دحض شبهات علىٰ التوحيد من سوء الفهم لثلاثة أحاديث، المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز، الملقب بـ «أبابطين»، المحقق: عبد السلام بن برجس العبد الكريم، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م.

٤٢- الدرر السنية في الكتب النجدية، تأليف: علماء نجد الأعلام منذ عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٤٣- الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المؤلف: عبدالرحمن ابن زيدان، الناشر: المطبعة الاقتصادية بالرباط، ١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م.

٤٤- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، المؤلف: أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي، أبو بكر البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ - ١٤٠٥هـ.

٤٥- ذكريات، المؤلف: علي بن مصطفىٰ الطنطاوي، الناشر: دار المنارة - جدة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤٦- الرسالة القشيرية، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: د. عبد الحليم محمود - د. محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف - القاهرة.

٤٧- رسالة في حقيقة التأويل، المؤلف: عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي، المحقق: جرير بن العربي، الناشر: دار أطلس الخضراء - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤٨- زادِ المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولىٰ - ١٤٢٢هـ.

٤٩- الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٥٠- السنة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، المحقق: سالم أحمد السلفي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.

٥١- سنن ابن ماجه، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٥٢- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامِل قره، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٥٣- سنن الدارمي، المؤلف: عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي - خالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٧هـ.

٥٤- سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، المحقق: مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٥٥- السيرة النبوية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفىٰ عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة - بيروت ١٣٩٥هـ-١٩٧٦م.

٥٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي، المحقق: محمود الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٥٧- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، المؤلف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢هـ.

٥٨- شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، المحقق: عبد اللطيف الهميم - ماهر ياسين فحل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ.

٥٩- شرح السنة، المؤلف: الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

٦٠- شرح السنة، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٦١- شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٦٢- شرح ثلاثة الأصول، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٦٣- الشريعة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، المحقق: د. عبد الله بن عمر الدميجي، الناشر: دار الوطن - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٦٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، المؤلف: القاضي عياض أبو الفضل السبتي، الناشر: دار الفيحاء - عمان، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧هـ.

٦٥- الصارم المسلول على شاتم الرسول، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

٦٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هم.

٦٧- طبقات الأولياء، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الشافعي المصري، تحقيق: نور الدين شريبه، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٦٨- طبقات الحنابلة، المؤلف: أبو الحسين محمد بن محمد ابن أبي يعلى، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

٦٩- طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٧٠- طبقات الشافعية، المؤلف: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي ابن قاضي شهبة، المحقق: د. الحافظ عبد العليم خان، دار النشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٧١- طبقات الصوفية، المؤلف: محمد بن الحسين النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٧٢- الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد، المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٧٣- طبقات النسابين، المؤلف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٧٤- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المحقق: نايف بن أحمد الحمد، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ.

٧٥- ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، المؤلف: د. سلطان بن عبدالرحمن العميري، الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٨هـ.

٧٦- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، دار النشر: مكتبة الشركة الجزائرية مرازقه بو داود وشركاؤهما، الطبعة الثانية.

٧٧- العقود الذهبية علىٰ مقاصد العقيدة الواسطية، المؤلف: د. سلطان بن عبدالرحمن العميري، الناشر: دار مدارج، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.

٧٨- العقيدة الطحاوية، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٧هـ.

٧٩- العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلىٰ قيام الساعة أهل السنة والجماعة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٨٠- العقيدة في الله، المؤلف: عمر بن سليمان الأشقر العتيبي، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٨١- العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، المحقق: د. مهدي المخزومي - د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٨٢- الفائق في غريب الحديث والأثر، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، المحقق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة الثانية.

٨٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، عام ١٣٧٩هـ.

٨٤- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة - مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٥- الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، الناشر: دار الصميعي - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨٦- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

٨٧- فضائح الباطنية، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المحقق: عبد الرحمن بدوي، الناشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت.

٨٨- قاعدة في المحبة، المؤلف: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرّاني، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.

٨٩- القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٩٠- قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، تأليف: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد، الطائف - مكتبة دار البيان، دمشق. الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٩١- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، المؤلف: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٩٢- الكفاية في علم الرواية، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المحقق: أبو عبدالله السورقي - إبراهيم حمدي المدني، الناشر: المكتبة العلمية - المدينة المنورة.

٩٣- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، المؤلف: نجم الدين محمد بن محمد الغزي، المحقق: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٩٤- اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، المحقق: عادل بن محمد مرسي رفاعي، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٩٥- اللباب في تهذيب الأنساب، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، الناشر: دار صادر - بيروت.

٩٦- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤هـ.

٩٧- لسان الميزان، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٩٨- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، المؤلف: أبو العون شمس الدين السفاريني، تحقيق: خالد القحطاني، وإسماعيل العدوي، ومبارك المطيري، الناشر: دار التوحيد، الطبعة الأولىٰ.

٩٩- مجموع الفتاوىٰ، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية - عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٠٠- المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٠١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٠٢- المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.

١٠٣- المستدرك علىٰ الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

١٠٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون بإشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٠٥- مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار)، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٩م.

١٠٦- مسند الشاميين المؤلف: سليمان بن أحمد الطبراني، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

١٠٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠٨- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

١٠٩- المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.

١١٠- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول، المؤلف: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١١١- معجم أعلام الجزائر مِن صَدر الإسلام حَتّىٰ العَصر الحَاضِر، المؤلف: عادل نويهض، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١١٢- معجم البلدان، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

١١٣- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١١٤- المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، المؤلف: بسام العسلي، الناشر: دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١١٥- مقدمة في أصول التفسير، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، الطبعة: ١٩٨٠م.

١١٦- الملتقىٰ الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرىٰ الأربعين لوفاته، تأليف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٦م.

١١٧- الملل والنحل، المؤلف: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

١١٨- مناط الكفر بموالاة الكفار، المؤلف: د. عبدالله بن محمد القرني، الناشر: دار الدراسات العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ.

١١٩- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٢٠- المواقف، المؤلف: عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٧م.

١٢١- المورد العذب الزلال في كشف شبه أهل الضلال، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولىٰ، بمصر ١٣٤٩هـ، النشرة الثالثة، ١٤١٢هـ.

١٢٢- موسوعة أعلام المغرب، مجموعة مؤلفين، تحقيق: محمد حجي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ.

١٢٣- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ.

١٢٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

١٢٥- ميليشيا الإلحاد، المؤلف: عبدالله بن صالح العجيري، الناشر: مركز تكوين للدراسات والبحوث، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ.

١٢٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٢٧- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المؤلف: أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه التِكروري التنبكتي السوداني، الناشر: دار الكاتب - طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

١٢٨- الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٢٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان البرمكي، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت.

المحتويات

الموضوع	الصفحة